سلسلة الترجمات - ١٥

J. RICHARD PEARCEY

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

FINDING TRUTH

5 PRINCIPLES *for* UNMASKING ATHEISM, SECULARISM, *and* OTHER GOD SUBSTITUTES

NANCY PEARCEY

BESTSELLING AUTHOR OF *TOTAL TRUTH*

البحث عن الحقيقة

خمسة مبادئ لكشف الإلحاد والعلمانية

نانسي بيرسي

ترجمة : مركز دلائل

البحث عن الحقيقة

البحث عن الحقيقة

خمسة مبادئ
لكشف الإلحاد والعلمانية وغيرهما مما يُعبد من دون الله

تأليف

نانسي بيرسي

ترجمة

مركز دلائل

أشرف على الترجمة :

د. آلاء حسكي

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

إذن طباعة من وزارة الإعلام رقم :
0512201800146 28

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه

لا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

Finding Truth

Nancy Pearcey

البحث عن الحقيقة

نانسي بيرسي

ترجمة: مركز دلائل

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2017 for **Dalail centre**

Originally published in English under the title: Conscience and Its Enemies

Copyright © 2013 by Robert P. George

Intercollegiate Studies Institute, 3901 Centerville Road, Wilmington, Delaware, 19807-1938 USA

No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder.

تصدير:

لا شك أن الترجمة هي من أوسع أبواب الاستزادة المعرفية والعلمية وتبادل الخبرات بين البلدان والأمم والثقافات والشعوب، ومن هنا كان لسلسلة (الترجمات) لدى مركز دلائل عناية خاصة في انتقاء أفضلها وأكثرها ملاءمةً، مع الوضع في الاعتبار عدم تبني المركز لكل مكتوب أو منقول بالضرورة.

وفي هذا الكتاب تستعرض معنا المؤلفة نانسي بيرسي أهم خمسة مبادئ تهدم الأصنام الحديثة التي اتخذتها فلسفات وعقائد بديلا عن الإيمان بالله، حيث يتم التركيز في كل مبدأ منها على نقطة محددة يتم بها كشف بطلان ذلك البديل، وبما يعطي القارئ العادي مفتاحًا جيد الأداء في التعامل مع الهالة الزائفة التي يحيطون بها تلك الأصنام من التعظيم غير المستحق. ولعل أقوى هذه المبادئ هو ما يُظهر تناقض ذلك البديل في نفسه فيهدم عقيدته بيديه بكل سهولة لمَن يدقق ويناقش.

مركز دلائل

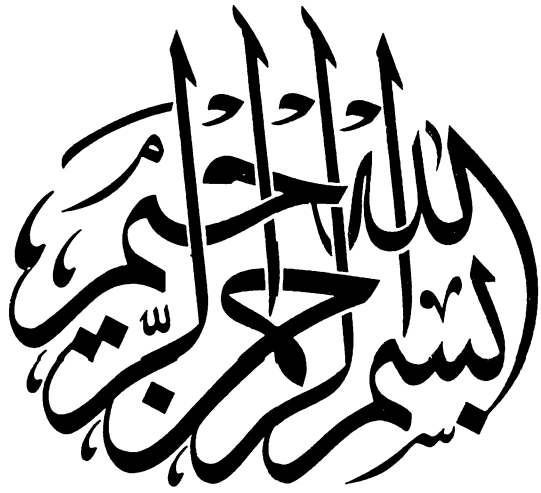
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات:

المحتوى | الصفحة

۞ تنويه: ١٣
۞ تقريظ الكتاب ١٥
۞ تقديم ٢٤
۞ القسم الأول: «لقد فقدتُ إيماني وأنا في كليَّة إنجيليَّة» ٣٣
○ المبدأ الأول: اعرف الصنم ٥٢
○ المبدأ الثاني: اعرف اختزالية الصنم ٥٣
○ المبدأ الثالث: افحص الصنم: هل يتناقض مع ما نعرفه عن العالم؟ ٥٤
○ المبدأ الرابع: افحص الصنم: هل يتناقض مع ذاته؟ ٥٦
○ المبدأ الخامس: استبدل الإله: حجة لمصلحة المسيحية ٥٧
۞ القسم الثاني ٦٣
○ المبدأ الأول: أفول الآلهة ٦٥
○ المبدأ الثاني: كيف ربح نيتشه ١٠٠
○ المبدأ الثالث: العلمانية وقفزاتها الإيمانية ١٤١
○ المبدأ الرابع: لماذا تنتحر الرؤى الكونية؟ ١٦٨
○ المبدأ الخامس: الملحدون الطفيليون ١٩٧
۞ الملاحظات ٢١٥
○ القسم الأول ٢١٦
○ القسم الثاني ٢٢٣

تنويه:

لتعظيم الفائدة من الكتاب استبدلنا ببعض الألفاظ المسيحية والخاصة بالكتاب المقدس (الإنجيل كما يسميه النصارى) كلماتٍ تمثل الدين والإيمان بشكل عام لتناسب كل أحد، كذلك لوحظ عدم اطلاع الكاتبة على أصول الدين الإسلامي قرآنًا أو سنة (بعكس اطلاعها الواسع على ما انتقدته من أفكار وفلسفات ومعتقدات أخرى)، وأنها اعتمدت في كلامها القصير عن الإسلام على نقولات شاذة تم الرد عليها في مواضعها، وكذلك تعمدنا الاستشهاد بالكثير من الآيات والأحاديث في التعليقات لبيان ما فات المؤلفة منه وما يقابل نقولاتها عندنا مما لم تعرفه هي أو غيرها، كذلك تم استبعاد القسم الثالث والإسهاب في بعض النقاط النصرانية (أو المسيحية كما يسميها أصحابها اليوم) منعًا للتكرار، ولتقليل حجم الكتاب خصوصًا مع إبقائنا على الفوائد الكثيرة في الملحوظات التي في آخره (تتميز أرقام حواشي تعليقاتنا بأنها بين قوسين، في حين أرقام الملحوظات بدون أقواس).

* * *

تقريظ الكتاب

ماذا قال الناس عن كتاب

البحث عن الحقيقة

- «دعت نانسي بيرسي قُراءها لتطبيق الآية «امْتَحِنُوا كُلَّ شَيْءٍ»، ذلك أنَّ رحلتها للبحث عن إجابات - كما هي رحلتي - كشفت أنَّ الأسئلة الأعمق للقلب والعقل لا تتلاشى، ويجب أن يجاب عليها. سواءً كنت متدينًا أم لا، فلكل شخص رؤيته الكونية. ويوضح كتاب **البحث عن الحقيقة** كيف أنَّ أنظمة التفكير المتنافسة تستعير من الدين[1]، حتى عندما ترفضها. كما أنَّه يزود بأدوات مفيدة في تقويم تماسك وصلاحية رؤية المرء الكونية تقويمًا نقديًّا. وهو مصدرٌ عملي قوي يحمل بصيرة نافذة».

رافي زاكارياس **Ravi Zacharias**، كاتب ومتحدث

- «لقد فعلتها نانسي بيرسي مرة أخرى، فقد كتبت مصدرًا هامًّا آخر لتفحص أهمية افتراضات الرؤى الكونية. تمنيت لو كنت ضممت نانسي لفريق بحثي كمستقصية. هي تستحق هذا الثناء؛ فهي تعي أهمية معتقداتنا الأساسية في أي استقصاء. فمثلاً يصف المبدأ الخامس حياتي كملحد بطريقة مثالية. لو أني قرأت هذا الكتاب عندما كنت شابًّا لأجبرني - باعتقادي - على إعادة تفحص رؤاي في فترة أبكر من عمري. كان عمل نانسي هامًّا لنشأتي،

---

(١) يقصد هنا أن الأفكار (حتى المادية الإلحادية) تستعير من الدين الإيمان بشيء غيبي (أي شيء لا يمكن رصده ولا تجريبه ماديًّا) وإلا لما استقام لهم التفكير خاصة في نشأة الحياة وتنوعها أو نشأة الكون (مثل إيمان الكثير من الملاحدة بتطور الكائنات الحية بعضها من بعض رغم أنه لم يره ولم يرصده أحد وكذلك إيمانهم بالأكوان المتعددة والأوتار الفائقة وغيرها من الفرضيات التي لا أدلة تجريبية ولا رصدية عليها). (المترجم)

وسيساعد كتابها الأخير الباحثينَ على فهم أهمية الرؤى الكونية، حتى إنه يساعد المؤمنين على النشأة واثقين بإيمانهم».

جاي وارنر والاس J. Warner Wallace، مؤلف كتاب قضية المسيحية الباردة: تحري محقق جنائي في ادعاءات الأناجيل Cold-case Christianity: A Homicide Detective Investigates the Claims of the Gospels

- «فكَّكَت نانسي بيرسي فكريًّا مذهب الإنسانية والإلحاد، ومذهب الاختزالية، وكل المعتقدات الفكرية الأخرى التي تنصّب نفسها في مواجه معرفة الرب. إنَّ العيب الأبرز لجميع تلك المعتقدات - الذي تحدثت عنه نانسي - أنَّها لا تقدم لمتبعها أيَّ أمل. تحطم حججها المندمجة مع الإيمان أسس جميع الرؤى الكونية الأخرى غير المتفقة مع الدين».

فيل روبرتسون Phil Robertson، من برنامج *داك داينستي Duck Dynasty*

- «يمثل هذا الكتاب نانسي بيرسي في قمة إقناعها العميق على أكمل وجه، والعملي في الوقت نفسه. اقرأه وأنت جاهز لتميز العبارات الهامة فيه»!

لي ستروبل Lee Strobel، الكاتب ذو المؤلفات الأكثر مبيعًا في مطبعة *نيويورك تايمز*

- «كتاب رائع ... أصبحت الرؤى الكونية العلمانية وجباتٍ فكرية سريعة في يومنا؛ لها مذاقٌ رائع، لكن ليس لها قيمة غذائية. يسطع النور الباهر لنانسي بيرسي على الرؤى الكونية التي تتنافس مع الدِّين، وتخبرنا ما الخطأ فيها؛ والحقيقة أنَّ الخطأ فيها هو كل شيء تقريبًا. لقد خلقت تلك الرؤى أصنامًا كاذبة. فهي تقود لليأس والاستبداد والاستحالة. لقد محت الله واختزلت الإنسان إلى كيسٍ من البروتينات. إنَّها لا تناسب تجربتنا عمَّا يعنيه أن تكون كائنًا بشريًّا. يجب أن يكون كتاب بيرسي ضمن أدوات البقاء لكل طالب يتجه للجامعة، تمنيت لو كان لدي هذا الكتاب عام ١٩٦٢».

جون آر إريكسون John R. Erickson، صاحب مزرعة، ومؤلف سلسلة هانك كلب رعي الأبقار Hank the Cowdog

- «هذا الكتاب مذهل! نعيش تحت هجوم ثقافي لثنائي التنانين: الحداثة وما بعد الحداثة. لكن وبإيعاز ديني استلت نانسي بيرسي سيفها وقضت على ذلك الثنائي قضاءَ مبرمًا. وجدت أنَّ علم الدفاع عن العقائد له الشق الأكبر من العمل، ومع ذلك كان الكتاب مفهومًا تمامًا لجميع من يقرؤه».

  دوغ تنابيل Doug TenNapel، مؤلف *تومِيسوروس ريكس Tommysaurus Rex*، ومصمم لعبة *دودة الأرض جيم Earthworm Jim*

- «صدقًا إنه كتاب رائع ... كانت نانسي بيرسي ولعدة عقود تمثل لنا ما كان يمثله المدافع فرانسيس شيفر للمؤمنين في زمنه: فكرًا ثقافيًّا يقدم انتقادات فكرية مدروسة ومتقصية بعناية للتفاعلات مع عقائد الرؤى الكونية المتنوعة التي تنافس الدين. ربما يكون كتاب **البحث عن الحقيقة** أفضل ما قدمته بيرسي حتى اليوم. لقد كُتب بلغة مفهومة واضحة وشمل طيفًا واسعًا من القضايا. هادفًا لمساعدتنا على التفكير تفكيرًا نقديًّا في النظريات المحددة التي تواجههم في الثقافة الغربية، وقد نهضت فيه نانسي بيرسي بخمسة مبادئ من رسالة رومية ١ استخدمتها لتحليل عددٍ من الرؤى الكونية المختلفة الموجودة. لقد كان مبدئي المفضل هو 'تعريف اختزالية الصنم.' وأي شخص يعرف الصراع بين الرؤى الكونية سيقر بأنَّ الاختزالية تقبع في قلب منافسي الدين. أنا أنصح بشدة بهذا الكتاب الممتع، وأتمنى له انتشارًا واسعًا».

  جيمس بورتر مورلاند J P. Moreland أستاذ فلسفة مرموق في جامعة بيولا.

- «قدمت لنا نانسي بيرسي فائزًا آخر. وقد وجدنا مجددًا ما توقعناه منها: كتابًا سهل القراءة، فيه أفكار واضحة، وتعقب للأسئلة البارزة واعتبارٌ عالٍ لمرجعية الدين مع شغف الانخراط في الثقافة الدينية».

  ألبرت م. ولترز Albert M. Wolters مؤلف *اسْتُعيد الخلق creation Regained*

- «لقد قامت نانسي بيرسي بذلك مجددًا. في وقت يترك فيه ثُلث الشباب الكنيسة بسبب الشكوك الفكرية، أظهرت نانسي بيرسي كيف تكون حقيقة الدين أكثر إقناعًا من الرؤى الكونية المتنافسة، وكيف أنَّها أكثر جذبًا. إنَّ الدين هو الحب الأسمى للكائنات البشرية. الدين هو المفتاح الذي يناسب قفل الكون».

كيلي مونرو كولبرغ Kelly Monroe Kullberg مؤلفة كتاب *البحث عن الله خارج حدود هارفارد Finding God Beyond Harvard* ومؤسسة منتدى فيريتاس Veritas ومؤسسة ورئيسة الحفاظ على أمريكا The America Conservancy

http://americaconservancy.org/our-story/

- «أظهرت لنا نانسي بيرسي أنَّ علم الدفاع عن الدين يمكن أن يكون عميقًا وعمليًّا. لقد أوضحت أنَّ مقاومة الدين تتبع مصدرًا واحدًا، ألا وهو العبادة الفكرية لأصنام تقدس المخلوقات وتعتبر أن أعمال العقل البشري مطلقة. وكانت النتيجة مخططات اختزالية متعددة متنوعة زيفت الحقائق، وناقضت نفسها، ودعمت التفكير المزدوج. لا تقدم بيرسي التشخيص فحسب، إنما تقدم العلاج أيضًا: فقد قدمت استراتيجيةً مقبولة محترمة قابلة للتطبيق على مستوىً عالمي لمساعدة المؤمنين على رؤية محاسن الرؤية الكونية للدين. كل من يهمه كفاءة علم الدفاع عن الدين عليه أن يقرأ هذا الكتاب».

أنجوس مينوج Angus Menuge حاصل على شهادة الدكتوراه، ورئيس الجمعية الفلسفية الإنجيلية Evangelical Philosophical Society، وأستاذ الفلسفة في جامعة كونكورديا ويسكونسن

- «تعد نانسي بيرسي مرشدًا فلسفيًّا رائعًا لطلابنا، فبها يمكنهم حمل رسالة الإيمان إلى العالم، بدلاً من أن تأسرهم الأصنام الفكرية للعالم. وكما ذكرت بوضوح يعيش جيراننا على أسس الحقيقة التي تعلموها من وحي الله العام، حتى لو أنكروا الله. والناس بسبب صراعهم مع

الله متدينون رغمًا عنهم، حتى ولو استبدلوا بالله بعدًا من خلقه الجيد. يقدم هذا الصراع الداخلي للعقل والقلب غير المؤمنين نقطة البداية لكلٍّ منهما، يقدم نقدًا حادًّا للرؤى الكونية غير الدينية، بابًا مفتوحًا لإظهار القوة المنافسة لادعاءات الحقيقة الدينية».

توماس كاي جونسون Thomas K. Johnson أحد كبار مستشاري اللجنة اللاهوتية للتحالف الإنجيلي العالمي Theological Commission of the World Evangelical Alliance

- «طبقت الأستاذة نانسي بيرسي بدهاء الحكمة الفلسفية لسفر رسالة بولس[1] إلى أهل رومية١ لدحض عددٍ متنوع من الأديان والفلسفات غير الدينية. بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن معلومات أساسية عقلانية لرؤيتهم الكونية الدينية فإنَّ هذا الكتاب هبةٌ من الله».

دوغلاس غروثيس Douglas Groothuis، أستاذ الفلسفة في كلية دينفير، ومؤلف *الدفاع عن العقائد المسيحية: قضية شاملة في صف الإيمان الإنجيلي Christian Apologetics: A comprehensive case for Biblical Faith*

- «يساعد هذا الكتاب ذو البصيرة النافذة، إلى درجة مذهلة القراءَ على تجنب 'التسمم' بالأصنام والأفكار الخاطئة. سيكون قُراء هذا العمل 'مروِضين محترفين' لكثيرٍ من

---

(١) يعد بولس Paul أشهر شخصيات العهد الجديد وأشهر من الحواريين أنفسهم الذين عايشوا المسيح عليه السلام، حيث بعد ما كان يضطهد المسيحيين ويعذبهم تغير حاله بين يوم وليلة بزعم أن المسيح قد ظهر له وهداه، ومن هنا انقسم البعض حوله، فمنهم من يرى أنه تعمد تحريف المسيحية وبث التثليث فيها عن عمد (لدرجة أن يختار كاتب مثل مايكل هارت في كتابه العظماء المائة في الترتيب الثالث بعد النبي محمد ونيوتن هل يجعله لبولس أم المسيح؟)، ومنهم من يرى أنه تمت نسبة كلام إليه وعلى لسانه لم يقله، ومنهم من يرى أنه كيهودي استهدف إفساد الرسالة الجديدة المسيحية بتغيير معانيها وأصولها ودمج الصدق بالكذب فيها، ولعل هذا ما نقرؤه في أوائل إنجيل برنابا الذي قامت الكنيسة الرومانية بتحريمه ولا يعترف به المسيحيون إلى اليوم، حيث ذكر برنابا في أوله أنه لم يكتب هذا الإنجيل والقصة الحقيقية للمسيح إلا لما رأى ما ينشره بولس من أغاليط. (المترجم)

الأفكار، من ضمنها الاختزالية[1]. إذا كانت العجلة والسطحية أمراضًا أساسية في القرن العشرين – كما قال ألكسندر سولجنيتسين Solzhenitsyn – فربما تكون الاختزالية هي رأس تلك الأمراض في القرن الحادي والعشرين. وفي هذا الكتاب يُحذر الناس طبقًا للأصول من العواقب الاختزالية المدمرة لعبادة الأصنام. أما الممتنع عن هذه المسكرات الفكرية فلا يحتاج لتطبيقها».

ديفيد نوجل David K. Naugle أستاذ مرموق في جامعة دالاس المعمدانية، ومؤلف «*الرؤية الكونية: تاريخ مفهوم*» ***Worldview: The History of a Concept***

- «يعد كتاب نانسي بيرسي أداةً قيّمة في كشف زيف الأصنام العديدة التي تدعي أنها صحيحة. حيث يعطي قُرَّاءه أعينًا لرؤية الرؤى الكونية غير الدينية من داخلها، موضحة أنَّ دفاعاتها الأشد لا يمكن أن تتعايش مع تداعيات الأفكار التي تقدمها، على الأقل ليس دون إنكار الحياة كما يجب أن نعيشها. جعل الفكر الواسع لنانسي بيرسي وأسلوب كتابتها الواضح والمقنع هذا الكتاب جهازًا لا يقدر بثمن لفك شيفرات الأزمنة التي نعيشها».

بيل فيشترمان Bill Wichterman مساعد خاص للرئيس جورج دبليو بوش

- «كتابٌ رفيع ... يذكرنا كتاب نانسي بيرسي بأنَّ الرؤى الكونية هي التزامات قلبية عبر العودة إلى جذورها؛ لذا فالرؤى الكونية الخاطئة أو فلسفات الحياة الخاطئة هي ممارسات للوثنية. تعرض نانسي بيرسي بمهارة كلًّا من التضاربات وحالات فشل مجموعة كبيرة من الأصنام الحديثة، وتوجهنا بدقة إلى الدين، والذي يدخر بداخله جَمِيعَ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ».

بول كوبان Paul Copan، أستاذ وشاغل لكرسي عائلة بلدغر في الفلسفة والأخلاق في جامعة بالم بيتش الأطلسية

---

(١) تشير الاختزالية في الفكر الحديث إلى اختزال الإنسان في صورة مواد كيميائية وذرات وأعضاء فقط، دون النظر إلى ما وراء المادة في الوجود الإنساني مثل الوعي والعقل والروح، بل وفيها تتم محاولة تصوير المشاعر والأخلاق بتفسيرات مادية كتفاعلات كيميائية وفيزيائية ونتاج حاجات طبيعية. (المترجم)

- «رائع ... لدى نانسي بيرسي القدرة الفريدة على الوصول إلى أصل الأشياء في النقاش الثقافي. إنَّ نقد نانسي بيرسي الثاقب للرؤى الكونية في عصرنا والقائمة على 'الأصنام' كنزٌ ثمين. بل إنه أفضل من ذلك، إذ يزودنا بخطة لعب سهلة التنفيذ لتقويم أي رؤية كونية. هذا أحد الكتب الذي لا يتحدى فقط النقد؛ بل يعطي أيضًا جرعةً كبيرة من الثقة لكل مؤمن سيرى نفسه بعد إنهاء هذه الصفحات يقول: 'يا إلهي، هذا الأمر صحيح حقًّا.'»

غريغ كوكل Gregory Koukl رئيس مناصرة العقل Stand to Reason (https://www.str.org/about/mission-values) ومؤلف *التكتيكات: خطة لعب لمناقشة* **قناعاتك** *المسيحية، وكتاب النسبوية: قدم ثابتة بقوة في الهواء* ***Tactics: A Game Plan for Discussing Your Christian Convictions, and Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air***

- «هذا مذهل! لقد قامت نانسي بيرسي بذلك مجددًا. إنَّ كتاب **البحث عن الحقيقة** هو أحد أكثر كتب الدفاع عن العقائد الدينية بصيرةً من بين الكتب التي قرأتها منذ أمد. فهو يقدم نقدًا حادًّا للثقافة العلمانية ودليلاً مفيدًا لتصحيحها».

سين مكدويل Sean McDowell مؤلف ومتحدث وأستاذ مساعد لمادة علم الدفاع عن العقائد المسيحية في جامعة بيولا

- «كما أظهرت نانسي بيرسي (مؤلفة الكتاب الكلاسيكي **البحث عن الحقيقة** عام ٢٠٠٥) بكفاءة، ووضوح وباستخدام قصصٍ واقعية حزينة أنَّ البحث عن الحقيقة' ليس ممارسةً فكريةً جافة... فقد قادت القارئ خطوة بخطوة عبر هذه المبادئ بطريقٍ سهل الاجتياز... مزودةً إياه بأمثلة رصينة... يمكن أن يقدم هذا الكتاب هدية تخرج رائعةً لخريجي المدارس الثانوية، خصوصًا للذين هم بطريقهم لدخول الجامعة... آمل أنْ ينقل المؤمنون نسخًا من كتاب **البحث عن الحقيقة** لغير المؤمنين، لمن قد يجد في تحليل نانسي بيرسي للرؤى الكونية العلمانية مقنعًا، وتقديمها للدين جذابًا.»

ريتشارد فيكارت Richard Weikart، *المسيحية اليوم Christianity Today*

- «هو كتاب بحثيٌّ، لكنَّه سهل الفهم كليًّا ... استقصت نانسي بيرسي الأصنام المتنوعة التي بنت عليها مدارس الحداثة وما بعد الحداثة المتنوعة أنظمتها: المنطق والمخيلة والاقتصاد والمادة... تمامًا كما حذر بولس من أنَّ أولئك الذين يخدمون الأصنام سيستبدلون بمجد الله الخالد صور حيوانات، لذلك حذرت نانسي بيرسي من أنَّ الرؤى الكونية التي تبدأ بدايةً خاطئة تنتهي حتمًا باختزال الإنسان من فردٍ حر مصنوع في صورة الله[1] إلى وحدة حتمية أزيلت إنسانيتها في الطبيعة... إظهارٌ كاملٌ شاملٌ لجميع الأطياف في الطبيعة المفلسة ذات النهاية المسدودة للمادية ... إنَّه انقلابٌ رائع».

منطق الأمل: مجلة للدفاع عن العقائد المسيحية Hope's Reason: A Journal of Apologetics

- «تقدم نانسي بيرسي في كتاب **البحث عن الحقيقة** لقرائها أداةً عظيمةً أخرى لتقويم الرؤى الكونية المتنافسة... إنَّ أسلوب نانسي سهل القراءة جدًّا يجعله مصدرًا لأي شخص جاد في اكتشاف الحقيقة... القصص... جعلت من الكتاب مذهلاً وحقيقيًّا».

مارلين ستيوارت Marilyn Stewart، Defendmag.com

- «تعِد نانسي بيرسي بأنَّ المبادئ التي تعرضها ستزودك بأدوات لتمييز ما هو صحيح وما هو خاطئ في أي رؤية كونية؛ ثم لصناعة منظورٍ صحيح وإنساني معًا مستقٍ لمعلوماته من الدين: لقد أبرمت الوعد، وأوفت به. إنَّ كتاب **البحث عن الحقيقة** هو – إجمالاً – وريثٌ كفؤ لكتاب **الحقيقة الكاملة**».

Challies.com

***

(١) جاء في الحديث الصحيح: «خلق الله آدم على صورته» (البخاري، ٥٨٧٣)، أي على صورة صفات الله التي أخبرنا بها، وهذا من تمام التكريم للإنسان ولا شك، وفي الوقت الذي تبالغ فيه النصرانية في تشبيه وتمثيل تلك الصفات بإنسان حقيقي (لذلك يكثر فيها تصوير الإله كرجل كبير في السن بلحية بيضاء)، إلا أننا في الإسلام نحتكم إلى أصل جامع لفهم كل الآيات والأحاديث الصحيحة التي تثبت لله تعالى صفات مثل الوجه والعين واليدين والسمع والبصر والمحبة والغضب وغيرها، وهو أن كيفية هذه الصفات لا تماثل كيفية صفاتنا التي نعرفها، إذ كما هو معلوم أن الصفة الواحدة (حتى في المخلوقين) يكون لها معنى واحد ولكن تختلف الكيفية، فالبصر مثلاً له معنى واحد لكن كيفيته مختلفة بين الإنسان والأخطبوط والبومة والنمل والذباب والضفدع والصقر، فإذا كانت الكيفية مختلفة بينها وهي مخلوقات لله، فكيف يكون الاختلاف بينها وبين خالقها الذي قال عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى: ١١. (المترجم)

"لقد كان كل التاريخ البشري تقريبًا ... رواية طويلة مرعبة
لمحاولة الإنسان أن يوجد شيئًا ما يجعله سعيدًا غير اللّه"

سي إس لويس C. S. Lewis المسيحية المجردة

تقديم

بقلم جي ريتشارد بيرسي

لا يصادف كثيرًا أن يتفق ملحد مجاهر بإلحاده مع كاتب ترانيم متدين.

فنجد أولاً تصريح الملحد الشهير ريتشارد دوكينز Richard Dawkins قائلاً: «إنَّ الإيمان هو الهروب الكبير، العذر الكبير لتجنّب الحاجة للتفكير وتقويم الدليل. الإيمان هو الاعتقاد على الرغم من غياب الدليل؛ بل ربّما بسبب غيابه».

ونرى ثانيًا هذه الكلمات من مؤلّف الترنيمة المحبوبة: «تسألني كيف أعرف إنّه حيّ؟ إنّه يحيا في قلبي». أو كما كتبها راعي الأبرشية والموسيقار ألفريد أكلي Alfred Ackley ترنيمة «إنّه يحيا He Lives».

فما يُدينه دوكينز يؤكّده أكلي؛ ولكن لاحظ: أن كلًّا من المُلحد ومؤلّف الترانيم يصرحان بأنّ «الإيمان» مسألة تتعلّق بحقائق داخلية.

وفي مقابل هذا التعريف الداخلي للإيمان؛ يوجد النداء المُحرّر «لاختبار كلّ شيء» الذي يغرس الرؤية الكونية الدينية ويُحيي **البحث عن الحقيقة**. ومن هذه العقلية النابضة بالحياة، يُتوقّع أن يفكّر الناس بأنفسهم، ويناقشوا المرجعية، ويتحرّوا الدليل، ويُطالبوا بأجوبة منطقية عن عالمنا.

ظهرت عبارة «اختبروا كلّ شيء test everything» في رسالة بولُس Paul إلى الكنيسة الحديثة في تسالونيكي Thessalonica حاضرة اليونان القديمة ذات الميناء البحري (رسالة

بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي، الإصحاح ٥: الآية ٢١). يحثّ بولس المسيحيّين على المحافظة على مقدار من النقد الوقائي الموجه ضد ادعاءات التحدث باسم الله؛ لأنه يمكن في نهاية المطاف أن يدعي أي شخص أنّ «الرّب وَهَبَه رؤيا»، ولكنّ ذلك لا يجعل من دعواه حقيقة[١].

إن الموقف الإنساني والموقف الديني الإنجيلي هو أن الأفراد غير مُلزمين أبدًا بأن يقرّوا بصحّة شيء لم يختبروه كفاية. بل إن قام الدليل بدحض الادعاء بعد التفحص الدقيق، يجب أن يرفض.

ويلاحظ وجود مذهب الواقعية المتشددة realism في مجمل الكتاب المقدّس scripture، حيث يذكر العهد القديم[٢] The Old Testament على سبيلِ المثال أنّه عند خروج العبرانيين من مصر هداهم إلى الطريق «عمودٌ من سحاب» نهارًا و «عمودٌ من نارٍ» ليلاً (سفر الخروج، الإصحاح ١٣: الآيتان ٢١ – ٢٢). وهذان كانا ظاهرتين عامتين يُريان بالعين المُجرّدة.

عندما وصل العبرانيّون إلى البحر الأحمر عبروا من نقطة جغرافية محدّدة على أرض يابسة كانت قبل لحظات قليلة فقط تحت مياه عميقة. وكانت تلك معجزة شاهدها جميع بني إسرائيل وشاركوا فيها، كما كانت عودة الماء وقضاؤه على جنود فرعون المطارد لهم كذلك حدثًا مكشوفًا للعيان (سفر الخروج، الإصحاح ١٤).

كما رأى بنو إسرائيل وميض البرق وسمعوا دويّ الرعد عند طور سيناء Mount Sinai، ورأوا النار وسمعوا أوارها؛ ورأوا الدخان وشمّوا رائحته أيضًا. كما شعروا برجفة الجبل، وكانت رجفة يمكن قياسها بجهاز حديث لقياس زلازل seismograph. لقد كان هذا هو

---

(١) العجيب أن بولس نفسه بدأ تحريفه للنصرانية بادعائه رؤية المسيح التي لم يشاركه فيها أحد، لكنه هنا ينقل ما هو متعارف عليه في أصل رسالات الله تعالى، حيث يخبرنا الله دومًا ألا نؤمن إلا بدليل وإلا بإعمال العقل الذي وهبنا الله إياه، ويمتلئ القرآن بعشرات الآيات التي تحث على التفكر والتعقل والتدبر وعدم التسليم للظن القائم بالتخمين بغير دليل: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يونس: ٣٦. (المترجم)

(٢) العهد القديم عند النصارى هو أخبار الأنبياء والرسل من عهد آدم إلى قبيل عهد المسيح عليهما السلام، أما من عهد المسيح فيسمونه بالعهد الجديد. The New Testament. (المترجم)

السياق التجريبي الذي تم إبلاغ العبرانيّين فيه **الوصايا العشر** لموسى (سفر الخروج، الإصحاح ١٩؛ سفر التثنية، الإصحاح ٤: الآيات ٩ – ١٣)[١].

وعندما ننتقل إلى ما سجله العهد الجديد The New Testament نجد أن رعاة الغنم في بيت لحم استطاعوا التحقق بأنفسهم من حقيقة العالم الواقعي بخصوص ما قالته الملائكة عن مولد طفل في مكان قريب – ولم تكن مجرّد رؤية ذاتية بل رضيعًا من لحم ودم في مذودٍ حقيقي. فقد قالوا: «لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر»، ثمّ رجع الرعاة لاحقًا إلى حقولهم «وهم يمجدون الله ويسبحونه»، لماذا؟ لأنّ ما وجدوه كان «كما قيل لهم» تمامًا. (لوقا، الإصحاح ٢: الآيات ١٥ – ٢٠).

عندما كان يوحنا المعمدان في السجن يواجه عقوبة الإعدام أرسل التابعين ليسألوا إن كان المسيح حقًّا هو المسيح المخلص[٢] Messiah.

كان ردّ المسيح بتقديم معجزات ظاهرة معلنة على الملأ تتوافق مع الدلائل التي قدمها الكتاب المقدّس مسبقًا عن كيفية التعرّف على المسيح المخلص المرتقب. قال المسيح: «اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران، العُميُ يبصرون والعُرجُ يمشون والبُرصُ يطهرون والصُّمُّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون» (متى، الإصحاح ١١: الآيات ٢ – ٥). ولأن هذه الأحداث معلنة فإن تقريرها كحقائق سيكون من الصديق والعدو على السواء[٣].

---

(١) عد بعض العلماء كثرة المعجزات والآيات الحسية لبني إسرائيل ترجمة لكثرة أمراض قلوبهم وعدم إيمانهم إلا بالمحسوس، فطلبوا أن يروا الله جهرة، رغم أن جوهر الإيمان أن تستدل بعقلك على وجود الله من آثاره، وهذا أصل الامتحان في الدنيا بما وهبه الله لنا من عقول، وكذلك قتلوا الكثير من الأنبياء كما نص القرآن. فالأنبياء في بني إسرائيل كانوا كالعلماء في أمتنا من ناحية العدد. (المترجم)

(٢) يوحنا المعمدان هو نبي الله يحيى عليه السلام، وتعد مسألة مَن هو المسيح المخلص أحد الاختلافات الأساسية بين المسيحية والإسلام، حيث يؤمن المسلمون أن المسيح عليه السلام لم يكن هو النبي الخاتم وإنما جاء ليقيم الحجة على بني إسرائيل ويخبرهم بتحويل الرسالة الخاتمة منهم إلى العرب أبناء إسماعيل عليه السلام، وعلى هذا تواترت بشارات العهدين القديم والجديد بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم على نزاع في تأويلها بين المسيحيين والمسلمين كتب فيه وبينه بعض المختصين قديمًا وحديثًا. (المترجم)

(٣) وهذه هي السمة المشتركة في الآيات التي أرسلها الله تعالى مع رسله ليؤكدوا لأقوامهم أنهم من عند الله، إذ يحكم العقل السوي أنه لا يقدر على هذه الآيات إلا خالق كل شيء سبحانه والمتحكم الأوحد في نواميس الكون وقوانينه وثوابته، فكما أنه الذي وضع خصائص الماء كمثال، فلا يستطيع أحد تغييرها إلا هو. وهكذا في سائر الآيات (أو المعجزات كما تصالح الناس والعلماء على تسميتها) الهدف منها أن يراها =

عندما غضب رؤساء الدين اليهودي من ادّعاء المسيح غفران الخطايا، لم يعتمد على «القلب» أو على ادّعاءٍ مجرّد بالألوهية divinity؛ بل قدم دليلاً ماديًّا عوضًا عن ذلك: «ولكن لكي تعلموا أنّ لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا - قال للمفلوج- لك أقول قم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك' فقام للوقت وحمل السرير» (مرقس، الإصحاح ٢: الآيات ١٠ – ١٢).

كانت تلك الردود القوية نمطية عند المسيح؛ فكان عمله الديني «كهنوته ministry» عملاً عامًّا يتألف من سؤال وجواب، وأخذ وعطاء، وطرح قضايا propositions يمكن التفكير والنقاش فيها، ودعا الناس لرؤية المعجزات العامة التي أكّدت دعواه في المكان واللحظة.

صحيح أنّه لم يتمكن كلّ شخص في أيام المسيح من رؤية كلّ معجزة قام بها، أو سماع كلّ موعظة ألقاها، لكن مجمل أفعاله وكلماته قد برهنت سواء في أيامه أو أيامنا على موقف من الانفتاح على الاختبار بحيث يُرحّب باستكشاف وتحري الباحثين.

وبناء على هذه الخلفية التاريخية جادل بولس بأنّ الأحداث المؤسسة للرؤية الكونية المسيحية لم «تفعل في زاوية» (سفر أعمال الرسل، الإصحاح ٢٦: الآيتان ٢٥-٢٦). فقد أمكن لرعاة الغنم والملوك والأطباء وجابي الضرائب جميعًا التحقق من الوقائع الجوهرية في حياة المسيح. فما بُلّغ للناس هو وصف دقيق للحقيقة، وليس نظام اعتقاد عنها[1].

كان هذا التوجه نحو الحقيقة هو المناخ الفكري الإيجابي الذي كانت تعيش وتتنفس فيه القضايا والأحداث الجوهرية للدين. إنها عقلية يتحرّر فيها الناس عبر حقيقة قابلة للإثبات ليتحدّوا التقاليد ويدققوا على أصحاب السلطة ويناضلوا في سبيل الحياة والشفاء ضدّ الموت والتدهور.

رغم هذا الإرث الميمون إلّا أنّ كثيرًا من معاصرينا يجدون عزاءهم فيما يصفه فرانسيس شيفر

الناس في وقتهم وفي عصرهم. أما وقد آل حال العالم إلى الاتصال والتقارب فقد جعل الله تعالى آيته الخاتمة للبشر في رسالة الإسلام: هذا القرآن المعجز الذي تحدى الإنس والجن بالإتيان بمثله. فهو باقٍ بين البشر ويستطيع التعرف عليه الناس جميعًا بعكس المعجزات في الأمم السابقة الخاصة في زمانها ومكانها. (المترجم)

(١) يقابل ذلك عندنا في الإسلام ما تناقلته كتب السيرة وروايات الأحاديث الصحيحة عن أدق تفاصيل حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بما تحمله من معلومات عن الرواة أنفسهم مثل أسمائهم ومدى اتصالهم بعضهم ببعض وصدقهم وقوة حفظهم، وهو ما تفتقده جميع أسفار وكتب العهدين القديم والجديد عند اليهود والنصارى على نزاع كبير بينهم. (المترجم)

Francis Schaeffer «الهروب من المنطق escape from reason»، فنجدهم يقبلون من المجتمع إعادة التعريف اللطيفة والمبسطة للإيمان بأنّه شيء فردي خاص تمامًا – أي التزام خاص وشخصي للغاية – بما يجعل التقويم والدليل في غير محلّهما.

وهذا بعيد كلّ البعد عن التقدير الشامل للمعلومات والمُميز للرؤية الكونية الإنجيلية biblical، فالكتاب المقدّس scripture لا يشجع في أي جزء منه على فكرة أنّ «الإيمان» يعادل الالتزام الديني المحجور عن الدليل أو المفصول عن العقل – كما قال فريدرك نيتشه Friedrich Nietzsche في مؤلّفه **عدو المسيح** *The Antichrist*: «إرادة تجنّب معرفة ما هو صحيح».

لكي نبرز ما أكّد عليه الكتاب المقدّس بدقة، علينا أن نعترف بأنّ «الإيمان» الذي يتعرض للدحض ينبغي أن ننبذه تمامًا، لأنه إيمان عقيم لا يستحق أن نتمسك به؛ ولكنّ هذا التحدّي الشديد يؤثر أيضًا بأسلوب إيجابي.

لأنّنا يجب أن نقول إنّ الإيمان الموثق، أو الأفضل أن نقول إن **الثقة** trust ذات الأساس الراسخ، تستحق أن يعتنقها الشخص الكامل.

في الواقع إن كلمة «الثقة» وليس الكلمتان المحصورتان بالحياة الخاصة اليوم «الإيمان» أو «الاعتقاد»، هي الكلمة التي تحيط بالمعنى المفهوم للالتزام في الكتاب المقدّس. فالكلمة اليونانية من العهد الجديد التي تترجم غالبًا إلى «الاعتقاد belief» من الأدق ترجمتها «الثقة trust» (من الكلمة pistis، «الثقة» أو «الاعتقاد»، والتي يعود جذرها إلى كلمة peitho، «أنا أقنِع I persuade»). فموقف الكتاب المقدس هو الإقناع، وإرادة التحقق، ومعرفة ما هو صحيح ثم الاستجابة وفقًا لذلك.

وصف مارك توين Mark Twain الإيمان مرّة بأنّه «الاعتقاد بما تعرف أنّه ليس كذلك»؛ ولكن **ذلك** التعريف للإيمان «ليس كذلك»، على الأقل بالنسبة لمن يمارس حياته وفق تأكيد الكتاب المقدّس على عيش حياة مختبرة[1].

---

(١) في هذه الجزئية نرى التفاوت الكبير بين الملحدين عندما يتعاملون مع كلمة (الإيمان) على أنها الاعتقاد في شيء بغير دليل والتي تصير إلى (الظن) أقرب، وبين المؤمنين عندما يتعاملون مع كلمة (الإيمان) بمعنى الاعتقاد في شيء بعد وجود الدليل عليه أو آثاره التي لا يمكن نكرانها والتي تصير إلى (اليقين) أقرب. (المترجم)

يعبّر هذا الأسلوب عن احترام عميق للإنسان كفرد خلق على صورة إله يمكن معرفته يؤكّد على خيرية العقل ويقدم العالم كميدان عادل لتقوّم فيه دعاوى الحقيقة.

يأتي ضمن هذا السياق كتاب **البحث عن الحقيقة**، دعوة في وقتها المناسب، استراتيجية، قائمة على المبادئ، للارتقاء بالاعتقاد المجرّد و«الإيمان» الفردي الخاص لنتعرف على الحقيقة التي تستحق الثقة. قد تكون طالبًا أو عاملاً، بروفسورًا أو صاحب منصب، قد تكون فنانًا أو عالمًا – فكلّ من يتعامل مع هذا الكتاب سيجد تشجيعًا على التفكير الإنساني النقدي للعثور على الإجابات الممكنة عن أسئلة المصير. ستدعى للنظر في كيفية إجابة الدين المثبتة، القوية والصحيحة على الأسئلة الكبرى في الحياة، «متفوّقة على جميع الرؤى الكونية المنافسة»، و «محقّقة أقصى آمال ومُثل البشرية» كما صرحت نانسي بيرسي Nancy Pearcey في هذا الكتاب.

يشرح كتاب **البحث عن الحقيقة** بالتفصيل مجموعة من مبادئ استراتيجية رئيسة تقوّم بها صحّة أيّة رؤية كونية، سواءً صادفتك في الفصل المدرسي، أو المكتب، أو سمعتها في نشرة الأخبار أو الشارع. سيزوّدك هذا الكتاب بأدوات لتختبر العلمانية secularism نقديًا وتختبر غيرها من الأوثان في يومنا وهي تتسلل في عباءة السياسة أو العلم أو الترفيه أو الدين.

سترى وضع مذاهب الإلحاد والمادية تحت محك الاختبار، لتقوّم إن كانت ستصمد أمام التفكير النقدي؛ وستستكشف أنواع الإيمان المختلفة مثل مذهبي النسبوية relativism وما بعد الحداثة postmodernism، لتنظر إن كانت تستحق ثقة الإنسان المبنية على المعرفة.

تتعلق أرواح الناس بالتوازن، ويحاجّ كتاب **البحث عن الحقيقة** بأنّه ما من رؤية كونية علمانية تعلل تعليلاً كافيًا ظواهر الإنسان والكون – ما نعرفه عن طبيعة الإنسان والطبيعة المادية. لأن تلك الرؤى الكونية تنظر فقط لشريحة جزئية من الحقيقة ثم تحاول بعد ذلك توجيه البشر لقياس أنفسهم بمعيار تلك الشريحة الضيقة وأن يعيشوا تبعًا لها. وهكذا ينكر الماديّون حقيقة العقل mind (في حين يستعملون عقولهم للترويج للمادية)، وينكر متبعو مذهب الحتمية determinism حقيقة الاختيار الإنساني (بينما يختارون مذهب الحتمية)، وينكر متبعو مذهب النسبوية relativism حقيقة الصواب والخطأ (بينما يحكمون عليك إن خالفتهم).

هذه النظريات البائسة تؤذي أكثر مما تنفع. فهي تحدّ من العقل والمنطق، والاختيار والحرية، والحقيقة والمثل الأخلاقية. عندها حتمًا سيبدأ الناس ممن وضعوا ثقتهم في مثل هذه الحلول بترتيب حياتهم بأساليب أقلّ من إنسانية. وبالمثل تبدأ الثقافات الواقعة في قبضة الرؤى الكونية القاصرة بتشكيل مجتمعات توصف بأنها أقلّ إنسانية. قد يقدّم المُنظّرون ideologues أوثانَهم تحت عناوين تتصف بالكياسة السياسية من التسامح والتنوّع والعدل، ولكنّ الأثر الفعلي هو التراجع وليس التقدّم، والتجزّؤ وليس الكمال. فيقهر الناس، ثم يثور الإنسان بالضرورة على الآلهة التي فشلت.

بالنسبة لكثير من أبناء القرن الحادي والعشرين، قد يكون فقد «الإيمان» وتوديع الإجابات الخاوية مفتاح العثور على حلول قابلة للحياة بخصوص الأسئلة العظيمة في الحياة. يضع كتاب البحث عن الحقيقة أساسًا منطقيًّا، واستراتيجية حتى نقوّم نقديًّا الإجابات الممكنة عن الأسئلة الكبيرة في الحياة، لنسعى نحو حلولٍ تعيد وصل أعمق أشواقنا بأعلى طموحاتنا. ما يقدّمه الكتاب هنا وحدة للحقيقة والمعنى إنسانية التوجه، ويمكن أن يعتبرها ويناقشها، ويختبرها ويتفحصها أصحاب العقول المنفتحة، ويطبقوها بتكامل عبر الحياة كلها. هذا وداعٌ للدين الفردي الخاص، وترحيبٌ بإله يمكن معرفته ويمكن التحقق منه. هو ثقة شمولية مؤسسة على حقائق الحياة.

إن المسافر العاقل عندما يضل عن مساره يبحث عن طريق عودته إلى سواء الصراط. لذلك فلا يكن هنالك شكّ عند الملحدين وكتّاب الترانيم الدينية وغيرهم في رحلة الحياة: أن تكون إنسانًا هو أن تكتب وتؤلّف وتنشئ وتحلم، وكذلك أن تفكّر وتختبر وتعلم لماذا. ولديك الآن في كتاب **البحث عن الحقيقة** مُرشدٌ يدلك على الطريق.

جاي ريتشارد بيرسي
J. RICHARD PEARCEY
محرر وناشر
بيرسي ريبورت
www.pearceyreport.com

القسم الأول

«لقد فقدتُ إيماني

وأنا في كليَّة إنجيليَّة»

- دُعيتُ مرةً لإلقاء محاضرة في مقر البرلمان الأمريكي عن تطبيق مبادئ النظرة الكونية Worldview الدينية في الساحة السياسية، وفي فقرة الأسئلة والأجوبة تفاجأ الجمهور إذ وقف أحد رؤساء الموظفين في الكونغرس وقال: «**لقد فقدتُ إيماني في كلية إنجيلية**».

لم يفقده في جامعة علمانية، ولا في المعارك السياسية في البرلمان، وإنما في كلية إنجيلية محترمة .. **كيف حدث ذلك؟**

بحثت عن رئيس الموظفين بعد المحاضرة لأسمع قصته. فأخبرني بيل ويشترمان أن أساتذته في الجامعة كانوا يُعلِّمون النظريات السائدة في علومهم الخاصة، وكان معظمها نظريات علمانية، بل وتعادي الدين مباشرة أحيانًا، ولم يكلفوا أنفسهم عناء تقديم النظرة الدينية للموضوع.

قابل بيل عددًا من أساتذته خارج قاعات المحاضرات وسألهم: «كيف تربط بين إيمانك وبين تخصصك الأكاديمي الذي تقوم بتدريسه في قاعات المحاضرات؟» ولكن للأسف لم يُجِر أحدهم جوابًا.

في النهاية استنتج بيل أن الدِّينَ **لا يملك** أجوبة، وقرر أن يتركه. قال لي: «كنت حزينًا لترك إيماني الديني ولكن بدا لي أنه لا يملك أي أساس فكري».

تعكس قصة بيل نمطًا متكررًا بكثرة اليوم: عندما يترك الشباب بيوتهم فإنهم كثيرًا ما يتركون ما نشؤوا عليه من الدِّين كذلك. عاد في الماضي الكثيرون إلى الدين مجددًا بعد أن تزوجوا وأنجبوا، ولكن أعداد من يتركون المسيحية اليوم تتزايد دون عودة[1].

هل هناك أمل؟ هل تستطيع رؤية كونية دينية أن تمدنا بما نحتاجه لمواجهة التحدي وقلب الطاولة وطرح قضيتنا بثقة في الساحة العامة؟

الإجابة هي **نعم** بالتأكيد. يقدم كتاب **البحث عن الحقيقة** استراتيجية أصيلة وجديدة للإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الشباب، والباحثون عن الحقيقة من كل الأعمار. يستخرج هذا الكتاب من النصوص الدينية خمسة مبادئ قوية تطعن في صميم أي معتقد أو رؤية كونية منافسة. هذا الكتاب يُبرز الحقائق التي تبعث الحياة، تلك التي يبحث عنها الجميع، ولا يقدمها إلا الدين.

• الدراسة هي طريق عودتك إلى الله

كيف انتهت قصة بيل؟ بعد أن تخرج بيل من الجامعة اكتشف وجود اختصاص اسمه الدفاع عن المسيحية apologetics فيدعم ادعاءات المسيحية بالعقل والمنطق. قرأ بيل كتب سي إس لويس C. S. Lewis وفرانسيس شيفر Francis Shaeffer وآلفن بلانتنغا Alvin Plantinga ووليام لان كريغ William Lane Craig وغيرهم الكثير.

واقتنع في النهاية بأن الدين في نهاية المطاف لديه الإمكانيات الفكرية الكافية للرد بنجاح على الرؤى الكونية المنافسة.

قال لي: «لقد سِرْتُ في طريق الدراسة عائدًا إلى الله».

قصتي الشخصية شبيهة بقصة بيل. فرغم نشأتي في أسرة مسيحية لوثرية لم أتمكن من العثور على أجوبة للأسئلة التي تلاحقت في ذهني في سن المراهقة، وفي منتصف المرحلة الثانوية تخليت تمامًا عن نشأتي الدينية. وبعد سنوات طوال، في قرية صغيرة في جبال الألب في سويسرا قابلت في النهاية مَن استطاعوا أن يجيبوا عن أسئلتي (سأحكي قصتي في المبدأ الخامس).

إن الأعوام التي قضيتها في البحث والكفاح وأنا لا أدرية جعلتني أوقن أن على المؤمنين أن يواجهوا الأسئلة بجدية، وعليهم أن يستعدوا لمساعدة الناس «للسير في طريق الدراسة عائدين إلى الله».

قد تبدو تلك مهمة مضنية؛ ففي كل مكان –بدءًا من قاعات المحاضرات ومرورًا بمكاتب العمل وانتهاءً بالإنترنت– تجد أفكارًا تناقض الدين وتطالبنا بإلحاح لنكون من أنصارها، وتَعَلُّم كيفية الرد بعمق على كل رؤية كونية منافسة سيستغرق حياة المرء كلها في الدراسة، وماذا سيحدث عندما نواجه فكرة جديدة؟ هل يجب أن نصوغ حجة جديدة في كل مرة؟

أم من الممكن أن نجد سبيلاً منطقيًّا واحدًا نتتبعه في مواجهة كل الأفكار التي تصادفنا؟

هذا سؤال واجهته لسنوات طويلة بعد أن عدت إلى الدين، ووجدت أنه نفسه يطرح استراتيجية قوية للتفكير النقدي تتمثل في خمسة مبادئ تعصف بأي رؤية كونية، وبإتقان هذه المبادئ الخمسة ستكون جاهزًا لمواجهة أي تحدٍّ، وقادرًا على صياغة حجة جذابة ومقنعة لمصلحة الدين.

• أعطني دليلاً

الآية المحورية هي الإصحاح الأول من سفر رسالة بولس إلى أهل رومية Romans. كان بولس يكتب رسالة إلى جماعة لم يسمعوه وهو يتكلم من قبل، ولذلك قدم لهم رسالته بطريقة شاملة مناسبة لجمهور يتلقاها لأول مرة. يمكننا في الواقع أن نعتبر إصحاح سفر رسالة بولس إلى أهل رومية الأول ككتيب إرشادات قدمه بولس في مجال الدفاع عن الدين. يصف الإصحاحُ التفاعلَ العظيم بين الله والبشرية والذي هو منشأ كل الرؤى الكونية منذ العصور الغابرة وإلى يومنا هذا.

كيف يفتتح بولس كتيب الإرشادات؟ أول نقطة هامة يذكرها هي أن كل الناس -في كل زمان ومكان- قادرون على رؤية أدلة وجود الله. كيف ذلك؟ عن طريق النظام الذي خلقه الله، كما يقول بولس: «لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ» وهذا هو ما يسمى الوحي **العام**؛ لأنه دليل على وجود الله متاح للجميع، ومن ضمنهم هؤلاء الذين لم يُؤتَوُا الكتاب (الذي يسمى الوحي **الخاص**). كما كتب صاحب المزامير psalmist: «اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ الله، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ. يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذِيعُ كَلَامًا، وَلَيْلٌ إِلَى لَيْلٍ يُبْدِي عِلْمًا». (مزامير ١٩: ١-٢).

دعونا نبدأ بالآيتين اللتين يشرح فيهما بولس مفهوم الوحي العام:

كلنا يستطيع الوصول إلى دليل وجود الله بالنظر في الخلق

«إِذْ مَعْرِفَةُ الله ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ، لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ، لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلَاهُوتُه». (سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١: ١٩-٢٠)

يزعم بولس أن في كل من العالم المادي والطبيعة البشرية أدلةً على الخالق[1]، أو كما يقول جوناثان إدواردز Jonathan Edwards: «كل مخلوقات الله تدعونا إليه»[2]. كيف يعطي العالم

---

(١) يشير القرآن لذلك بقوله عز وجل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ الذاريات: ٢٠ - ٢١. (المترجم)

المادي أدلة على وجود الله؟ إن وجود الكون لا يمكن تفسيره على أنه نتيجة الأسباب الطبيعية فقط. وهذا صحيح في وقتنا الحالي تمامًا كما كان صحيحًا في القرن الأول الميلادي عندما خاطب بولس الرومين بهذه الرسالة. دعونا نستعرض سريعًا بعض أكثر مجالات البحث العلمي صلة بقضيتنا، وتحديدًا مجال نشأة الحياة ونشأة الكون.

تسببت دراسة نشأة الكون في ظهور لغز اسمه مشكلة **الضبط الدقيق للكون** fine-tuning، إذ إن الثوابت الفيزيائية الأساسية للكون موزونة بدقة متناهية كحد الشفرة بحيث تسمح بظهور الحياة وبقائها. إن أمورًا مثل قوة الجاذبية والقوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية والنسبة بين كتلة البروتون والإلكترون -وعوامل أخرى كثيرة- لها القيم الصحيحة الدقيقة بالضبط لتسمح بالحياة، ولو تغيرت أي قيمة من هذه القيم الحرجة ولو تغيرًا طفيفًا فلن يدعم الكون وجود أي نوع من الحياة، فمثلاً لو كانت قوة الجاذبية أصغر أو أكبر من قيمتها الحالية بجزء واحد من ١٠٦٠ جزءًا (واحد على يمينه ٦٠ صفرًا) لما أمكن أن توجد أي حياة في الكون.[٣]

يسمي علماء الكونيات هذا اللغز بمعضلة غولدي لوكس Goldilocks: لِمَ تكون هذه القيم مضبوطة بدقة هكذا، فلا تكون بالغة الارتفاع ولا بالغة الانخفاض، وإنما بقيم مُحددة بدقة لتسمح بالحياة؟ جاء في مقال نشر في النيويورك تايمز «هذه الأرقام الغامضة... كأنها أزرار الضبط في لوحة تحكم خاصة بالله، وتبدو كأنها مضبوطة بمعجزة لتسمح بظهور الحياة»[٤].

وما يجعل مشكلة الضبط الدقيق محيّرة بهذه الدرجة، أنه لا يوجد سبب **فيزيائي** يفسرها. يقول عالم الفلك جورج غرينشتاين George Greenstein: «لا يوجد شيء في علوم الفيزياء كلها يفسر لماذا يجب أن تخضع المبادئ الأساسية للفيزياء نفسها لتخدم متطلبات الحياة". وفعلاً تتفاعل قوانين الفيزياء بطرق متناغمة بشكل معقد لتحقق هدفًا أو غاية، وتلك هي العلامة المميزة للتصميم. كما يقول الفيزيائي بول ديفيز Paul Davies: «وكأن هناك مصممًا عظيمًا حدد كل شيء بدقة»[٥].

• أدلة من الحياة

كذلك تفسير نشأة الحياة بالاعتماد على أي سيناريو مادي طبيعي naturalistic لا يقل صعوبة عن تفسير نشأة الكون. إذ يوجد في كل خلية في جسمنا رسالة ترميز معقدة، وقد أصبحت قضية نشأة الحياة اليوم متمثلة في نشأة المعلومات البيولوجية.

يقول ديفيز: إن الدور المحوري للمعلومات يفسر فشل العلماء في «تركيب حياة في مخابر الكيمياء؛ فالكيمياء تتعلق بالمواد وآلية تفاعلاتها، أما البيولوجيا فتعتمد على مفاهيم مثل مفهوم المعلومات». وهو بالطبع مفهوم غير كيميائي. لا يمكن وصف المعلومات الجينية «الوراثية» إلا باستخدام مصطلحات مستمدَّة من العالم العقلي للغات والتواصل، فنقول إن الـ DNA «هو «قاعدة بيانات» وراثية تحتوي على «تعليمات» عن كيفية بناء الكائن الحي، ويلزم أن «يُنتَسَخ transcription» و«يُترجَم translation» «الرمز code» الجيني قبل تمكنه من أداء دوره».

يُحب علماء البيولوجيا تشبيه الـ DNA بالحاسوب، حيث يكون الجزيء (سلسلة المواد الكيميائية التي تكونه) نفسه مقابل الأجزاء الصلبة أو العتاد في الكمبيوتر hardware، ويكون DNA (المعلومات المُرمزة) فيه مقابل البرمجيات software. وينصب التركيز في مجال أبحاث نشأة الحياة على بناء الأجزاء الصلبة، كما يقول ديفيز: «إن محاولات الاصطناع الكيميائي تركز حصرًا على الأجزاء الصلبة، أي الركيزة الكيميائية للحياة، ولكنهم يتجاهلون البرنامج، أي الجانب المعلوماتي.»[٦] ولكن أي صبي في الثانية عشرة من عمره يملك حاسوبًا يدرك أن مجرد بناء جهاز إلكتروني من النحاس والسليكون والبلاستيك لا علاقة له البتة بكتابة شيفرة لإنشاء برنامج.

هذا يقتضي أمرًا مفاجئًا، وهو أنه حتى لو نجح العلماء في خلط الكيماويات المناسبة وصوغها لتشكل جزيء DNA في أنبوبة اختبار، **فهذا لا يساعد إطلاقًا في تفسير مِنْ أَيْنَ أَتَت المعلومات الجينية المُرمَّزة.**

في كل الخبرة البشرية (ومن المفترض أن العلم مبني على الخبرة) يكون مصدر المعلومات المُرمزة فاعلاً ذكيًا intelligent agent؛ ولذلك فمن المنطقي أن نستنتج ضرورة وجود فاعل ذكي لنشأة الحياة؟[٧]

ولكننا في الحقيقة لا نحتاج آخر ما توصل إليه العلم لندرك أن الكون يحتاج عقلاً ليُفسره. أدرك الناس على مر العصور أن كونًا **قابلاً للفهم** intelligible يلزم منه أن يكون صنيعة **الذكاء** intelligence.

في روما القديمة طرح الفلاسفة الرواقيون Stoics حجة تصميم قريبة للغاية مما يُطرح اليوم. ولقد كتب الخطيب الروماني المفوّه شيشرون Cicero قبل المسيح بقرن: «عندما نرى شيئًا يتحرك بآلة، مثل إصطرلاب نظام الكواكب أو الساعة أو غيرهما، لا نشك في أن هذه المصنوعات من نتاج العقل.» ثم توصل بعد ذلك إلى الاستنتاج المنطقي: «عندما ننظر إلى دوران بوصلة السماء في دورات رهيبة السرعة... وبانتظام تام... كيف يمكننا أن نشك في أن هذا كله لا يتم بتحكم عقل بل بعقل إلهي أعلى؟»

يكاد شيشرون يتكلم بلسان كتب الدين نفسه عندما تقول «قد لا ترى الإله... ولكن بالتفكر في خلقه ستصل إلى معرفته»[1].

فمن الواضح أن الناس في العصور القديمة استطاعوا «قراءة» رسالة الوحي العام في الطبيعة. إن فكرة الافتتاحية الرئيسة في سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ هي أن أي إنسان يستطيع استنتاج أن النظام المخلوق يكون من صنع كائن ذكي. إن المخلوقات تخبر عن الله: «فِي كُلِّ الأَرْضِ خَرَجَ مَنْطِقُهُمْ، وَإِلَى أَقْصَى الْمَسْكُونَةِ كَلِمَاتُهُمْ» (مزامير ١٩: ٤).

• أدلة من وجود الذات الشخصية Personhood

عندما تحدَّث بولس عن الأدلة المستمدة من الخلق لم يكن يقصد الطبيعة المادية فقط، وإنما قصد أيضًا الطبيعة البشرية، فالبشر جزءٌ من «خَلْقِ الْعَالَمِ» (سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١: ٢٠). ولما كنتُ قد تحدثتُ في كتب سابقة عن الأدلة على وجود الله المستمدة من العالم المادي، فسوف أركز في هذا الكتاب على الأدلة المستمدة من الطبيعة البشرية.

---

(١) يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ البقرة: ١٦٤، ولذلك يقول الشاعر:
وفي كل شيء له آيةٌ * تدل على أنه الواحدُ. (المترجم)

كيف يكون البشر دليلاً على وجود الله؟ لأنهم فاعلون ذاتيّون personal agents. في الاصطلاح الفلسفي الكائن «**الذاتي** personal» أو الشخصي لا يعني العلاقة الدافئة واللطيفة، فالكائن الذاتي فاعل واعٍ له قدرة على التفكير والشعور والاختيار والفعل، وذلك يقابل المبادئ أو المواد غير الواعية التي تعمل بتأثير القوى العمياء الآلية (مثل قوى الطبيعة)[١٠] إن وجود كائنات لها ذات شخصية دليلٌ على أنها خلقت من قبل إله يتصف بأنه ذات شخصية، ولم تخلق من قبل سبب ليس له صفة ذات شخصية[١].

سوف نناقش تفاصيل هذه الحجة في فصول قادمة، ولكن جوهر الحجة واضح: لأن البشر يستطيعون التعلم؛ فلا بد أن السبب الأول الذي أوجدهم ذو علم. البشر يستطيعون الاختيار؛ فلا بد أن السبب الأول الذي أوجدهم ذو إرادة، وهكذا. يلخص الفيلسوف إتين جيلسون Étienne Gilson الحجة بشكل لطيف: الإنسان **شخص ما** someone وليس **شيئًا ما** something؛ فلا بد أن مصدر حياة الإنسان **إله شخصي** كذلك[١١].

يستخدم الكثير من كتاب الدين المنطق نفسه عندما ينتقدون الوثنية idolatry، ومضمون حجتهم أنه رغم المظاهر الخارجية فالصنم **شيء ما** وليس **شخصًا ما**،: «لَهَا أَفْوَاهٌ وَلَا تَتَكَلَّمُ. لَهَا أَعْيُنٌ وَلَا تُبْصِرُ. لَهَا آذَانٌ وَلَا تَسْمَعُ» (مزامير ١١٥: ٥-٦). ولذلك لا يمكن أن تكون الأصنام منشأ الكائنات التي **تستطيع** أن تتكلم وتبصر وتسمع[٢]. يسخر النبي إرميا Jeremiah منهم: «قَائِلِينَ لِلْعُودِ: أَنْتَ أَبِي، وَلِلْحَجَرِ: أَنْتَ وَلَدْتَنِي» (إرميا: ٢: ٢٧). إنها قمة اللامنطقية أن نظن أن البشر قد نشؤوا من كيان أقل قدرة وظيفية functionality منهم أنفسهم، من «شيء ما» وليس من «شخص ما».

---

(١) تقصد الكاتبة بهذا المبحث دحض معتقد الذين يقولون نؤمن بأن الخالق هو الطبيعة نفسها أو هو المادة أو الطاقة رغم أن كل هذه الأشياء غير عاقلة وليس لها إرادة حرة من ذاتها وغير ذلك الكثير من الفروقات بين أن تؤمن بإله شخصي أو مشخص (أي له ذات شخصية) وبين هذه البدائل الوثنية الباطلة. (المترجم)

(٢) ومثل ذلك ما حكاه لنا القرآن عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ مريم: ٤٢. ويمكن الاطلاع على حجج إبراهيم عليه السلام الأخرى فيما عبده قومه من أوثان وافتقادها جميعًا لصفات الألوهية في آيات سورة الأنعام من الآية ٧٤ إلى ٨١. (المترجم)

يُقال أحيانًا إن العقل الذي يستطيع أن يصوغ حجة تنفي وجود الله يشكل بحد ذاته دليلاً يُثبت وجود الله، أي إن الكائن الواعي الذي لديه القدرة على التفكير والنظر في الأدلة والمحاجّة بالمنطق لا بد أنه أتى من مصدر لديه على الأقل المستوى نفسه من القدرة الإدراكية. «الْغَارِسُ الأُذُنِ أَلَا يَسْمَعُ؟ الصَّانِعُ الْعَيْنَ أَلَا يُبْصِرُ؟» (مزامير ٩٤: ٩) يجب أن يكون السبب قادرًا على إحداث التأثير؛ فالماء لا يرتفع فوق منبعه.

• أطفال الملحدين وإلههم

يندرج الوحي العام تحت الرحمة العامة common grace وهي النعم التي يُنعم الله بها على كل البشر بغض النظر عن حالتهم الإيمانية (بخلاف الرحمة الخاصة special grace التي للمؤمنين). ومفهوم الرحمة العامة مُستفاد من قول عيسى عن الله «فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ.» (متى ٥: ٤٥)[1]، إن الرحمة العامة هي بمثابة الشهادة الدائمة بخيرية الله. عندما دعا بولس القوم الأغيار في المنطقة التي أصبحت تركيا الآن استخدم حجة الرحمة العامة، فقال: إن الله «لَمْ يَتْرُكْ نَفْسَهُ بِلَا شَاهِدٍ، وَهُوَ يَفْعَلُ خَيْرًا: يُعْطِينَا مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَارًا وَأَزْمِنَةً مُثْمِرَةً، وَيَمْلأُ قُلُوبَنَا طَعَامًا وَسُرُورًا» (أعمال ١٤: ١٧). إن استقرار وثبات نظام الطبيعة قد سمح للإنسان بزرع الغذاء وتربية الأسر واختراع التقنية والحفاظ على درجة من النظام الثقافي والمدني، وإن كل صنائع البشر تعتمد على رحمة الله العامة.

في النهاية البشر محاطون بأدلة على وجود الله لسبب بسيط، وهو أننا مخلوقون على صورة الله، ونعيش في كون الله، وتغشانا رحمة الله العامة «لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ.» (سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١١: ٣٦).

قد يفسر هذا لماذا يملك الأطفال الصغار في كل الثقافات مفهوم الإله، فيذكر عالم النفس بول بلوم Paul Bloom من جامعة ييل أنه «عندما يُسأل الأطفال عن نشأة البشر والحيوانات يميلون لتفضيل تفسيرات تتضمن خالقًا ذا إرادة، حتى لو كان الكبار الذين ربوهم لا يؤمنون بذلك.»[12] أي إن الأطفال لديهم ميل للحفاظ على مفهوم الإله حتى لو كان آباؤهم ملحدين.

---

(١) في القرآن يخبرنا الله تعالى بأنه الرازق لكل الكائنات الحية أو لكل دابة وكذلك لنا جميعًا بغض النظر عن المؤمن منا والكافر: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ العنكبوت: ٦٠. (المترجم)

ويذكر عالم النفس جستن باريت Justin Barret من جامعة أوكسفورد نتائج مشابهة، فقد بيّن الدليل العلمي أنه «يوجد استعداد مسبق في النمو الطبيعي لعقول الأطفال لرؤية العالم الطبيعي على أنه مصمم وذو غاية، وأن هناك كائنًا ذكيًّا ما وراء تلك الغاية.»[1] حتى لو «وُضِعت مجموعة من الأطفال على جزيرة وربّوا أنفسهم، فأظن أنهم سيؤمنون بالله.»[2] يبدو أن المرء يحتاج إلى من يعلمه كيف ينبذ معرفته بالله على يد نظامي التعليم والإعلام العلمانيين.

• كبت الدليل

قد تبين هذه الاكتشافات من مجال علم النفس معنى كلام عيسى عندما حثّ أتباعه على أن «تَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلَادِ» حتى يدخلوا ملكوت السماوات (متى ١٨ : ٣). علم كالفن Calvin أن كل الناس لديهم شعور داخلي بالإله sensus divinitatis، ولكن إن كان الوحي العام يترك أثرًا في كل الوعي البشري، فلماذا لا يقرّ كل الناس بوجود الله؟ ما هي إجابة بولس؟ يرد بولس قائلاً إن الناس «يَحْجُزُونَ الْحَقَّ» الذي يعلمنا إياه الوحي العام. دعونا نستعرض الآيات التي تصف المرحلة التالية في الدراما الكونية:

جميعنا يُسكتُ الأدلة على وجود الله التي نراها في خلقه

«الَّذِينَ يَحْجُزُونَ الْحَقَّ» (رومية ١ : ١٨)

«لِأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ» (رومية ١ : ٢١)

«لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ» (رومية ١ : ٢٨)

لماذا يكتم الناس الأدلة على وجود الله؟ إن الله يصطدم مع المفاهيم الروحانية spirituality التي يفضلها الناس اليوم، إذ قد يرحب معظم الناس بفكرة القوة الروحانية التي لا تتمتع بالذاتية الشخصية والتي يمكنهم الاتصال بها، وقد يكونون على استعداد للنظر بإيمان باجتماع روحاني حلولي pantheistic عظيم يكونون جزءًا منه، ولكنهم لا يتقبلون كثيرًا فكرة الإله الحي الفعال المتصف بالذات الشخصية والذي يعرفهم ويريد التواصل معهم، ولديه آراؤه الخاصة حول ما يفعلونه في حياتهم.

---

(١) قام مركز دلائل بترجمة كتاب (فطرية الإيمان) لجستن باريت، من إصدارات عام ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م وهو مليء بذكر عشرات التجارب العملية الأكاديمية الموثقة وقصص الأطفال في تقبلهم العقلي الفطري للإيمان بخالق أعلى حتى إذا نشؤوا لوالدين غير مؤمنين. (المترجم)

إن مقابلة هذا الإله أشبه بالمشي في الظلام والاصطدام بشيء دافئ وثقيل، فتكتشف أنك اصطدمت بشخص آخر لم تكن تعرف أنه هناك، وقد تجفل منه، وربما تصاب بالذعر قليلاً. يصوّر سي أس لويس الأمر بطرافة: «بينما الأطفال يلعبون لعبة «عسكر وحرامية»، أشار أحدهم للباقين ليسكتوا: هل هذا صوت خطوات حقيقية في الصالة؟ تأتي لحظة ما على الناس الذين يهوون الاشتغال بالأديان (بحث الإنسان عن الله!) يجفلون فجأة ويتراجعون خطوة إلى الوراء:

افترضوا أننا وجدناه حقًّا؟ بل الأدهى: افترضوا أنه وَجَدَنا؟»[١٤]

افترض أن ما ظننته قوة روحية ليس لها ذات شخصية والتي يمكنك أن تتعامل معها مطمئنًّا على أنها جماد غير عاقل، اتضح أنه ذات متعالية، لها عليك حق معنوي أخلاقي في حياتك؟ ماذا يفعل الناس عندما يشعرون أن الإله الحقيقي قد جاءهم؟

يقول بولس إن رد فعلهم الأول سيكون الخوف والإنكار، إنهم «يَحْجُزُونَ الْحَقَّ» (رومية ١ :١٨).

يُقال إن مفهوم الإنكار أو الكبت suppression هو أحد أبرز اكتشافات علم النفس الحديث، ولقد بينت الأبحاث أن البشر يميلون لكبت الأفكار المؤلمة أو المنغصة أو الصادمة، واليوم نستخدم تلقائيًّا في كلامنا اليومي مصطلح علم النفس الذي انتشر على ألسنة الناس «أنت في حالة إنكار» ونقصد بذلك أن شخصًا ما يرفض الاعتراف بمشكلة ما، أو يرفض مواجهة حقيقة أليمة.[١٥]

إلا أن فكرة أن الناس يحجزون أو يكبتون ما يعرفونه ليست أمرًا جديدًا؛ فلقد علمنا ذلك قبل ظهور علم النفس الحديث[(١)]. يقول إصحاح سفر رسالة بولس إلى أهل رومية الأول إن البشر الخاطئين الساقطين يميلون بقوة إلى إنكار ما نعلمه عن الله، أو ما ينبغي أن نكون على علم به.

• شد الحبل

قد تستغربون قولي إن هناك أشياء «ينبغي» أن نعلمها عن الله، وكأن ذلك واجب أخلاقي، ولكن في الكثير من الحالات نكون مسئولين أخلاقيًّا تجاه ما نعلمه. فمثلاً لو كنتَ شاهدًا في المحكمة فيجب أن تُقسم على أن تقول كل شيء تعرفه –«الحقيقة كاملة»– عن الجريمة، ولو

---

(١) مسألة إنكار رسالات الله ووحيه من الكافرين هي مسألة نفسية معروفة مع كل الأنبياء والرسل، يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في القرآن: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الأنعام: ٣٣، والأمر نفسه مع موسى عليه السلام من قبل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ النمل: ١٤. (المترجم)

كتمت شيئًا مما تعلمه فقد تُوجه لك تهمة إعاقة العدالة[١١]. وكذلك لو اعتُقِلتَ فليس لك أن تجادل بأنك لم تكن تعرف القانون؛ فالمحاكم تتعامل بمبدأ أن الجهل بالقانون ليس عُذرًا، ولو حاولت أن تتحاشى المسئولية القانونية بأن تغض بصرك عن الوقائع فقد تُوجه لك تهمة «التعامي المقصود willful blindness». ادعى بعض من أُلقيَ القبض عليهم بتهمة نقل مخدرات أنهم لم يكونوا يعلمون ماهية الأشياء التي كانت في اللفافات التي كانوا ينقلونها، وحكمت المحكمة أن المُدعى عليهم كان ينبغي أن يعرفوا ذلك، وأنهم كانوا مسئولين عن محاولة معرفة ماذا يوجد في اللفافات[١٧].

ونطبق المبدأ نفسه خارج قاعات المحاكم، فلو قال طالبٌ إنه لم يكن يعلم أن موعد تسليم الواجب هو الخميس فهذا عذر غير مقبول؛ لأنه كان ينبغي أن يعرف موعد التسليم.

يُدعى فرع الفلسفة الذي يركز على طبيعة المعرفة بالأبستمولوجيا «نظرية المعرفة» epistemology. إن علينا واجبًا أبستمولوجيًّا وهو إدراك ما نعرفه وإخضاع حياتنا له، وعندما لا نقوم بذلك الواجب فنحن نرتكب «خطيئة أبستمولوجية».

توضح هذه الأمثلة ما يقوله بولس في رسالته إلى أهل رومية ١. يمكننا أن نقول إنه تتأصل في الطبيعة البشرية خطيئة أبستمولوجية وهي رفض إدراك ما يمكن معرفته عن الله، ثم الاستجابة المناسبة لذلك: «لِأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ»، فقد تعامَوا بإرادتهم.

إن أحداث التاريخ الجسام كلها «شد حبل» بين الله والبشرية، ففي ناحية يمد الله يده إلى البشرية ليعرفهم بنفسه، وفي الناحية الأخرى يبذل البشر ما في وسعهم لتجنب التعرف إليه[(١)]. يقول عالم اللاهوت توماس ك. جونسون Thomas K. Johnson: «نستطيع أن ننظر إلى قصة اختباء آدم وحواء خلف الشجرة كتشبيه لتاريخ البشرية»[١٨].

---

(١) في آيات كثيرة في القرآن نرى ذمّاً لأكثر الناس لابتعادهم عن الحق، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ يوسف: ١٠٣، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري: «مَثَلِي ومَثَل الناس كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها». (المترجم)

• كيف يختبئ البشر

كيف يحاول البشر الاختباء من الله؟ ما هي النقطة التالية في تحليل بولس للدوافع البشرية؟ إنهم يتجنبون الله باتخاذهم الأصنام. إن هؤلاء الذين يرفضون الخالق يبحثون عن بديل لله من خلقه[1]. يسلط بولس الضوء على الدافع الأساسي باستخدامه كلمة **أبدلوا**:

• كلنا نتخذ أصناماً لتحل محل الله

«وَأَبْدَلُوا بِمَجْدِ اللهِ الَّذِي لَا يَفْنَى شِبْهَ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ.» (رومية ١: ٢٣)

«الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا بِحَقِّ اللهِ الْكَذِبَ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ ...» (رومية ١: ٢٥)

إن أهم قرار نواجهه في حياتنا كلها، هو اختيار ما سنقر بأنه الحقيقة الكبرى والمصدر غير المُسبَّب وسبب وجودنا. كل شيء آخر في رؤيتنا الكونية يعتمد على ذلك القرار الأول. يحدثنا الدين عن هذا الاختيار الأساسي المتعلق بماهية أو كينونة ما نعبده. يجب علينا كلنا أن نواجه التحدي الذي وضعه يشوع بن نون أمام بني إسرائيل عندما كانوا على وشك دخول الأرض الموعودة: «فَاخْتَارُوا لأَنْفُسِكُمُ الْيَوْمَ مَنْ تَعْبُدُونَ» (يشوع ٢٤: ١٥).

وكذلك تبدأ الوصايا العشر بالحديث عن قضية العبودية: « لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي.» (الخروج ٢٠: ٣). لماذا تأتي هذه الوصية في البداية؟ لأن بقية الوصايا كلها تتوقف عليها[2]، فبقية الوصايا تحدد وتفسر معنى أن تعبد الله المذكور في الكتاب المقدس، وكيفية الحياة في ظل الإيمان به مادامت الحياة، فتحدد هذه الوصايا الحال التي سنكون عليها عندما نتصل بالله.

---

(١) أي اتخاذهم معبودات من دون الله، سواء كانت معبودات مادية حسية كالأصنام الحجرية أو الكواكب والنجوم والشمس والقمر والبشر، أو معبودات غير مرئية كالجن والشياطين بل حتى الملائكة في زعم البعض، وهناك مَن يعبد المفاهيم مثل مفهوم المادية الإلحادية ومفهوم اللادينية أو الإنسانوية أو الحرية المطلقة أو الليبرالية وغيرها، فكل إنسان يعبد ما يستبدله هواه، يقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ الفرقان: ٤٣. (المترجم)

(٢) من الجيد اعتراف الكاتبة هنا بأهمية توحيد العبادة لله، حيث لما أرادت التعرض للإسلام بالنقد كما سيأتي جعلت من ضمن أسباب النقد إعلاء الإسلام من شأن التوحيد (في مقابل الشرك والتثليث في المسيحية)، لتوحي للقارئ بأن ذلك في الإسلام صورة تقترب من صور الإله غير المشخص (أي التي يكون فيها الخالق هو المخلوق وهو الكون ذاته) في تجنٍّ غريب كما سنرى. (المترجم)

قال لي أستاذ ملحد ذات مرة: إن الكتاب المقدس يُعلِّم الشرك لأن الوصية الأولى تتحدث عن «آلهة أخرى»، وقال إن ذلك يعني أن الله المذكور في الكتاب المقدس ما أراد إلا أن يكون الإله السيّد على مجموعة من المعبودات الأخرى. إلا أن عبارة «أمامي» في اللغة العبرية تعني في الحقيقة **أمام عيني أو في وجودي**، أي أن الله يقول: «أزيلوا أصنامكم من أمام عيني! لا تتخذوا آلهتكم المزيفة في حضرتي»!

قد تبدو الوصية الأولى قديمة قد عفا عليها الزمن إن قصرنا تصورنا للأصنام على تلك المصنوعة من الخشب والحجارة، بيْدَ أن الكتاب المقدس يتعامل مع قضية الوثنية بطريقة أكثر دقة بكثير. إن الصنم هو كل شيء نريده أكثر من الله، وأي شيء نعتمد عليه أكثر من الله، وأي شيء نبتغي السعادة من عنده أكثر من الله. ولذلك فالوثنية هي الخطيئة الخفية التي تحرك كل الخطايا[1].

فمثلاً لماذا نكذب؟ لأننا نخشى من سخط الناس أكثر مما نبتغي رضا الله، أو لأننا نقدّر سمعتنا أكثر مما نثمّن صلتنا بالله، أو لأننا نحاول جعل شخص ما يعطينا شيئًا نظن أننا نحتاجه أكثر من الله، فالخطيئة الظاهرة (الكذب) يُحركها توجه خفي من القلب نحو شيء غير الله باعتباره المصدر الأهم للأمان والسعادة.

يرى عالم النفس ديفيد بوليسون David Powlison أن هذا هو السبب في أن «الوثنية هي أكثر مشكلة نوقشت في الكتاب المقدس بلا جدال»[١٠]. يذكر النبي حبقوق في العهد القديم جماعة صنمها هو قوتها العسكرية: «قُوَّتُهَا إِلهُهَا»[2] (حبقوق ١ : ١١)، ويرسم صورة واضحة لجيش العدو بتشبيهه بشبكة الصيد التي تسحب معها مجتمعات كاملة، فيقول: «لِذلِكَ تَذْبَحُ لِشَبَكَتِهَا، وَتُبَخِّرُ لِمِصْيَدَتِهَا» (حبقوق ١ : ١٦).

---

(١) وهذا المعنى الواسع لكل ما يعبد من دون الله حتى إذا كان المال أو الأعراف أو القوانين، هو أحد تفسيرات كلمة (الطاغوت) التي تكررت ٨ مرات في القرآن، منها قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ البقرة: ٢٥٦. (المترجم)

(٢) وجاء مثلها في القرآن: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾ فصلت: ١٥. (المترجم)

وفي العهد الجديد يتعامل بولس مع الوثنية بالبصيرة النفسية الثاقبة نفسها، فعندما كتب إلى أعضاء الكنيسة في أفسس Ephesus حثهم على تجنب الخلاعة الجنسية والحسد وتلوث القلب، ثم أضاف شيئًا قد يبدو مفاجئًا، وهو أن الذي يرتكب تلك المحرمات «عَابِدٌ لِلأَوْثَانِ» (إفسس ٥:٥). إن الخطيئة الكامنة تحت باقي الخطايا هي الرغبة في اتخاذ «الأَشْيَاءَ الَّتِي فِي الْعَالَمِ» أصنامًا (١ يوحنا ٢: ١٥)، فنحن نرتكب الخطايا لأننا نريد شيئًا من العالم المخلوق أكثر مما نريد الخالق[٢٠].

• عندما تكون النعم أوثانًا

عادةً ما نساوي بين الأصنام والمحرمات أو الأمور الشريرة في حد ذاتها، ولكن من الممكن للأمور الطيبة نفسها أن تصبح أصنامًا أيضًا إن سمحنا لها بأن تستولي على شيء من وظائف الله في حياتنا. يقول مارتن لوثر Martin Luther: «إن اتخاذ الله أو صنم ما إلهًا يكون بمجرد وضع الثقة والإيمان فيه، وأقول إن ذلك الذي يتعلق قلبك به وتتوكل عليه هو إلهك الحقيقي"[٢١].

دُعيت ذات يوم لألقي محاضرة في جمع من الفنانين المسيحيين عن مسألة كيف عملت الفنون أحيانًا كأديان بديلة.

ذكر الشاعر أرثر سايمونز Arthur Symons في القرن التاسع عشر أن الأدب قد أصبح «نوعًا من الدين، ويشتمل على كل الواجبات والمسئوليات التي يتطلبها أي طقس ديني»[٢٢]. إن الفنون نعمة طيبة من الله، ولكن -شأنها شأن كل الأمور الطيبة الأخرى- قد تُستخدم كبديل عن الله.

عندها بدأ الفنانون في المؤتمر يفصحون عن أصنامهم الشخصية، فقال أحدهم إنه أدرك أن أُسْرته هي صنمه، ونحن كثيرًا ما نقول بعضنا لبعض: «الأسرة هي كل شيء.» وقال آخر: «زواجي هو صنمي، لقد أصبحت علاقتي مع زوجي هي أهم شيء في حياتي». إن الزواج والأسرة لنعمتان طيبتان، فهما جزء من خلق الله الأصلي، ولكنهما لا يستطيعان أن يقدما لنا المعنى والغاية النهائيين لحياتنا[1].

---

(١) عندما يقف أحب الأشياء إليك مثل الزوجة والأولاد حائلًا بينك وبين قبول الحق أو اتباعه فإنها تصير في مقام العدو للإنسان، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ التغابن: ١٤. (المترجم)

ينبع عند بعض الناس أمانهم وتقديرهم لذاتهم من إنجازاتهم المهنية أو جاذبيتهم الجنسية أو لذاتهم الحسية. عندما كتب بولس إلى الكنيسة الفليبية Philppian ذكر أناسًا «يَفْتَكِرُونَ فِي الأَرْضِيَّاتِ» و«إِلهُهُمْ بَطْنُهُمْ» (فيلبي ٣: ١٩). هؤلاء لا يدفعهم إلا الشره الحسي، ولو ستروا شهواتهم بطبقة من التحضُّر.

يُعرِّف جون كالفن الوثنية أنها عبادة «النعم بدلاً من المُنعِم نفسه.»[٣] إن الطريقة التي تكشف بها الأصنام التي في حياتك هي أن تسأل نفسك هل أصبحت أي نعمة أهم عندك من المنعم[١].

• الأصنام وعواقبها

إذًا هذا هو تشخيص بولس للحالة البشرية إلى الآن: الله لا يتوقف عن مد يده للناس بالأدلة على وجوده التي تتمثل في الوحي العام، ولكن البشر لا يتوقفون عن كتم تلك الحقائق باتخاذهم الأصنام.

يخلق نمط كتم الحقائق هذا قلقًا داخليًّا حادًّا؛ فمن ناحية يرى الناس أدلة وجود الله المذكورة في الدين من خلال الوحي العام، ومن الناحية الأخرى لا يتوقفون عن خلق آلهة بديلة في محاولة يائسة لإسكات تلك الأدلة. ولو تحدثنا بلغة علم النفس فسنقول إن البشر محبوسون في سجن التنافر المعرفي cognitive dissonance، وهو القلق النفسي الذي يعتري المرء عندما يحمل بداخله مفاهيم تناقض بعضها بعضًا.

كيف يحررنا الله من ذلك السجن؟ إنه يجيبنا بطريقة قد لا نتوقعها: يجعلنا نزداد قلقًا تدريجيًّا. إنه يسمح لنا بأن نرى عاقبة حياتنا مع الأصنام حتى يزداد لدينا التنافر المعرفي، فيضعنا في النهاية في موقف لا بد فيه من اتخاذ قرار[٢]. يعبر بولس عن ذلك بقوله إن الله «أَسْلَمَهُمُ» إلى ما اختاروه ليروا عواقب اختيارهم:

---

(١) يتعجب المرء من شخص يهديك هدية فتنشغل بالهدية عن شكره بل وربما عن تذكره وهو المعطي والمتفضل عليك، فكيف بالله خير رازق وخير واهب؟ إن السقوط في امتحان الشهوات في الدنيا لهو الخسران، يقول عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ آل عمران: ١٤. (المترجم)

(٢) هذه حقيقة امتحان الكثير من الناس في الدنيا، حيث يتركون طريق الله، فيتركهم الله لما اختاروه لأنفسهم من بدائل حتى ينسوا معها اختيار الصالح لحياتهم في الدنيا والآخرة إذا لم يتداركوا أنفسهم قبل الموت، يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ الحشر: ١٩. (المترجم)

الله يُسلِمنا إلى عواقب أصنامنا، إلى ذهن «مرفوض»

«لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ» (رومية ١ : ٢١)

«وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ، أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ» (رومية ١ : ٢٨)

ما هي عواقب عبادة الأصنام؟ تبدأ إجابة بولس بالحديث عن الحالة الداخلية: «حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ»، و«أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ.» الكلمة اليونانية التي تعني «ذهن» هي nous، ولكن معناها اليوناني أوسع من كلمة ذهن mind بالإنكليزية، فيمكن ترجمتها بـالتفكير أو الفهم أو الحدس الفكري (وهي نفسها الجذر اللغوي لمصطلح التوبة باليونانية metanoia الذي يعني تغير الـ nous لدى المرء، أي ليس مجرد تغير الذهن ولكن تحول شامل للإنسان). أحيانًا كثيرة كان الآباء المؤسسون للكنيسة يترجمون nous بملكة تقويم وتغيير مسار حياتك: إنها «عيون الروح»، فليس من التكلُّف أن نترجم الكلمة بمعنى رؤية كونية، أي القناعات التي نُسيّر حياتنا على أساسها.

أصبحت[1] كلمة مرفوض debased اليوم تشير بالدرجة الأولى إلى جانب الانحطاط الأخلاقي، بمعنى شرير أو منحل، ولكن الكلمة في اليونانية القديمة تعني المال المزيف، فالرؤى الكونية المرفوضة تقدّم لنا إلهًا مزيفًا. إنها تعطينا وعودًا كاذبة وتجيبنا عن أسئلة الحياة بأجوبة مُضلِّلة[2].

في اللغة الأصلية تتضمن هذه الآية «وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ، أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لَا يَلِيقُ» (سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ : ٢٨) لعبة لفظية باهرة. الكلمة اليونانية التي ترجمتها worthwhile في الجملة الأولى تشترك في الجذر اللغوي نفسه مع الكلمة التي ترجمتها debased، ويمكن رسم الصورة هكذا: لما لم يكترث الناس بالاعتراف بالله ولم يستحسنوا ذلك، أسلمهم الله إلى رؤية كونية لا قيمة لها. والرؤى الكونية لا تُشكِّل أفكارهم فقط وإنما أعمالهم كذلك: «سَارُوا وَرَاءَ الْبَاطِلِ وَصَارُوا بَاطِلًا: (إرميا ٢: ٥). وإليكم كيف يوضح بولس العلاقة:

---

(١) تشرح الكاتبة في هذه الفقرة المعنى الأصلي للكلمة اليونانية مقارنة بالترجمة الإنكليزية للكتاب المقدس English Standard Version والتي تُرجمت فيها الكلمة بـ debased التي معناها الانحطاط الأخلاقي، وقد رأينا ترجمة كلام المؤلفة حول دقة اللفظة الإنكليزية كما هو مع تنبيه القارئ على أن الترجمة العربية (وهي «مرفوض») قد لا تحتاج لذكر هذا الكلام. (المترجم)

يتركنا الله لنواجه عواقب أصنامنا، يُسلِمنا إلى السلوك «المهين».

«لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمِ.» (رومية ١: ٢٤)

«لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ» (رومية ١: ٢٦)

«أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لَا يَلِيقُ.» (رومية ١: ٢٨)[1]

مرة أخرى تتضح العلاقة في كلمة «إبدال»: «وَأَبْدَلُوا بِمَجْدِ اللهِ الَّذِي لَا يَفْنَى شِبْهَ صُورَةٍ»، «اسْتَبْدَلُوا بِحَقِّ اللهِ الْكَذِبَ» (رومية ١: ٢٣، وانظر رومية ١: ٢٥)[25]

هنا يبين بولس أثر هذا الاستبدال على السلوك البشري: « لأَنَّ إِنَاثَهُمُ اسْتَبْدَلْنَ بِالاسْتِعْمَالِ الطَّبِيعِيِّ: الَّذِي عَلَى خِلَافِ الطَّبِيعَةِ، وَكَذلِكَ الذُّكُورُ أَيْضًا تَارِكِينَ اسْتِعْمَالَ الأُنْثَى الطَّبِيعِيَّ...» (رومية ١: ٢٦-٢٧). في ذلك العصر كان تعبير «خلاف الطبيعة»–في الثقافة اليونانية الرومانية وكذلك الثقافة الهيلينية Hellenistic اليهودية– يشير إلى الشذوذ الجنسي[26].

في ذلك العصر لم يكونوا يستخدمون كلمة **الطبيعة** كما نستخدمها الآن عندما نشير إلى السلوكيات التي نشهدها في العالم الطبيعي، وإنما كانت تعني لديهم التصرفات التي تتفق مع **الطبيعة البشرية** السوية، تلك التصرفات التي توافق الطريقة التي فُطر الناس عليها، والتي توافق غاية الله في البشرية، وتطبق المعيار الأمثل لمعنى أن تكون إنسانًا كاملاً.

وبمفهوم هذا التعبير تصبح كل الخطايا خلاف الطبيعة البشرية. ثم يُكمل بولس بذكر عينة من تلك الخطايا: «مَمْلُوئِينَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَزِنًى وَشَرّ وَطَمَعٍ وَخُبْثٍ، مَشْحُونِينَ حَسَدًا وَقَتْلًا وَخِصَامًا وَمَكْرًا وَسُوءًا، نَمَّامِينَ مُفْتَرِينَ، مُبْغِضِينَ لله، ثَالِبِينَ مُتَعَظِّمِينَ مُدَّعِينَ، مُبْتَدِعِينَ شُرُورًا، غَيْرَ طَائِعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ، بِلَا فَهْمٍ وَلَا عَهْدٍ وَلَا حُنُوٍّ وَلَا رِضًا وَلاَ رَحْمَةٍ». (رومية ١: ٢٩-٣١) كل هذه الخطايا –وغيرها الكثير– تتناقض مع معنى أن تكون إنسانًا.

---

(١) من عدل الله تعالى أنه يترك كل إنسان وعاقبة ما يختاره من هداية أو ضلال، فالهداية تستجلب في العادة مزيدًا منها، وكذلك الضلال يستجلب في العادة مزيدًا منه، وينسب الله تعالى كل ذلك إلى نفسه لأنه لو أراد منع استجلاب كل نوع لما يقتضيه لفعل، لذلك كما يقول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ محمد: ١٧. نجده يقول أيضًا: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ مريم: ٧٥. (المترجم)

في هذا الفصل قدّم بولس تحليلاً عميقًا للعلاقة بين العقل والسلوك. لقد سلط الضوء على إسقاط واضح وخطير: أولاً «لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ»؛ «لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ... **لإِهَانَةِ** أَجْسَادِهِمْ»، «لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى أَهْوَاءِ **الْهَوَانِ**». المبدأ هنا أن هؤلاء الذين لا يمجدون الله ينتهي بهم المطاف إلى إهانة أنفسهم وغيرهم. بعبارة أخرى: الأصنام لها عواقب وخيمة.

• خمسة مبادئ استراتيجية :

بيّن بولس في رسالته إلى أهل رومية ١ سلسلة من الأعمال المتعاقبة – دراما التفاعل بين الله والبشر– ترينا المنطق الذي يقوم عليه منهج الدفاع عن الدين، ومن هنا نستطيع أن نستخلص خمسة مبادئ استراتيجية. وبلغة العصر نقول إن هذه المبادئ تمكننا من تحديد العناصر الأهم في أي رؤية كونية –بما في ذلك أحدث الأفكار المتطورة في عصرنا– ومن ثمّ صياغة حجة قوية وجذابة لمصلحة الدين. دعونا نمر على هذه المبادئ سريعًا الآن، ثم سنستعرضها بالتفصيل في بقية الكتاب.

- **المبدأ الأول: اعرف الصنم**

بما أن كل من يُعرِض عن الله يتخذ صنمًا، فهذه هي النقطة التي يُحتّم التفكير الاستراتيجي البدء من عندها. إن الصنم هو أي شيء من المخلوقات يُوضع في مكان الله، وهذا التعريف لا يعطينا فقط أدوات تحديد أصنامنا الشخصية وإنما يُبصِّرنا كذلك بعالم الأفكار، فالفلسفات والرؤى الكونية قد تكون أحيانًا آلهة مزيفة.

فكر في الأمر هكذا: من ناحية منطقية بحتة يتعيّن على كل تفسيرٍ للحياة أن يبدأ من نقطة ما، فلا بد أن يتتبع خطوات الكون في الماضي وصولاً إلى شيء يمثّل الحقيقة الأولى، ذلك السبب الذاتي الوجود الذي سبَّب كل شيء آخر. وكما يقول بولس في رسالته إلى أهل رومية، لو أعرضت عن الله فسوف تُؤلِّه شيئًا غيره من المخلوقات. إن هؤلاء الذين لا يُقدّسون الله العليّ **البائن** عن الكون يتحتم عليهم أن يصنعوا إلهًا من قوة ما أو مفهوم ما **داخل** هذا الكون.

ماذا عن المادة؟ هل المادة جزء من المخلوقات؟ نعم، قطعًا. إذًا فإن الفلسفة المادية materialism تمثّل صنمًا؛ فهي تدعي أن المادة هي الحقيقة الجوهرية، السبب الأول غير

المخلوق الذي سبّب كل شيء آخر، وهي تنكر وجود أي شيء خارج العالم المادي مثل الروح والنفس والعقل والله، وتحثنا على أن نصب تركيزنا على «مَا عَلَى الأَرْضِ» وليس على ما فوق (كولوسي ٣: ٢). يحب الملحدون الجدد أن يروا أنفسهم على أنهم غير مؤمنين، ولكن في الوقت نفسه يؤمنون بالمادة (أو الطبيعة)، باعتبارها دينهم البديل.

ماذا عن العقل؟ هل يمكن أن يكون إلهًا؟ بالتأكيد. إن فلسفة العقلانية rationalism تجعل العقل البشري في مكان الله كمصدر ومقياس الحقيقة كلها، ولقد وصف ألبرت أينشتاين نفسه ذات مرة بأنه «عقلاني مؤمن»، ولخص عقيدته بقوله: «أنا أومن بإله سبينوزا Spinoza» وهو الفيلسوف الذي استخدم لفظة الله فقط بمعنى محور النظام العقلاني في الكون[٢٧]. ترفض العقلانية الاعتراف بأي مصدر للحقيقة وراء العقل البشري، مثل المعلومات التي يوحيها الخالق، وهي فلسفة دوغمائية في عبادتها لصنم الفكر البشري «الحر" أو «المعتمد على ذاته».

لهذا لا يقابل الدين مع الإلحاد ولكن يقابله مع الوثنية. يقول الفيلسوف روي كلاوزر Roy Clouser: «كان كُتّاب الدين دائمًا يخاطبون القراء على أساس أنهم أصلاً يؤمنون بالله أو ببديل عنه"[٢٨]. فللبشر ميلٌ نحو ابتغاء معنى الحياة من قوة أو مفهوم أو شخص ما، وذلك يمثّل دينهم الفعلي، سواءً استخدموا لغة اللاهوت أم لا.

- **المبدأ الثاني: اعرف اختزالية الصنم**

تُخبرنا رسالة رومية ١ أن الوثنية تقودنا إلى رؤية كونية مرفوضة تقود إلى الظلم والجور وباقي الشرور المذكورة في نهاية الإصحاح. ما الرابط بين الأصنام والسلوكيات غير السوية؟ الرابط هو أن الأصنام تقود دومًا إلى رؤية أدنى للحياة البشرية. يُعلمنا الدين أن البشر خُلقوا على صورة الله، وعندما يستبدل البشر بالخالق شيئًا آخر من خلقه يستبدلون كذلك بالنظرة المُشرفة للإنسان المخلوق في صورة الله نظرة أحقر للإنسان مخلوقًا في صورة مخلوق آخر من المخلوقات.

نستطيع أن نقول إن أي تصور عن البشرية مخلوق في صورة إله ما.

ولو ترجمنا حجة بولس باللغة العصرية فسنحتاج لفهم مصطلح فلسفي هو: **الاختزالية reductionism**، ويعني **اختزال** ظاهرة واقعية ما ذات مستوى عالٍ من التعقيد في مستوى أقل وأبسط، وذلك غالبًا بهدف دحضها أو إنقاص قيمتها.

مثلاً لعلك سمعت من يقول إن الدين ما هو إلا عكّاز عاطفي، أو إن الأفكار ليست إلا نواتج تفاعلات كيماوية في المخ، أو إنه يمكن تفسير الكائنات الحية باستخدام الكيمياء والفيزياء فقط[٢٩].

هذه كلها صور من الاختزالية.

وعندما نقول إن الأصنام دائمًا تقود إلى الاختزالية فنحن نعني أنها تقود إلى رؤية منحطة للحياة البشرية. يمكنك أن تتخيل الاختزالية كشخص يحاول أن يحشُر الكون في صندوق. عندما يتم التعامل مع جزء ما من الخليقة على أنه قيمة مطلقة فسوف يُعاد تعريف كل شيء على أساسه، وسوف يعاد صياغة البشر في صورة ذلك الشيء[٣٠].

تذكر أن في حالة المادية كان الصنم هو المادة، وكل شيء آخر يُختزل في الأشياء المادية التي تُنتجها القوى المادية، وأي شيء لا يمكن أن يُحشر في صندوق المادية يُصرف عنه النظر باعتباره وهمًا، مثل الروح والنفس والإرادة والعقل والوعي. إن الاختزالية هي استراتيجية لإسكات الحق، فلو استطعنا أن نختزل البشر في آلات تعمل بالقوى الطبيعية فسوف نستطيع أن نفسّر نشأتهم على أنها حدثت نتيجة القوى الطبيعية فحسب.

على النقيض تبدأ الرؤية الكونية المستمدَّة من الدين بإله أعلى؛ ولذلك فهي ليست اختزالية، ولا تحاول أن تحشر كل شيء في صندوق يمثّل جزءًا واحدًا فقط من الخليقة، وإنما ينظر الدين للشخص البشري نظرة تقدير على أنه مخلوق في صورة شخص عالي المكانة، وهو يؤكد كل الصفات التي تجعلنا بشرًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

- **المبدأ الثالث: افحص الصنم: هل يتناقض مع ما نعرفه عن العالم؟**

بمجرد ما تعرفنا على الصنم وما يلحق به من اختزالية نستطيع الآن أن نسأل السؤال الأهم: هل هذه الرؤية الكونية صحيحة؟ هل تتفق مع ما نعرفه عن العالم؟

تعلمنا رسالة رومية ١ أن هناك بعض الأمور التي بوسع الجميع أن يعرفوها، وهي حقائق الوحي العام، ومن ثمّ يجب أن يتفق أي مزعم عن الحقيقة مع الوحي العام. نستطيع أن نقول إن غاية الرؤية الكونية أن تفسر لنا ما نعرفه عن الكون، فلو كانت تناقض ما نعرفه عن الكون من خلال الوحي العام فستسقط تلك الرؤية.

ونستطيع أن نكون على يقين أن أي رؤية كونية قائمة على الأصنام **حتمًا** ستفشل. لماذا؟ لأنها ستؤدي إلى الاختزالية تمامًا. فإن كانت الاختزالية محاولة لحشر الكون كله في صندوق فسوف يبرز شيء خارج ذلك الصندوق لا محالة. لن يمكن لصندوق يقدس جزءًا من الخليقة أن يتسع بما يكفي ليفسر كل الخليقة، وكل ما لن يدخل في الصندوق سوف يُستهزأ به أو يقلل من قيمته أو يُصرف عنه النظر باعتباره غير حقيقي.

فكر مرة أخرى في مثال المادية، بما أنها النظرة السائدة في المجال الأكاديمي حاليًا. عندما تختزل المادية البشر في آلات بيوكيميائية معقدة فما الذي يبقى خارج الصندوق؟ الإرادة الحرة، القدرة على الاختيار واتخاذ القرارات، كل ذلك يُنظر إليه كوهم، ولكننا -عمليًا- لا نستطيع أن نعيش من دون اتخاذ قرارات منذ اللحظة التي نستيقظ فيها من النوم. إن الإرادة الحرة جزء من الخبرة البشرية التي لا يمكن إنكارها ولا التهرب منا، وهذا يعني أنها جزء من الوحي العام؛ وهكذا لا تتفق النظرة المادية للبشرية مع الواقع الذي نعيشه.

أحيانًا يقر الماديون أنفسهم بتلك المشكلة. ذكر الصحفي العلمي جون هورغان John Horgan في صحيفة النيويورك تايمز أن الكثير من علماء الأعصاب يرفضون مفاهيم مثل **الإرادة الحرة** فيعتبرونها خرافات، ولكن جون يفاجئنا بتعقيبه: «مهما يكن ما يمليه عليّ فكري فإنني مدفوع للإيمان بالإرادة الحرة»[٣١].

ومهما تَقُلْ أي رؤية كونية، فكلنا «مدفوعون للإيمان" بحقائق الوحي العام.

ومثال آخر هو الفيلسوف جون سيرل John Searle الذي يعتنق المادية ولكنه يعترف أننا لا نستطيع أن نحيا بمبادئها. في مقابلة معه ذكر أن المادية تتصور الكون على أنه آلة ضخمة، وكل الأعمال البشرية بداخلها محتومة، ولكن الخبرة دلّت على أننا فاعلون ذوو قدرة على اتخاذ قرارات، ويقول: «نستطيع أن **نقول** حسنًا، أنا أومن بمذهب الحتمية determinism، ولكنْ هناك في خبراتنا اقتناعٌ أصيل بالحرية، ونحن لا نستطيع التخلي عن تلك القناعة، لو حاولنا ذلك **لما تحملنا النتائج**.»[(١)] ثم يختم بقوله: «نحن **لا نستطيع أن نتخلى** عن اقتناعنا بحريتنا حتى لو لم يكن هناك مبرر لتلك القناعة»[٣٢].

---

(١) واحدة من أشهر تبعات ولوازم نفي حرية الإرادة هي عدم معاقبة المجرمين، لأن أبسط اعتراض سيواجه الحاكم أو القاضي هنا هو أنهم يتصرفون بـ (حتمية) لم يمكنهم الفرار منها أو مخالفتها، وهو وضع لا يمكن أن يتعايش معه البشر ولا أي شخص سليم العقل وإلا تحول العالم إلى غابة بل أسوأ نتيجة هذه الشطحات الإلحادية، وبذلك تبقى أباطيلهم حبراً على ورق دوماً مهما حاولوا التظاهر بعكس ذلك. (المترجم)

نعم، حتى لو لم يكن هناك مبرر، أي في فلسفته المادية. إنه يعترف بأن صندوق رؤيته الكونية أصغر بكثير من أن يفسر الواقع كما يعيشه سيرل نفسه. إنه «لا يستطيع التخلي» عن اقتناعه بالحرية. إنه لا يستطيع «أن يتحمل» فلسفته الخاصة.

إن سيرل محبوس في سجن التنافر المعرفي؛ فما تمليه رؤيته الكونية يتنافر مع ما يعرفه من خلال الوحي العام.

ماذا يفعل الماديون عندما يدركون أن صندوق رؤيتهم الكونية لا يتسع للأدلة كلها؟ يُسكتون الحقائق كما قال بولس في رسالته إلى أهل رومية ١. إنهم لا يستطيعون إنكار أن مفهوم الإرادة الحرة راسخ في التفكير البشري، ولكن الأمر الذي يستطيعونه أن يختزلوا هذا المفهوم ويعتبروه وهمًا، مجرد خيال مفيد.

يمكن أن تتصور الاختزالية كاستراتيجية إسكات، فلو اعترف المادي بحقيقة الإرادة الحرة لأصبحت دليلاً على أن البشر كائنات لها ذات شخصية، وبالتالي يلزم أن يكون منشئها كيانًا له ذات شخصية كذلك؛ ولذلك يلزم أن يُسكت الماديون أدلة الوحي العام وإلا فستُكذِّب رؤيتهم الكونية.

في لحظة ما تتعارض كل الرؤى الكونية المبنية على الأصنام مع الواقع، وهذا يوفر فرصة لصياغة حجة لمصلحة الدين. بما أن الدين غير اختزالي فهو لا يستهزئ بالأجزاء المهمة من التجربة البشرية ولا يعتبرها وهمًا، ولا يتنافر مع نعرفه من الوحي العام، ولا يقود إلى التنافر المعرفي، وإنما الدين حقيقة كاملة؛ فهو متفق مع ذاته ومتماسك وشامل، ويمكن أن نعيش في ظله في الرؤية الكونية الحقيقية دون مصادمة لأبسط جزء من تجربتنا البشرية.

- **المبدأ الرابع: افحص الصنم: هل يتناقض مع ذاته؟**

إن الرؤية الكونية القائمة على الأصنام لا تفشل فقط في مواكبة العالم الخارجي، ولكنها تنهار داخليًا أيضًا. إنها تنقض نفسها بنفسها. المصطلح المنطقي لتلك الظاهرة هو «المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية[1] self-referential absurdity» وهو يعني أنها تفترض معيارًا معينًا للحقيقة تفشل هي بذاتها في تحقيقه.

---

(١) يختصرها البعض بوصف (الدحض الذاتي) وذلك عندما يكون الموقف أو المقولة تناقض نفسها ذاتيًا. (المترجم)

مثلاً قد يفترض شخص ما النسبوية الثقافية cultural relativism وهي تدعي أنه لا توجد حقيقة كلية، ولكن هذه العبارة بحد ذاتها تطرح مزعمًا يمثّل حقيقة كلية، وهكذا تتناقض مع نفسها.

إن حجة المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية هي سهم جاهز في جَعبة كل مدافع عن الدين، ولكن لماذا تنجح دائمًا؟ الإجابة مرة أخرى هي الاختزالية. إن الرؤية الكونية الاختزالية تقود إلى نظرة منحطة للبشرية ومن ثمّ للعقل البشري، وهي تختزل الفكر البشري إلى شيء أقل منه، ولكن في الوقت نفسه لا يمكن لأي رؤية كونية أن تثبت نفسها إلا باستخدام الفكر والمنطق، وعندما تستهين تلك الرؤية الكونية بالفكر والمنطق فإنها تدمّر حجتها الخاصة. إنها تكتب شهادة وفاتها بيدها.

دعونا نستخدم مثال المادية مرة أخرى لتوضيح طريقة سير هذه الحجة. تختزل المادية عملية التفكير في عمليات كيميائية حيوية في المخ تمامًا كتلك التي تجري في الأمعاء، إلا أن الهضم ليس شيئًا يمكن وصفه بأنه صحيح أو خطأ، فهو مجرد واقع بيولوجي. لكن لو اختُزِل التفكير في عمليات كيميائية في الدماغ فعندها لن تتصف الأفكار بالصحة أو الخطأ كذلك، إذًا كيف للماديين أن يعرفوا أن المادية صحيحة؟ إن هذه الفلسفة تقوّض عمادها بيدها.

مرة أخرى يقدم الدين إجابة أفضل: لما كان البشر مخلوقين في صورة الله فقد نال الفكر البشري شرفًا عظيمًا بأن يعكس الفكر الإلهي، وبهذا يؤكد الدين مصداقية وصحة القدرات الإدراكية البشرية (دون أن تكون عقلانية بحتة rationalistic تؤله العقل). إنها لا تنقض نفسها بنفسها.

من المفارقة حينئذ أن أتباع الرؤى الكونية الاختزالية يتعين عليهم التخلي عن الاختزال عندما يطرحون حجتهم، ويحتاجون إلى استعارة نظرة الدين المشرفة للعقل حتى يبرروا وجهة نظرهم.

- **المبدأ الخامس: استبدل الإله: حجة لمصلحة المسيحية**

الخطوة الأخيرة هي طرح بديل من الكتاب المقدس للرؤى العلمانية والوثنية[1]. وحتى نتمكن من طرح شيء يناسب عصرنا الحالي علينا أن ننتبه إلى النقاط التي فشلت فيها الرؤى الكونية الأخرى. تذكر المبدأ الثالث، عندما قابلنا ماديين يعترفون بصراحة أنهم «لا يستطيعون

(١) على قدر ما نجحت الكاتبة في نقد أشهر العقائد المخالفة للدين، على قدر ما فشلت في انتقاد الإسلام كما ذكرنا من قبل، حيث اختارت منه ما لا يصلح للنقد ثم مرت عليه سريعاً كما سنرى. (المترجم)

تحمل» عواقب رؤاهم الكونية، وأنهم «مدفوعون للإيمان» بالإرادة الحرة؟ تذكر المبدأ الرابع، عندما تعلمنا أن أتباع الرؤى الكونية الاختزالية لا يستطيعون تأكيد مزاعمهم دون أن يستعيروا نظرة الدين المشرفة للعقل البشري؟

يا لها من صورة معبّرة! إنهم أناس محبوسون بين جدران التنافر المعرفي، يمدون أيديهم ليتشبثوا بالحقائق التي تنكرها رؤاهم الكونية، والتي لا يعضدها منطقيًّا إلا الرؤى الكونية المستمدة من الدين.

في المبدأ الخامس سوف نستعرض عدة أمثلة واقعية لمفكرين علمانيين «يتطفلون» على الدين آخذين منه ما يعجبهم. لقد وجدوا الرؤية الكونية المستمدة من الدين جذابة جدًّا لدرجة أنهم يستعيرون منها (متعمدين أو غير متعمدين). حيث لما اعترفوا بأنهم لا يستطيعون العيش داخل رؤاهم الكونية أظهروا أنهم متعطشون لأجوبة أكثر إقناعًا من تلك التي تعطيها أصنامهم، وبتطفلهم على الدين وأخذهم منه دون حساب أظهروا أنهم يحتاجون أشياءَ لا يعطيها إلا الدين.

إن المبادئ الخمسة المستمدة من سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ تبني حجة قوية توضح أن الرؤى الكونية القائمة على الأصنام تفشل في إعطاء أجوبة شافية للأسئلة الأساسية التي يجب على الجميع أن يجيبوا عنها، وفي الوقت نفسه تبين المبادئ الخمسة أن الدين يقدم أجوبة أفضل تناسب الواقع ومتسقة مع ذاتها. تبدأ الرؤية الكونية المستمدة من الدين من خالق أعلى؛ ولذلك فهي لا تؤله شيئًا من الخلق، فلا تحتاج إلى أن تحشر كل شيء في مجموعة محدودة من الفئات مستمدَّة من جزء واحد من الكون. إن الدين يحررنا من الاختزالية المنكِرَة للحياة، تلك الاختزالية التي تهين وتحقِر البشرية، وهي تؤكد على الكرامة المتسامية للبشر المخلوقين كذَوَات شخصية كاملة في صورة الإله ذي الذات الشخصية.

• في الدراسة وفي العمل

يُمكن تطبيق المبادئ الخمسة الواردة في كتيب إرشادات بولس لتعليم الدفاع عن الدين في قاعات الدرس وأماكن العمل وفي المحادثات التي نتبادلها مع الجيران. وحتى نعطيك تمرينًا، سوف نطبق في باقي هذا الكتاب تلك المبادئ على الفلسفات الأكثر انتشارًا اليوم. فمثلاً المادية ليست

فلسفة واحدة، بل أقرب إلى أن تُعتبَر عائلة من النظريات ذات العلاقات المتداخلة، ويمكن ملاحظة ذلك في كيفية توغلها في مجال مثل علم النفس، فالمفكرون الكبار مثل إيفان بافلوف Ivan Pavlov وسيغموند فرويد Sigmund Freud وبي. إف. سكينر B. F. Skinner وإريخ فروم Erich Fromm وألبرت إليس Albert Ellis قد طرحوا نظريات مختلفة جدًّا، ولكن كانوا كلهم ملتزمين بالمادية والإلحاد. ولذلك عندما تبين عيوب المادية فأنت لا تسحب بساط المصداقية من تحت قدمي نظرية واحدة، وإنما من تحت أقدام عائلة كاملة من النظريات المادية.

إن الفلسفات تتجمع في عائلات؛ ولذلك ستجد أن تعلم كيفية تحليلها أسهل مما كنت تظن قبل قراءة هذا الكتاب.

هناك عائلات واسعة الانتشار ولذلك سوف نتفحصها أكثر من مرة، وقد يبدو ذلك لأول وهلة تكرارًا، ولكن في كل مرة سوف نطرح مبدأ استراتيجيًّا جديدًا. يقول أحد تلاميذي: «هذا الكتاب يختلف عن أي كتاب آخر قرأته في مجال الدفاع عن الدين. معظم الكتب تخبرنا **عن** الرؤى الكونية وتستعرضها واحدة واحدة، ولكن هذا الكتاب يعلمنا كيفية **ممارسة** الدفاع عن الدين» وذلك باستخدام عناصر من الرؤى الكونية لمجرد توضيح كل مرحلة.

• عقول متحررة

تعلم التفكير النقدي مهم، ليس فقط للحديث مع الناس الذين هم **غير مؤمنين** ولكن كذلك لتعليم **المؤمنين**، فهُم كثيرًا ما يتشربون أفكارًا من البيئة الثقافية المحيطة، ويحتاجون المساعدة لتحرير عقولهم من الافتراضات العلمانية.

في رواق إحدى الكليات المسيحية التي كنتُ أدَرِّس فيها لاحظت طالبًا يقرأ كتابًا عن فلسفة (ما بعد الحداثة) postmodernism فسألته: «ماذا تتعلم؟»

فقال لي: «الكتاب يتحدث عني! الآن فقط أفهم لماذا أنا أفكر هكذا»[٣٣] لقد تشرب عناصرَ من (ما بعد الحداثة) دون أن يعرف.

ذات مرة أرسلت لي امرأة رسالة إلكترونية تقول فيها إنها نشأت في بيت كانت من قواعده أن المسيحيين لا ينبغي أن يعرضوا أنفسهم لطرق تفكير غير تلك المستمدة من الكتاب المقدس،

«ولكن عندما قرأتُ كتابكِ الحقيقة الكاملة Total Truth اكتشفت أنني كنت قد تشربت دون أن أشعر أفكارًا من مفكرين علمانيين مثل روسو Rousseau وكانط Kant.» إنها لم تعرف أفكارهم من قبل قط ولذلك لم تكن لديها قدرة نقدية لتمييز تلك الأفكار ونقدها.

المغزى هنا أن المؤمنين لا ينبغي أن يتعاملوا مع تحليل الأصنام على أنه مقصور على دراسة كيف يفكر **الآخرون**. إن الدين لا يمنحنا رفاهية جعل أنفسنا بمنأى عن الآخرين. في الإنجيل اليوناني الأصلي[1] ليست هناك فواصل بين السور، ويبدأ الإصحاح الثاني مباشرة بعد الأول، وفيه يلتفت بولس إلى القارئ –الذي لديه وحي الله المكتوب– ويقول: «لِذلِكَ أَنْتَ بِلَا عُذْرٍ أَيُّهَا الإِنْسَانُ، كُلُّ مَنْ يَدِينُ. لأَنَّكَ فِي مَا تَدِينُ غَيْرَكَ تَحْكُمُ عَلَى نَفْسِكَ. لأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ تَفْعَلُ تِلْكَ الأُمُورَ بِعَيْنِهَا!» (سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ٢: ١)

طوال رسالة رومية ١ يبدو أن بولس كان يوجه تعاليمه إلى عبدة الأصنام الوثنيين، ولكن الآن يفاجئنا ويضع قراءه في مرتبة الوثنيين نفسها، بل إنه يكرر الجملة نفسها التي ذكرها في رسالة رومية ١: ٢٠ «أَنْتَ بِلَا عُذْرٍ».

بتلك الإشارة اللغوية جعل بولس كل الناس شركاء في تهمة إسكات الحق وخلق الآلهة المزيفة. إن المؤمنين ليسوا محصنين، والدين يتحدث إليهم في آيات مثل «اهْرُبُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ» (١ كورنثوس ١٠: ١٤) و«احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الأَصْنَامِ» (١ يوحنا ٥: ٢١). يجب أن نلتزم بالابتعاد عن الأصنام والتوجه إلى الله باعتباره المصدر الأول والآخر للحق في كل مناحي الحياة. وعندما قام بنصحهم قائلًا «وَلَا تُشَاكِلُوا هذَا الدَّهْرَ» بيّن لهم أن الحل هو أن «تَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ» (رسالة رومية ١٢: ٢).

---

(١) لا يعرف الكثيرون أنه لا يوجد إنجيل واحد بلغة المسيح عليه السلام الأصلية إلى اليوم (وهي اللغة الآرامية)، وإنما أقدم نسخ موجودة من الأناجيل الأربعة التي اختارها الرومان هي نسخ باللغة اليونانية وأحرقوا ما عداها من الأناجيل التي لا تتوافق مع التثليث وألوهية المسيح، أما النسخة الأم المعتمدة للترجمة عن اليونانية فهي ما يعرف اليوم بنسخة ويل غيت والتي قام بها القديس جيروم Jerome، بعد تجميعها وتنقيحها في القرن الرابع الميلادي بطلب من البابا داماسوس Pope Damasus I، وقد اعترف في رسالته إلى البابا باعترافات خطيرة ذكر فيها كمية الأخطاء والتغيير والتبديل التي في النسخ التي عمل عليها، ويمكن مطالعة الرسالة في المكتبة العامة الفرنسية (فرنسوا ميتران) تحت رقم: (C-244(1) T1 11.1-A). (المترجم)

إن الهدف الأكبر من تعلم استراتيجيات الدفاع عن الدين هو أن تحب الله «مِنْ كُلِّ فِكْرِكَ» (لوقا ١٠: ٢٧). سواءً أكنت مؤمنًا بالفعل أم بدأت في التعلم عن الله، فسوف تتفاجأ بالسعادة عندما تكتشف أن الحق في الدين أبلج ومتماسك بما يكفي لأن يوصف بأنه «سِرَاجٌ لِرِجْلِي ... وَنُورٌ لِسَبِيلِي.» (مزامير ١١٩: ١٠٥)، يضيء كل جزء من حياتنا.

فلنبدأ بشحذ مهارات التعرف على الأصنام في عصرنا: كيف نتعرف على الآلهة المزيفة؟ خصوصًا عندما تتخفى تحت شعارات العلمانية وتُدَرَّس في النظام التعليمي العلماني؟

***

القسم الثاني

- المبدأ الأول.
- المبدأ الثاني.
- المبدأ الثالث.
- المبدأ الرابع.
- المبدأ الخامس.

المبدأ الأول: أفول الآلهة

TWILIGHT OF THE GODS

لم يكن ديلن Dylan مثالاً نمطيًّا للشخص المثقف، فقد كان رياضيًّا في المرحلة الثانوية، وسواءً في كرة القدم أو كرة السلة أو سباق المضمار، أو أيّة رياضة أخرى، كان ديلن محطّ الأنظار. وقد حاز على جائزة اللاعب الأفضل Most Valuable Player كقائد لفريقه في كرة القدم، وتودّدت إليه أولى الكليّات. كان ذكيًّا واجتماعيًّا، وكان قائدًا بالفطرة.

وبعد ذلك في السنة النهائية من الثانوية، أخذت حياة ديلن منحى غير متوقّع. بدأت إنجازاته تبدو له فارغة، وتساءل إن كانت الحياة فيها أكثر من ذلك. واستمع من خلال مجموعة حياة شابة Young Life وكنيسة محلية إلى الإنجيل gospel وأصبح مسيحيًّا، وعلم فورًا أنّه يريد أن يعيش حياة مكرّسة كليًّا لله.

لكن عندما بدأ دراسته الجامعية في السنة التالية، وجد ديلن نفسه وسط معركة شرسة من الشكوك وخيبات الأمل.

كان المذهب الطبيعي الداروينيDarwinian naturalism [1] في حصص العلوم مفروضًا كمسلّمة اعتقادية dogma لا نقاش فيها، وفي حصص علم النفس أيّدت معظم النظريّات – من التحليل النفسي لفرويد إلى المذهب السلوكي behaviorism لدى سكينر – الآراء السلبية تجاه الدين. وفي حصة العلوم الإنسانية humanities، أخبره البروفيسور أنّ الدين كان مجرّد «اختيارٍ للقيم» – شيءٍ قد يكون ذا أهمية بالنسبة له شخصيًّا، ولكنّه لم يكن صحيحًا موضوعيًّا.

---

(١) القائل بأن الكائنات الحية نشأت وتنوعت من خلية واحدة منذ ملايين السنين دون تدخل إلهي أو خلق. (المترجم)

نجد هنا أن الكنيسة قد علّمت ديلن رسالة الإنجيل الأساسية، ولكنّها لم تزوّده بما ينفعه في مواجهة التحدّيات التي تعترضه الآن في صفّ الدراسة. لم تعلّمه كيف يكون من «هادمين ظنونًا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله» (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس، الإصحاح ١٠: الآية ٥).

انتسب ديلن إلى مجموعة جامعية إنجيلية، ولكن عندما طرح أسئلة هناك كان قول القادة بصورة أساسية: «لديك الكتاب المقدّس؛ لماذا لديك إذًا أيّة أسئلة؟» وحثوه على مضاعفة جهوده التعبّدية – صلّ أكثر، بشّر بالإنجيل أكثر، احفظ المزيد من الكتاب المقدّس. لكنّ ديلن كان ناشطًا بالأصل في البرنامج المكثف للتدريب على الطاعة الذي تقدّمه المجموعة، حتى إنّه يعيش ويعمل مع أفرادٍ آخرين من المجموعة. وعندما رفضت أسئلته أن تصمت، اتهمه قادة المجموعة بالغرور، والإفراط في التفكير، وأنّه مفرط في الثقافة.

يتذكّر ديلن لاحقًا بذهول قائلاً: «لأني كنت رياضيًّا طوال حياتي، فقد كانت تلك أوّل مرة يتهمني أحدهم بأنّي مثقف». مع إحباطه في العثور على إجابات، قرّر أخيرًا أنّ المسار الصادق فكريًّا هو البدء من جديد وإعادة التفكير في الدين من نقطة البداية. وبذلك توجه للنظر في الفلسفة وعلم اللاهوت والعلوم ونقد الكتاب المقدس biblical criticism.

سافر ديلن في منتصف حياته الجامعية إلى أوروبا لزيارة البلد الذي ولد فيه، وقرّر الذهاب برحلة جانبية إلى الملجأ L'Abri في سويسرا[1]. ثم تحوّلت «الرحلة الجانبية» إلى زيارة مطوّلة.

هناك -ولأوّل مرة- قابل ديلن أناسًا لا يخافون من طرح الأسئلة. استمع لحجّة في مصلحة الدين كانت مقنعة فكريًّا وصالحة عمليًّا. بعد قرابة سنة من الدراسة والنقاشات مع فرانسيس شيفر Francis Schaeffer وبقية أعضاء مؤسسة الملجأ، اقتنع أخيرًا بأنّ الرؤية الكونية الدينية تقدّم حقًّا إجابات ملائمة عن أسئلة الحياة.

---

(١) ترجمة الكلمة تعني «الملجأ» بالفرنسية، وهي منظمة مسيحية إنجيلية. (المترجم)

عوضًا عن موقف متهرّبٍ بتجنّب العالم بالانسحاب إلى أنشطة تعبّديّة محضة، وجد ديلن أنّ باستطاعته الآن التعامل مع العالم بثقة.

- **هل يهزم الإخلاص الشك؟**

يُخطئ الآباء أو المدرّسون أو الكنائس المسيحية خطًا جسيمًا عندما يصرفون النظر عن شكوك اليافعين وأسئلتهم، أو باعتقادهم إمكانية تخطّيها بمجرّد الانغماس بحياة أشدّ إخلاصًا. وذلك لأن الله قد وهبنا جميعًا عقلاً ودافعًا طبيعيًّا لإيجاد مغزى للحياة.

كانت تجربتي خلال المراهقة محبطة مثل حالة ديلن، فقد كان من المستحيل لديّ أن أجد شخصًا بالغًا في الكنيسة على استعدادٍ لتقبّل أسئلتي جديًّا. لم يساعدني شعري الطويل والأشقر الذي يشبه شعر أليس في بلاد العجائب، حيث أخذ الناس يسألونني دومًا ما إن كنت مشجِّعة cheerleader (أي الذين يلازمون الفرق الرياضية في المباريات لتشجيعهم بأداء حركات بهلوانية وهتافات ويكن غالبًا من الفتيات).

تؤدّي مثل هذه الصور النمطية إلى ضررٍ عظيم، فتسلب من اليافعين فرصهم للعثور على إجابات عن أسئلتهم. الرياضيّون والمُشجّعون لديهم فضول فكري بقدر أيّ شخص آخر، ويحتاجون للحقائق والأسباب المنطقية بالقدر نفسه، فجميع المؤمنين مدعوّون للتفكير لأن الله خلقنا كائنات منطقية وذات مسؤولية، فلدينا جميعًا فلسفة، وليست بالضرورة هي التي تعلمناها في الكتب الدراسية، بل رؤية عامة للحياة ونجد بواسطتها معنىً للعالم. تقتضي رؤية الكتاب المقدس للطبيعة البشرية أنّنا كما كتب ألبرت وولترز Albert Wolters «عاجزون عن تبنّي آراءٍ اعتباطية صرفة أو اتخاذ قراراتٍ لا أساس لها تمامًا، نحتاج لعقيدة نعيش وفقها، أو خريطة نرسم بها مسارنا»[1].

إن أخذنا رؤية الدين لحياة الإنسان على محمل الجد، فعلينا تقبّل الأسئلة بجدية.

• ترك المراهقين بضعفهم

تؤكّد الأبحاث الحديثة أهمية أسئلة المُراهقين، ففي دراسة اجتماعية سُئل مُراهقون لماذا يتركون الدين الذي نشؤوا عليه. توقّع الباحثون سماع إجاباتٍ عن قضايا عاطفية أو تخصّ العلاقات، لكنهم فوجئوا بأنّ الإجابة الأكثر تكرارًا كانت بأنّه كانت لدى المراهقين شكوكٌ وأسئلة لم يجب عنها. فقد أخبروا الباحثين، «لم يعد الأمر ذا معنى أبدًا»، و«بعض الأمور أبعد من أن أصدقها»، و «أفكّر بصورة علمية، ولا يوجد برهان حقيقي»، و«هنالك كثيرٌ من الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها»[٢].

توصّلت دراسة لبارنا Barna (هي مجموعة تهتم بجمع الآراء حول الإيمان وغيره لإجراء دراسات مجتمعية، مقرها الولايات المتحدة) لنتائج شبيهة، ففي دراستها بعنوان **«لقد ضيعتني: لماذا يترك المسيحيّون الصغار الكنيسة... ويعيدون التفكير في الإيمان»**، ذكر ديفيد كينامان David Kinnaman أنّ ٣٦ بالمئة من صغار البالغين شعروا بعدم قدرتهم على أن يطرحوا «أسئلة الحياة الأكثر إلحاحًا في الكنيسة»، وكنتيجة لذلك قال ٢٣ بالمئة إنّ لديهم «شكوكًا فكرية هامة حول التعاليم المسيحية»[٣].

يحتاج المراهقون في مجتمع اليوم التعدّدي والمتعدّد الثقافات أن يشقوا طريقهم عبر شبكة معقدة من آراءٍ متنافسة عن الرؤى الكونية. توصّلت دراسة إلى أنّ العمر الذي يترك فيه معظم الناس الكنيسة هو في فترة الدراسة الثانوية وسنوات الدراسة الجامعية[٤]. ورغم ذلك نادرًا ما تدرّس مجموعات الشباب علم الدفاع عن الدين apologetics، بينما يركزون عوضًا عن ذلك على الألعاب والأمور الجذابة. يبدو أنّ الهدف هو تصميم مناسبات تدعم الالتزام العاطفي، وكأنّ قوة التجربة الدينية ستعوّض عن الشكوك الفكرية. لكنّ العاطفة المفعمة ليست كافية لحجب أسئلة المراهقين. إن أدّت لنتيجة ما فهي إعادة تعريف الدين عندهم بمصطلحات عاطفية محضة – مما يتركهم أكثر ضعفًا عندما يواجهون أسئلتهم أخيرًا[٥].

إن كان طلابي مُمثّلين لهذه الحالة، فإن المُراهقين يعدّون التكتيكات العاطفية أسلوب تحكم على أيّة حال، فهم يعلمون أنّه من السهل إيجاد شعور مفتعل من الانتماء بواسطة الموسيقى الصاخبة، والعراك ببالونات الماء، وألعاب طبق فريسبي (هي إرسال طبق طائر بين اللاعبين كلعبة للاستجمام). لكنّهم يعلمون أيضًا أنّ تلك المشاعر سريعة الزوال، وكما أخبرني أحد الطلاب: «ما أسمعه في كنيستي هو غالبًا رسائل (للشعور بالرضا)، ولكنّني لا أريد أن أشعر بالرضا، بل أريد أن أصارع الأسئلة الصعبة».

لا عجب أنّ مجلّة *المسيحية اليوم Christianity today* أعلنت عن «عودة علم الدفاع عن الدين بين الشباب»[٦].

يحق للآباء القلق من خطر تعرّض أولادهم لآراء مخالفة للدين، ولكنْ هنالك أيضًا خطر في تنشئة الأطفال الذين يعتقدون أنّ السبيل الوحيد لاختبار عزيمتهم هو بالانفصال عن عائلتهم والدين. تبدو الرؤى الكونية المنافسة غالبًا أكثر جاذبية عندما تكتسب الجذب المتعلق بالمحظور. فالسبيل الوحيد حقًّا ليصبح المُراهقون «مستعدين دائمًا لمجاوبة كل من يسألكم» (رسالة بطرس الأولى، الإصحاح ٣: الآية ١٥) هو بالنضال فرديًّا ضدّ الأسئلة.

أصبح الخطر جليًّا لي عندما تحدثت مع أمّ مسيحية قالت: «كلّ الإجابات التي نحتاجها موجودة في الكتاب المقدّس، ولا ينبغي لنا أن نقرأ أيّ شيء آخر». وفي اللحظة التالية أفضت لي بأنّ ابنها غادر إلى الجامعة وهناك انضمّ سريعًا لمجموعة **إلحاد جديد New Atheist** ورفض بقوة نشأته المسيحية. اعتقدت تلك المرأة أنّها تحمي ابنها بتجنّب النقاشات حول الشكوك والصعوبات، لكنها عوضًا عن ذلك تركته بلا أي مقاومة. يحذّر بولس من أنّ المؤمنين قد « يطمع فيهم الشيطان» إن كانوا «جاهلين بأفكاره» (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس، الإصحاح ٢: الآية ١١).

الأفضل للبالغين استكشاف العالم المذهل من الأفكار مع آبائهم والمدرّسين ورجال الدين باعتبارهم مُرشدين يقدّمون لهم الأدوات للتفكير النقدي والتفكير الصحيح؛ وقد عبّر أحد طلابي عن ذلك بقوله: «تعريض العقل للأفكار يُماثل تعريض الجسد للجراثيم، هو السبيل لتكوين المناعة».

ما من عمرٍ يعدّ صغيرًا جدًّا للبدء. سأل ابن صديقٍ لي لديه من العمر ثماني سنوات أباه: «أبتِ، يؤمن الناس المتبعون للأديان الأخرى أنّهم على حقٍّ بخصوص آلهتهم، ونؤمن أنّنا محقّون حول ربّنا. كيف نعرف من هو محقّ حقًّا؟» حتى أسئلة الأطفال في الصف الثاني الابتدائي تحتاج للأخذ على محمل الجدّ.

• المبدأ الأول: تحديد الصنم

أين عسانا أن نبدأ؟ تبعًا لسفر رسالة رومية ١، من يرفض الخالق سيتخذ صنمًا. ويحكم على بعض القوى أو العناصر الملازمة للكون بالصفة المطلقة، ويرفعها إلى جوهرٍ معرِّف لكلّ شيء – أي أمر مطلق مزور[٧]. لذا عند تقويم رؤية كونية ما، تكمن الخطوة الأولى في تحديد صنمها idol. ما الذي تتخذه بديلاً عن الله؟

على الرغم من التنوّع الشاسع للأديان والفلسفات، إلا أنّها جميعًا تبدأ بوضع أحد المخلوقات في مكان الله، ففي كتاب **الثقافة وموت الإله Culture and the Death of God** وضع الناقد الأدبي تيري إيغلتون Terry Eagleton قائمة فيها أصنام عديدة من العصر الحديث: اتخذ أتباع المذهب العقلي في عصر التنوير enlightenment rationalists من العقل إلهًا؛ وألّه أتباع مذهب الرومانسية romanticism الخيال؛ واتخذ أتباع القومية nationalism الأمة مثالاً لهم؛ ويعرض الماركسيّون Marxists رؤية اقتصادية للخطيئة والخلاص salvation.

يختتم إيغلتون بالعبارة، «عدم الإيمان بالله هو قضية أشدّ إرهاقًا ممّا يمكن تخيّله على العموم». لا يمكن رفض الله دون وضع شيءٍ آخر في مكانه، وتاريخ الفلسفة يمثل بمجمله تاريخًا من اتخاذ بدائلَ عن الله[٨].

إنه تاريخ صنع الأصنام.

من أكثر سبل فهم التاريخ فاعلية إذًا هي تحديد الأصنام السائدة، فكما كتب تيموثي كيلر Timothy Keller، «كلّ شخصية، ومجتمع، وإطار تفكير، وثقافة إنسانية ستقام على مسألة أساسية معيّنة أو ولاء أساسي معيّن – إما الله أو بديل ما عن الله». لذلك «فالسبيل الأفضل لتحليل الثقافات هو بتحديد الأصنام التي تشرك بها»[٩].

أعطتنا النصوص في تعاليمها حول الأصنام المفتاح لفهم مغاليق التاريخ كله.

يدعوها حزقيال Ezekiel في العهد القديم بأصنام القلب (حزقيال، الإصحاح ١٤ الآية ٣). اليوم عندما نتحدث عن القلب، نعني بذلك المشاعر؛ ولكن في العبرية تعنى تلك الكلمة ذاتك الأعمق، ومتضمّنة المشيئة والعقل والصفة الأخلاقية والالتزام الروحي. «لأَنَّ الإِنْسَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْمَظْهَرِ الْخَارِجِيِّ وَأَمَّا الرَّبُّ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْقَلْبِ»[١] (صموئيل الأول، الإصحاح ١٦ : الآية ٧).

تعني الكلمة اليونانية للقلب (*kardia*)، في العهد الجديد، أيضًا مركز أو جوهر وجود المرء.[١٠] ولذلك فأصنام القلب هي القناعات التي تستحوذ علينا من أعماقنا وتحرّك سلوكنا.

غالبًا ما نقارن «المؤمنين» بـ«غير المؤمنين»، ولكنّ هذا قد يكون مُضلّلا، فالجميع يؤمن بشيءٍ ما، بمعنى أنّهم بالتأكيد يفترضون وجود مبدأ يتمتع بالصحة المطلقة. لا يميّز

---

(١) يقابله عندنا قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»، فأجسامنا وصورنا لا دخل لنا فيها، لكن قلوبنا هي محل الامتحان والطاعة والمعصية والإيمان والكفر، لذلك يقول الله تعالى عن يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ الشعراء: ٨٨ – ٨٩. (المترجم)

الملحدون غالبًا أنّهم في القافلة نفسها مع الآخرين. نجد في مواقع الويب الإلحادية مرددين مانترا mantra (في الهندوسية، المانترا هي تعويذة إما صوتية أو من كلمة أو من جملة تقرأ أو تغنى في الصلاة) على هذه الشاكلة: «الإلحاد ليس إيمانًا. الإلحاد مجرّد عدم الإيمان بالله أو الآلهة». لكنّ من المستحيل التفكير دون نقطة بداية ما. إن لم تبدأ بالله، عليك إذًا أن تبدأ من مكان آخر، فعليك أن تعرض شيئًا آخر على أنّه الحقيقة المطلقة والأبدية والأزلية هي سبب ومصدر كلّ شيء عداها. والسؤال الهام ليس أيّ نقاط البداية تتصف بأنها دينية أو علمانية، بل أيّ الادّعاءات تصمد أمام الاختبار.

تكمن الأفضلية في استعمال مصطلح «صنم *idol*» في كونه يسوّي أرض الملعب. يتّهم الملحدون عادة المؤمنين بأن عندهم «إيمانًا»، بينما يدّعون أنّهم يقيمون قناعاتهم على أساسٍ محضٍ من الحقائق والمنطق. والأمر ليس كذلك، لأنك عندما تعود مع أيّة مجموعة من الأفكار إلى جذورها بما يكفي، ستصل أخيرًا إلى نقطة البداية الأساسية – شيء ما يعدّ حقيقة لها وجود ذاتي ويعتمد عليها كلّ شيء. لا يمكن لهذا الافتراض الابتدائي أن يرتكز على تفكير مسبق، لأنّه إن وجد فقد تسأل أين يبدأ ذلك التفكير – وهكذا بارتداد لا متناهٍ (التسلسل). لأن على كلّ نظام تفكير عند نقطة ما أن يقول: هذه نقطة البداية عندي. لا يوجد سبب يفسّر وجودها، هي «موجودة» فقط.

إن كانت الافتراضات الابتدائية لا ترتكز على الأسباب، فكيف يمكن لها أن تُمتحَن؟ رغم عدم قدرتك على المناقشة رجوعًا إلى أسبابها المسبقة، إلا أنّك قادر على المناقشة إلى الأمام باستخراج مقتضياتها، ثم اختبار هذه المقتضيات بالمنطق والخبرة. وهذه هي الاستراتيجية التي سنتبعها في بقية كتابنا **البحث عن الحقيقة**. ستثبت فاعليتها على نحوٍ رائع وتثبت أنّ الدين يتفوق على جميع الرؤى الكونية المنافسة.

• دين دون الله

الفائدة الأخرى من استعمال مصطلح صنم هي أنّه يتجنّب نوعًا من الأسلوب الثقافي intellectualism الجاف، وكأن الناس يختارون فلسفة حياة بالأسلوب الذي يحلّون فيه أحجية منطقية. عندما يُلزِم الناس أنفسهم برؤية معيّنة للحقيقة، تصبح بذلك المفسِّر explainer المطلق لديهم. وتعمل على تفسير الكون لهم، وترشد قراراتهم الأخلاقية، وتعطي المغزى والهدف من الحياة، وجميع الوظائف الأخرى المرافقة عمومًا للدين.

يمكن أن نفكر بالفلسفات باعتبارها أديانًا علمانية. قد يبدو هذا تناقضًا ظاهريًّا oxymoron ولكنّه يصبح منطقيًّا عندما نعلم المعنى العام لمصطلح **الدين religion**. ما هي الصفة المشتركة في جميع الأديان؟ إنها ليست ما قد تتوقعه.

هل على الدين أن يؤكّد وجود إله أو خالق له ذات شخصية؟ سيجيب معظم الغربيين بنعم. جادلني مرّة صديق ملحد على صفحتي على فيسبوك، «الدين هو إيمان بالألوهية. ودون ألوهية لا يوجد دين». إلا أنّ كثيرًا من المعتقدات التي نصنّفها كأديان لا تحدّد الألوهية بكائن على الإطلاق. في الأديان المعتقدة بوحدة الوجود (الحلولية pantheism)، مثل الهندوسية Hinduism، مفهوم الألوهية ليس كائنًا له ذات شخصية بل الألوهية مادة أو جوهر روحي لا ذات له ولا إدراك – يماثل الطاقة أو الكهرباء أو القوة التي عرضت في أفلام حرب النجوم *Star Wars*.

تتضمن وحدة الوجود في أشكالها الشائعة غالبًا عبادة آلهة وإلاهات goddesses محليّة؛ لكنّ ما لا يفهمه الغربيّون غالبًا أنّ هذه الآلهة المحليّة لا تحدد الحقيقة الجوهرية. هي مجرّد كائنات يتكثف أو يتركّز فيها بشدة عالية الجوهر الإلهي المشترك بين جميع البشر.

تذهب البوذية Buddhism إلى أبعد من ذلك، فتشير إلى الألوهية بمصطلحات مثل **الفراغ the Void** أو **العدم Nothingness**. لهذا السبب رغم غرابة ما قد يبدو عليه الاسم تدعى البوذية أحيانًا بالدين الإلحادي atheistic religion. كذلك هي الطاوية

Taoism والكونفوشية Confucianism. وكما فسّر ذلك أحد الفلاسفة، فإن مؤسسي هذه الديانات «هم أنفسهم ليسوا آلهة؛ لا يحسبون على أيّ آلهة، أو وحي، أو خالق ذي ذات شخصية أو متعال من أيّ نوع»[١١].

• دين دون أخلاق

إن كان الإله الشخصي ليس مطلوبًا ليُؤهل مذهبًا ما كدين، فماذا عن الأخلاق هل تلزم لتعريف ماهية الدين؟ الجواب أيضًا؛ لا. فكثيرٌ من الأديان الشرقية هي أديان لا أخلاقية *a*moral. فهي تعلّم أنّ كلّ شيء يجب قبوله باعتباره جزءًا من الواحد، أو الكل – الين yin واليانغ yang كلاهما، وكلٌّ من الخير والشر. الهدف هو التوازن أو اتحاد الأضداد. لا تهدف الشعائر المرافقة لهذه الأديان لتحقيق القداسة holiness بل التنوير enlightenment: أي إدراك أنّ كلّ شيء يتساوى بكونه جزءًا من **الكل**.

عندما كنت طالبة جامعية أثناء السبعينيّات ذات الطابع الثقافي المضاد countercultural، تأثرت جدًّا برواية هيرمان هيسي Hermann Hesse **سيدهارتا Siddhartha**، والتي تتحدث عن ابن أحد البراهمة Brahmin الذي اتخذ رحلة بحثية عن الحكمة الروحية، وقد تعلّمَ في النهاية أنّ «كلّ شيء موجود هو خير – الموت مثل الحياة، والخطيئة مثل القداسة، والحكمة مثل الحماقة»[١٢]. تعلّم الحلولية pantheism أنّه من الخطأ أن نضع أي فوارق أخلاقية، فكلّ شيء يندمج في **الواحد**؛ لكنّ النتيجة النهائية هي أنّك لا تستطيع التمييز بين الخير والشر – ويعني ذلك أنّه لا يوجد لديك أساس لمحاربة الشر[١٣].

يتم تعزيز فكرة الحلولية ذاتها اليوم في أفلام سينمائية مثل **أفاتار Avatar**. على الكوكب الخرافي المدعو باندورا Pandora. حيث تتصل فيه جميع الفلورا flora (الحياة النباتية) والفونا fauna (الحيوانات) معًا بشبكة عصبية واسعة تعمل كنوعٍ من اللاوعي الجمعي،

يتجسّد في إلاهة تشبه غايا[1] Gaia تسمّى إيوا Eywa. والشيء المهم أنّ إيوا توصف بأنّها تتجاوز الخير والشر. يقول أحد السكان المحليين للكوكب، «لا تأخذ أمّنا العظيمة أيّ جانب، فهي تحافظ فقط على توازن الحياة».

ماذا عن الأديان الوثنية pagan أو المتعددة الآلهة polytheistic؟ هي أيضًا أديان لا أخلاقية نمطيًّا. قد تطالب الأديان المتعدّدة الآلهة بشعائر لاسترضاء الآلهة ولضمان التمتع بصحة جيّدة ومحاصيل جيّدة، لكنّها لا تشير غالبًا إلى شيء عن الأخلاق. اكتشفت عالمة الأنثروبولوجيا ماري دوغلاس Mary Douglas في بحثها أنّ ما من «علاقة متأصلة بين الدين والأخلاق: يوجد قوم بدائيون قد يكونون متديّنين دون أن يكونوا أخلاقيين، وأخلاقيّين دون أن يكونوا متديّنين»[14].

في الواقع تعدّ الآلهة الوثنية غالبًا غير ملتزمة بالأخلاق *im*moral مطلقًا. كانت الآلهة اليونانية والرومانية ميّالة للطمع والفسق والتخاصم والغيرة والخداع. اشتكى الفيلسوف زينوفان Xenophanes من أنّ «هوميروس Homer وهيسيود Hesiod نسبا للآلهة جميع [الأفعال] التي يعدّها الناس قبيحة ومخزية: السرقة وارتكاب الفاحشة وخداع الآخرين»[2]. كرّر أوغسطين Augustine النقد ذاته للآلهة الوثنية: «تكمن عادتهم في كونهم محرِّضين وموجِّهين في الرذيلة وليس النقمة عليها»[15].

---

(١) شخصية خيالية تعد الإلاهة الأم للأرض. (المترجم)

(٢) هنا ملحظ هام وهو أن يد البشر المتدخلة بالتحريف في أي رسالة إلهية يجب أن تضع بصمتها فيها وتحدث عملية إسقاط للصفات البشرية الباطلة عليها، ففي المسيحية نجد أوصافًا تنتقص من الإله عز وجل مثل وصفه بالندم والجهل في العهد القديم، بل وبالصراع مع أحد أنبيائه وهو يعقوب عليه السلام، وفي العهد الجديد نجد التثليث وادعاء البنوة وادعاء الولادة وادعاء الضرب والتعذيب على أيدي البشر ثم الصلب كالمجرمين، بل وحتى الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لم يسلموا من تحريف المبطلين ليهدموا كونهم قدوة وخيرة البشر من الله للناس، فادعوا لنوح شرب الخمر حتى الثمالة فيتعرى ويرى أبناؤه عورته، وادعوا زنى ابنتي لوط معه عندما مات الرجال بعذاب الله، وادعوا غش يعقوب لأبيه إسحاق ليأخذ بركة النبوة من أخيه الأكبر البكر، وادعوا رؤية داود عليه السلام لزوجة قائده وهي تستحم فأرسل زوجها للمعركة ليزني بها، وغير ذلك الكثير الذي يتبين للناظر فيه الفارق الشاسع بين الإسلام وغيره من الأديان، حيث يتصف فيه الله سبحانه بصفات الكمال ويتصدر رسله وأنبياؤه قمة الخيرية والصلاح بين البشر. (المترجم)

تفرض حتّى بعض الأديان على عبّادها الاشتراك في شعائر لا أخلاقية، مثل دعارة المعبد temple prostitution أو التضحية بالأطفال. في قرطاج Carthage القديمة، ضحّى الآباء بأطفالهم كقرابين حرقت للآلهة. اكتشف علماء الآثار قبورًا تحوي العظام الصغيرة المتفحّمة للأطفال الرضّع المُحرقين تحت شاهدة الضريح وعليها نقوش تشكر الآلهة أنّها «سمعت صوتي وباركتني»[١٦].

هل تشتمل إذًا جميع أنواع اللاهوت theologies على الأقل نمطًا ما من شعائر العبادة؟ الجواب مرة أخرى؛ لا. فقد عَلَّم الأبيقوريّون Epicureans في اليونان القديمة أنّ الآلهة موجودة ولكن لا تهتم بشؤون البشر، ولا تهتم إن خشيها الناس أو عبدوها. تصوّر أرسطو Aristotle المحرك أو السبب الأول Prime Mover أنّه عقلٌ مثالي وغير قابل للتبدّل، فيفكّر فقط فيما هو مثالي وغير قابل للتبدّل – أي ذاته الخاصة. فهو لا يعلم ولا يهتم بما يقوم به البشر. تتضمن الأديان الأخرى التي لا تمارس العبادة البراهمية الهندوسية Brahmin Hinduism والتيرافادا البوذية Theravada Buddhism.

• البحث عن الإله

فهل توجد أيّ صفات مشتركة بين جميع الأديان؟ من المفاجئ أنّه توجد ميزة واحدة فقط. يقول كلوزر Clouser، اعتمادًا على نتائج البحث التجريبي، إنّ الصفة الوحيدة المشتركة بين جميع الأديان أنّها تقرّ بشيء ما إلهي divine – تستعمل هذه الكلمة ليقصد بها الحقيقة الموجودة بذاتها، والسرمدية، التي هي أصل كلّ شيء آخر. من الواضح أنّ هذه الأديان لا تتفق على **ما الذي** يصلح أن يكون إلهيًّا؛ بل تتفق فقط على أنّ **شيئًا ما** يتصف بأنه إلهي. لا يوجد عوامل أخرى شاملة حقًّا بين الأديان[١٧].

ونتيجة لما سبق فالأديان أشبه بأن تكون فلسفات على خلاف ما يعتقده معظم الناس، والفلسفات تشبه الأديان كثيرًا. يبدأ كلاهما بنيويًّا بمجموعة من الافتراضات عمّا هو في النهاية حقيقي أو إلهي.

عليك أن تفكّر بما هو إلهي على أنّه الأبعد بالرجوع للوراء، ما بعد أو وراء كلّ شيء آخر. مثلاً في الأديان الشركية المؤمنة بتعدّد الآلهة polytheism لا تكون الآلهة أو الإلاهات الشخصية هي الحقيقة الجوهرية لأنّها مشتقة من جوهر أصلي سابق الوجود – وذلك الجوهر هو ما يعدّ حقًّا إلهيًّا (حتّى وإن لم يستخدم المصطلح).

على سبيل المثال في الأساطير اليونانية القديمة من أين جاءت الآلهة؟ تبعًا لسير القصة الأساسي بدأ الكون كجوهر أوّلي إلهي يسمّى **الفوضى** chaos – فراغ غير محدّد وغير مقيّد. ونشأت الآلهة الأولى من هذه الحالة الابتدائية. إلاهة الأرض (غايا Gaia) تزوجت من إله السماء (أورانوس Uranus) وأعطيا العمالقة Titans، ومن زواج عملاقين جاءت آلهة جبل أوليمبوس Olympus – زيوس Zeus، وأبولو Apollo وأثينا Athena وبوسيدون Poseidon وكل البقية[١٨].

من الهام اليوم للمؤمنين أن يفهموا الوثنية paganism، وليس ذلك لأسباب تاريخية فقط. فالوثنية آخذة في النمو مرة أخرى في الأمم الغربية: الوايكا Wicca والدرودية Druidism والشامانية Shamanism والأديان الأمريكية الأصلية. في أيسلندا التي تحوّلت إلى المسيحية في القرن الحادي عشر، أصبحت «الوثنية الجرمانية الجديدة Heathenry» مرة أخرى دينًا معترفًا به وطنيًّا. وفي بريطانيا تدرّس بعض المدارس العامة الآن الوثنية paganism في حلقاتها التعليمية الدينية، وتتضمن «الشعوذة witchcraft والدرودية وعبادة الآلهة القديمة مثل ثور Thor .»[١٩] قبل بضعة أسابيع أثناء كتابتي لهذا الكتاب تواصلت معي إحدى الأمهات وهي بحالة يأس شديد تريد أن تتعلم كيف تحاور ابنها الذي انضمّ لمجموعة وايكا.

تتضمن معظم الأشكال الوثنية paganism التي أحييت من جديد شكلاً ما من الحلولية pantheism بالإضافة إلى تعدّد الآلهة polytheism، وتعّد الآلهة فيها مظاهرَ أو انبعاثات لروح أرضية كلية. راجع صفحة ويب نمطية عن دين الوايكا مثلاً وستقرأ

نصوصًا مثل هذا: «تتجلى الألوهية بنفسها عبر جميع الكائنات الحية. الطبيعة بحدّ ذاتها إلهية»[٢٠]. فالصنم في الوثنية paganism هو الطبيعة ذاتها، أو جوهر روحي يربط كامل الطبيعة بعضها ببعض.

• الفلاسفة وآلهتهم

تحديد الصنم يؤدي بنا إلى لبّ أيّ دين سواء كان قديمًا أو حديثًا، كما أنّه يخرق إلى قلب أيّ فلسفة. تجاهل الفلاسفة الأوائل في الغرب قبل سقراط pre-Socratics، آلهة أولمبوس واتجهوا رجوعًا نحو الجوهر الأولي الأصلي – والذي سمّوه ***arché***، أي المصدر أو السبب الأول. عرفت في ذلك الوقت أربعة عناصر (الماء والنار والهواء والأرض)، واختار كثير من الفلاسفة الأوائل أحد هذه العناصر باعتباره الأكثر أساسية، واختزلوا كلّ شيء آخر إلى ذلك العنصر المفرد للوصول إلى وحدة أساسية.

لاحظ طاليس Thales أنّ جميع الكائنات الحية تحتاج للماء، وافترض أنّ المبدأ الأساسي الأول، أي المصدر ***arché***، كان الماء. ولاحظ هرقليطس Heraclitus أنّ جميع الكائنات الحية تولّد الحرارة وافترض أنّ المصدر ***arché***، كان النار. بينما لدى أنكسيمانس Anaximenes، كان الجوهر الإلهي هو الهواء: «الهواء هو الإله». تجاوز الآخرون تلك العناصر الأربعة، فقد اكتشف فيثاغورس Pythagoras أنّ النظام في الطبيعة يمكن تمثيله بالهندسة والرياضيات، واستنتج أنّ المصدر ***arché*** كان رقمًا: «الإله رقم؛ الرقم هو الإله»[٢١].

هل يناسب المفهوم اليوناني للمصدر ***arché*** تعريف الدين للصنم؟ بكلّ وضوح، فبينما تؤكّد النصوص على أنّ «به يدوم كلّ شيء» أي الإله (كولوسي، الإصحاح الأول: الآية ١٧)، سعى الفلاسفة الأوائل لتحديد وجود أساسي ضمن الكون يقدم وحدةً ضمنية – يمثل لديهم التفسير النهائي. فرغم رفضهم لآلهة أولمبوس، إلا أنّ فلاسفة عصر ما قبل سقراط احتفظوا بمفهوم الألوهية.

أكثر الفلاسفة اليونانيين شهرة هما أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle. اعتقدا أنّ مبدأ الصياغة النهائي ضمن الكون كان ما سمّياه المثل العقلية rational forms. يمكنك تخيّل المثل على أنّها مفاهيم مجرّدة تسمح بتصنيف العالم. فنجد أنه رغم التنوّع الشاسع بين الكلاب المنزلية، ابتداءً من كلب غريت داين Great Dane الضخم إلى كلب تشي واوا Chihuahua الضئيل الحجم، لكنّنا نميّز انتماءها إلى الفئة نفسها فهي تناسب المفهوم المجرّد «كلب».

درّس أفلاطون أنّ المثل موجودة في مجالٍ مثالي منفصل عن المادة، بينما ناقش أرسطو بأنّها ملازمة للمادة. إلا أنّ كليهما قد تصور أن المثل سرمدية، وغير مخلوقة، وغير قابلة للتبدّل، وكلية، وموجودة ذاتيًا. فهل هذا ادّعاء بالألوهية؟ بالتأكيد إنه كذلك. لقد جلبت المثل لتفسّر طبيعة الأشياء – لماذا الأشياء هي ما عليه. الطبيعة البشرية هي المثال المشترك بين جميع البشر، وهي ما تجعلهم بشرًا. العدل هو المثال المشترك بين جميع الأفعال العادلة، وهو ما يجعلها عادلة[٢٢]. فالمثل هي المُفسّر النهائي.

بل إن كلا الفيلسوفين قد استخدم لغة الألوهية. قال أرسطو عندما تحدّث عن مجال المثل، «هنا بالتأكيد توجد الألوهية، ويفترض أنّها هي المبدأ الأول والأعلى [المصدر *arché*]». بينما لدى أفلاطون فالمثال الأسمى هو مثال الخير form of the good؛ ويرى أن الخير يتضمّن «هداية وتحوّلاً للروح» من الظلام إلى النور، فالفيلسوف الحقيقي هو الشخص الذي يتفكّر في هذا «النظام الإلهي»[٢٣].

نتعلّم في سفر رسالة رومية ١ أنّ الأصنام ناتجة عن تأليه شيء يوجد في نظام الكون، وينطبق الوصف بالتأكيد على المثل. هي لا توصف بالذات الشخصية، ورغم تجاوزها العالم المادي، إلا أنّها لا تتجاوز النظام الكوني ككل. كما شرح أحد علماء اللاهوت بقوله، «مثال الخير عند أفلاطون ليس إلهيًا» وفق المفهوم الديني؛ إلا «أنّه إلهي لأنّه الكائن الأسمى في الكون». بل إنَّ أرسطو عرّف الإله بأنّه المثال الصرف، ما يعني أنّه (شخص أو شيء) بمثابة قطب واحد في جدلية المثال/ المادة التي تؤلّف الكون[٢٤].

• كنيسة الفيزياء: صنم المادة

ماذا عن الفلسفات المُعاصرة؟ هل تعتبر أصنامًا أيضًا؟ الرؤية السائدة بين الملحدين الجدد New Atheists، بالإضافة إلى معظم العالم الأكاديمي، هي الماديّة العلمية scientific materialism. فالحقيقي بالنهاية هو المادة – الجزيئات المتحرّكة. تلتزم المادية بالمُسلّمة الاعتقادية dogma القائلة بأنّ الفيزياء تفسّر كل الكيمياء، وتفسّر الكيمياء كل البيولوجيا، وتفسّر البيولوجيا العقل البشري، ولا يبقى شيء آخر لنفسره. وهكذا تفسّر الفيزياء بمفردها العقل البشري، فالفيزياء هي المفسّر النهائي.

لا عجب في أنّ هذه الرؤية تسمّى أحيانًا مذهب الفيزيائية physicalism. من المتحدّثين البارزين الباحث في البيولوجيا إدوارد أوسبورن ويلسون E. O. Wilson من هارفارد، الذي يصرّ على أنّ جميع الظواهر، «من مولد النجوم إلى أعمال المؤسسات الاجتماعية مبنيّة على عمليات مادية قابلة للاختزال بالنهاية... إلى قوانين الفيزياء». يعرّف الباحث في البيولوجيا جيري كوين Jerry Coyne مذهب الفيزيائية physicalism بأنّها «الرؤية القائلة بأنّ جميع العلوم أساسًا تقبل الاختزال إلى قوانين الفيزياء». ويقول إنّ هذه الرؤية «يجب أن تكون صحيحة إلا إن كنت شخصًا متديّنًا»[٢٥].

لكن هل هذه الرؤية دينية بحدّ ذاتها؟ هل هي ادّعاء للألوهية؟ من دون شكّ إنها كذلك.

يقرّ بعض الماديين بالادعاء إلى هذه الدرجة، يقول جون سورل John Searle، «هنالك شعور بأنَّ الماديّة materialism هي دين هذا الزمن». وكان صحفي علمي يكتب في مجلّة ذا سيانتست The Scientist صريحًا حول ذلك تمامًا، فذكر في مقالة عن أصل الحياة، «أومن بأنّ تفسيرًا ماديًّا ما سيعثر عليه، لكنّ هذه الثقة نابعة من إيماني بأنّ العلم بصدد مهمّة تفسير كامل تاريخ الحياة بمفاهيمَ مادية أو طبيعية محضة». ويختتم قائلاً: «إيماني راسخ الأساس، ولكنّه يبقى مجرد إيمان».

نكشف العقيدة المادية بوضوح تام عند الفيلسوف المتأخر دالاس ويلارد Dallas Willard إذ يقول: «هنالك حقيقة واحدة، هي العالم الطبيعي، والفيزياء هي رسوله»[٢٦].

إن التعبير الكلاسيكي اليوم عن هذا المذهب نجده في المسلسل التلفازي **الكون Cosmos**. افتتح المسلسل بترتيل شعائري من كارل ساغان Carl Sagan، «الكون هو كلّ ما هنالك، أو ما كان، أو ما سيكون». عندما أعيد إطلاق المسلسل عام ٢٠١٤ مع الدكتور نيل ديغراس تايسون Dr. Neil deGrasse Tyson كمضيف جديد، أنشأ الجمهور صفحة فيسبوك للترويج لما يسمّونه «مذهب التايسونية Tysonism»، والمعرّفة بأنّها «دين علماني يرتكز على فلسفة عالِم الفيزياء الفلكية الدكتور نيل ديغراس تايسون». وقد وضعت الصفحة ضمن تصنيف «منظمة كنسية/ دينية»[٢٧].

كما رأينا سابقًا، تعدّ المادية materialism حقًّا شبكة أو عائلة من الفلسفات المترابطة. يمكن القول إنّها دين فيه عدة طوائف. فعند تطبيقها مثلاً على المجال الاقتصادي، ينشأ عن الماديّة نظريّات مثل الماركسية Marxism، فما هي الخطوات المنطقية التي تؤدّي من الماديّة إلى الماركسيّة، مع حتميّتها الاقتصادية؟ تذكر أنّ الطبيعة البشرية معرّفة دائمًا بعلاقتها مع الحقيقة المطلقة. إن كان المطلق هو المادة، فسيُعرَّف البشر وفق علاقتهم بالمادة. وكيف تكون **علاقة** الناس بالمادة؟ يصنعون أشياءَ منها. يصوغونها ويتحكمون بها ليصنعوا المواد التي يحتاجونها للبقاء – الملابس والمنازل والطاولات والسيارات.

تسمّى الأدوات التي نستعملها لتشكيل المادة في الماركسية «وسائل الإنتاج the means of production». لذا يرتبط تاريخ الحضارات بمن يملك وسائل الإنتاج. تحافظ طبقة الملكية الخاصة ownership على سيطرتها وتحمي مصالحها بتشكيل بقية المجتمع وفقًا لمصالحها – القوانين، والسياسة، والأخلاق، والدين، وهلم جرًّا. بهذا الأسلوب تحدّد العلاقات الاقتصادية كلّ شيء آخر في المجتمع. فالشروط الاقتصادية في الماركسية هي المفسّر النهائي[٢٨].

• هيوم في مواجهة الكلينجونز: صنم الحواس

من الأصنام المتبعة الأخرى اليوم مذهب التجريبية الإمبريقية empiricism، وهي الادّعاء بأنّ شكل المعرفة الصحيح الوحيد يتألف من الحقائق المؤكّدة تجريبيًّا. قد لا تقابل كثيرًا من الناس الذين يقولون، «مرحبًا، أنا أومن بالتجريبية». لكن بين الذين مروّا في النظام التعليمي العام، يتبع كثير منهم التجريبية empiricism كافتراض مسبق غير مختبر.

يفترضون أنّ ما يمكننا الاعتماد عليه هو الحقائق التجريبية – ما يمكننا رؤيته، والشعور به، ووزنه، وقياسه. ويُقصون كلّ شيء آخر إلى مجال الرأي أو التفضيل الشخصي. لكن لا يمكن في نهاية المطاف حشر المفاهيم الأخلاقية واللاهوتية في أنبوب اختبار أو أن تُدرس تحت المجهر، ولذلك لا تعدُّ تلك المفاهيم حقائقَ لدى التجريبية على الإطلاق، لكنها مجرّد قيمٍ وتفضيلات فردية.

كان الفيلسوف ديفيد هيوم David Hume في القرن الثامن عشر **الطفل الشقي** *enfant terrible* في التجريبية، وصرّح بأنّ الكتاب إن احتوى أيّ شيء خارج العلم التجريبي، فمن الواجب حرقه. وكتب قائلاً: تفحّص كلّ كتاب على رفّ المكتبة، فإن تناول موضوعات مثل ما وراء الطبيعة (الميتافيزقا metaphysics) أو نظرية الأخلاق moral theory، عندها «فألقه في ألسنة اللهب! لأنّه لا يمكن أن يحوي إلا سفسطة sophistry ووهمًا»[٢٩].

هل هذا صنم آخر؟ بالتأكيد إنه كذلك. تتخذ التجريبية empiricism صنمًا من المجال الحسّي، فكلّ ما لا يخضع للاختبار التجريبي ليس حقيقيًّا. هيوم ليس اسمًا اعتياديًّا، بل من النخبة الفكرية اليوم، وهو واسع التأثير. أجري استقصاء عن الفلاسفة قبل بضع سنوات في أبرز الجامعات، وكان السؤال أيّ الفلاسفة ممن ليسوا على قيد الحياة تنتمون إليه، وكان الرابح بلا منازع هو ديفيد هيوم[٣٠].

وتنبع الفلاسفة أيضًا من الفصول الدراسية متجهة نحو الثقافة العامة. في حلقة من مسلسل **ستار تريك: الجيل التالي Star Trek: The Next Generation**، تركّز الحبكة على إذا ما كانت الشخصية التي تحمل اسم كاليس Kahless هو المسيح المخلص الكلينغون (الكلينغونز هم محاربون فضائيون في مسلسل ستار تريك) الذي عاد من الموت لتحقيق النبوءة. وكان على ضابط أمن المركبة الفضائية **إنتربرايس *enterprise*** المُلازم وورف Lieutenant Worf الذي كان من الكلينغون أن يقرّر إن كان المسيح العائد للحياة حقيقيًّا. فيسأل الرجل الآلي داتا Data عن الدليل التجريبي الداعم لادعاءات المسيح المخلص.

ويجيبه وورف على ذلك: «هي ليست مسألة تجريبية، هي مسألة إيمان».

يجيب الرجل الآلي داتا: «إيمان، إذًا تعتقد أنّ كاليس قد يملك صفات خارقة للطبيعة supernatural. باعتباري رجلاً آليًّا، لا أستطيع قبول ما لا يمكن إثباته بالوسائل المنطقية».

فما هي الافتراضات المطروحة في هذا الحوار؟ أنّ الادعاءات عن الأمور الخارقة للطبيعة «لا يمكن إثباتها بالوسائل العقلانية". أنّ «مسألة الإيمان» لا يمكن دعمها بالدليل التجريبي[٣١].

بعكس ذلك إن سألت المسيحيين عن الدليل التجريبي عن كون عيسى هو المسيح المخلص، ربّما سيقدّمون أدلة تاريخية على قيامته من الموت[١]، وأدلة واقعية على ادعاءات

---

(١) تعد من أهم الفوارق بين المسيحية والإسلام هي مسألة صلب وموت المسيح عليه السلام، حيث يؤمن المسلمون أنه لم يتم صلبه ولا قتله وإنما ألقى الله شبهه على غيره، يقول عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ النساء: ١٥٧ ، وهو ما ذكرته بالفعل نسخ منسوبة لأناجيل أخرى لا تعترف بها الكنائس مثل إنجيل برنابا وإنجيل يهوذا المكتشفة مخطوطاتهما حديثاً، في حين يدعي المسيحيون أنه تم صلبه وتعذيبه وإهانته حتى الموت ثم عاد من الموت في اليوم الثالث، وتواجه هذه القصة انتقادات كثيرة=

العهد الجديد، وأدلة من المخطوطات لاعتمادية نص الكتاب المقدّس، وأدلة أثرية على أحداث وردت في الكتاب المقدس، وهلم جرًّا. تقوم الرسالة المسيحية على أحداث يمكن «رؤيتها... سماعها... لمسها»[1] (١ يوحنّا، الإصحاح ١: الآية ١).

إلا أنّ كاتبي سيناريو مسلسل ستار تريك قد اعتمدوا انحيازًا شائعًا – وهو أنّ أيّ عبارة عن أمر خارق للطبيعة هي بالتعريف «لا عقلانية». ستجد الانحياز نفسه معروضًا في قسم التعليقات تحت أيّ مقالة على الإنترنت عمليًّا تتحدث عن الدين. مهما كان الدليل قويًّا، أيّ ادعاء بوجود شيء لا يمكن معرفته بالعلم التجريبي يهاجَم باعتباره «لا عقلانيًّا».

لكنّ تعريف ما هو عقلاني حصريًّا بما يناسب معتقدات رؤيتك الكونية الخاصة يعدّ حركة باطلة لأنّها تستثني جميع ادعاءات الحقيقة الأخرى وفقًا لتعريفك لما هي الحقيقة. لدرجة أنه لا يلزمك حتى استقصاء الدليل. إن البحث الجاد عن الحقيقة لا يبدأ بالغش بأوراق اللعب.

منها ما هو من داخل الأناجيل الأربعة أنفسها والتناقض بينها في رواية تلك الأحداث (تحديدًا قيامته بعد ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ)، ومنها ما هو ثابت تاريخيّاً من تنازع أكثر من فرقة ورأي في القرن الأول الميلادي حول ماهية المسيح نفسه وكيف مات أو رفع (يمكن للاستزادة قراءة كتاب الشيخ أحمد ديدات رحمه الله: مَن دحرج الحجر). (المترجم)

(١) وردت في العهد القديم أحداث معروفة تاريخيّاً بالفعل سواء كانت حروباً أو احتلالاً أو هجرة، لكن يحوم الشك حول تحريف بعض التفاصيل المتعلقة بها، وكذلك ورد في العهد الجديد (أو الأناجيل وأعمال الرسل) بعض الأحداث التاريخية المعروفة مثل الإحصاء الروماني للسكان وبعض الأحداث الفلكية، لكن يحوم الشك حول تحريف بعض التفاصيل كذلك، وقد حاول بعض الملحدين والمشككين استغلال بعض الأخطاء للطعن في وجود المسيح نفسه عليه السلام، فلما وجدوا أن محاولاتهم أثمرت إلى حد ما وسط الأوساط غير المتخصصة، حاولوا عمل الشيء نفسه مع الإسلام، فتارة زعموا أن الإسلام لم يظهر إلا في الدولة الأموية، وتارة زعموا أن الإسلام لم يكن بمكة (أو عدم وجود مكة كما نعرفها اليوم في هذا المكان) بل واستخفوا بالناس أبعد من ذلك ليحاولوا الطعن في وجود النبي محمد نفسه صلى الله عليه وسلم، رغم عشرات الوقائع التاريخية المسجلة لدى العرب وغيرهم من اليونان والرومان والفرس من حروب وغزوات ورسائل النبي إلى الملوك ثم التاريخ التفصيلي لحياته وحياة صحابته في البلاد والأمصار التي عاشوا بها. (المترجم)

• داخل المصفوفة

تبدو التجريبية empiricism حتى الآن كسبيل آخر نحو المادية materialism، وهي كذلك على الأغلب تمامًا. لأنه إن كان ما هو حقيقي محددًا بشرط ما يمكن معرفته بالحواس الخمس، فيبدو أنّ الحقيقة محصورة فقط في العالم المادي. لكن إن تبعنا التجريبية نحو نتيجتها المنطقية، فستتخذ منعطفًا داخليًّا مفاجئًا نحو العقل. فهي تشير لنزعة هامة في الفكر الغربي من المادية إلى مذهب الذهنية mentalism – من المادة باعتبارها الحقيقة الأساسية إلى العقل باعتباره الحقيقة الأساسية.

فكّر في الأمر كما يلي: تقول التجريبية empiricism إنّ المصدر الوحيد للمعرفة الأصيلة هو انطباعات الحس – المشاهد والأصوات. لكن كيف لنا أن نعلم إن كانت انطباعاتنا الحسية حقيقية ودقيقة؟ نعلم بنهاية المطاف أنّ حواسنا يمكن أن تخدعنا. كلّ منا قد تعرّض للخدع البصرية. ضع ملعقة في كأس ماء **وستبدو** يد الملعقة منحنية بالتأكيد. كيف يمكننا اختبار تجاربنا الحسية؟

الجواب بالنسبة للتجريبي الصارم strict empiricist أنه **لا يمكننا** اختبارها. من المستحيل الوقوف خارج رأسي لمقارنة صوري الداخلية مع العالم الخارجي لرؤية إن كانت مطابقة له.[٣٢] كيف يمكنني عندها أن أثق بأنّ حواسي تخبرني الحقيقة؟

سرعان ما لاحظ فلاسفة التجريبية أنفسهم المشكلة، فقد توصّل جون ستيوارت مل John Stuart Mill في القرن التاسع عشر إلى أنّنا لا نعلم شيئًا عن العالم الخارجي في الواقع. إن تفحّصنا طاولة، فقد نرى أنّها بنية، ونشعر أنّها ملساء، ونطرق على السطح ونسمع صوتًا يدلّ على أنّها صلبة، وهلمّ جرًّا. لكنّ كل تلك الأمور أحاسيس – بقع لونية ونغمات صوتية في رؤوسنا. تبني عقولنا بحسب مذهب التجريبية empiricism مفهوم الطاولة من بين كتلة من الأحاسيس. لكنّنا لا نستطيع الخروج من عقولنا لنكتشف كيف يبدو العالم الخارجي بحدّ ذاته. استنتج مِل Mill أنّ العالم المادي لا شيء سوى «الإمكانات الدائمة للحس»[٣٣].

لكن في هذه الحالة كيف يمكننا حتى أن ندرك أنّ العالم الخارجي موجود؟ يعترف حتّى أكثر التجريبيّين تطرّفًا بأنّه بناء على افتراضاتهم الأولية لا يمكننا معرفة ذلك. لا سبيل لاستبعاد إمكانية أن نكون شخصيّات في فيلم **المصفوفة**[1] **The Matrix**، يتمّ وصلنا بحاسوب فائق يخلق وهمًا لعالم فيزيائي[٣٤]. حزم المدركات الحسية التي نفسرها على أنّها أجسام فيزيائية قد لا تكون شيئًا سوى... حزم من المدركات الحسية.

وحاصل التجريبية empiricism ادعاؤها أنّ الشيء الوحيد الذي يستطيع البشر معرفته هو تعاقب الأحاسيس – مثل شريط سينمائي يعرض في رؤوسنا.

كقول مورفيوس Morpheus في فيلم **المصفوفة**، «كيف تعرّف ما هو (حقيقي)؟ إن كنت تتحدث عمّا يمكنك أن تشعر به، وما يمكنك أن تشمّه، وما يمكنك أن تتذوقه وأن تراه، (فالحقيقي) ببساطة إشارات كهربائية يفسّرها دماغك».

يبدو أنّ هيوم Hume قد قَبِل هذا الاستنتاج العجيب، فكتب، «لنطارد مخيّلتنا إلى الفردوس، أو إلى أقصى حدود الكون؛ فلم نتقدّم فعلاً خطوة واحدة خارج أنفسنا على الإطلاق". إنّنا نعيش في «كون الخيال»[٣٥].

يشارك في هذا الاستنتاج المتطرّف كذلك الفيزيائي إيرنست ماخ Ernst Mach (الذي جاءت منه تسمية «ماخ ١» Mach١ الدالة على سرعة الصوت). كتب قائلاً: «يتألف العالم من المحسوسات فقط». ونبذ الكيانات الفيزيائية الأساسية التي لا يمكن ملاحظتها، مثل الذرّات والإلكترونات لأنها لا شيء سوى «تخيّلات مفيدة»[٣٦].

تكمن ثمرة الحديث في أنّنا إن **بدأنا** بالانطباعات الحسية فقط، **فسننتهي** بانطباعات حسية. لا يوجد طريقة لبناء جسر من الصور الذهنية الداخلية إلى العالم الخارجي باستعمال الخبرة الحسية وحدها، فنحن محتجزون في سجن من عقولنا. هذه هي النتيجة المنطقية للتعامل مع الحس على أنّه إلهي – أي نقطة البداية الوحيدة ومعيار المعرفة.

---

(١) فيلم يتحدث عن عالم افتراضي يسمى (المصفوفة) صنعته آلات حاسوبية واعية لاستغلال البشر. (المترجم)

• بيكون الحسّي، ديكارت المتشكك

كانت العقلانية rationalism تاريخيًّا الخصم الرئيس للتجريبية empiricism. لكنّها أيضًا تنتهي باحتجازها داخل العقل. تدّعي العقلانية أنّ المصدر الوحيد للمعرفة ومعيارها هو الأفكار في العقل mind والتي تعرف بالمنطق (العقل) reason. لكن من المستحيل الخروج من منطقنا لاختبار إن كانت هذه الأفكار دقيقة. فهي كالتجريبية، تفتقد سبيلاً لعبور الفجوة من الأفكار الداخلية إلى العالم الخارجي[٣٧].

كيف أصبح كثير من الفكر الغربي محتجزًا في العقل؟ علينا العودة تخيّليًّا في التاريخ لنعيد تكوين الفوضى الفكرية الشديدة بالقرب من نهاية القرون الوسطى. أطلق انهيار كنيسة القرون الوسطى بعد حركة الإصلاح Reformation قرنًا من الحروب الدينية. فر آلاف اللاجئين الدينيّين من بيوتهم عندما سفك المسيحيّون دم بعضهم بعضًا حرفيًّا في خلافاتهم على تفاسير مذهبية للكتاب المقدّس. وتزامن هذا مع حركة عصر النهضة Renaissance مدفوعة بإعادة اكتشاف النصوص الكلاسيكية – أفلاطون، وأرسطو، وديموقريطوس Democritus، وإبيقور Epicurus. وهم أيضًا قد اختلفوا جميعًا فيما بينهم.

انفجر تنافر الأفكار هذا فيما يدعوه المؤرّخون «الأزمة الشكوكية»skeptical crisis[٣٨]. كان السؤال الرئيس المُلِح، كيف يمكننا أن نتيقّن أي ادّعاءات الحقيقة المتنافسة صحيحة حقًّا؟ بدأ الفلاسفة في البحث عن مصدرٍ أعمق قليلاً للحقيقة – ليس في أيّ من المرجعيات اللاهوتية التي تنكر بعضها بعضًا، وليس في أيّ كتب مقدّسة أو تقاليد قديمة تتنافس على القبول، وبالتأكيد ليس في أيّة مؤسسات مدنيّة مشتغلة في حرب مسلّحة بعضها مع بعض.

في الواقع لم يبحثوا في أيّ مصدرٍ خارجي على الإطلاق، فقد كان أملهم يكمن في إيجاد طريقة تكمن داخل الفرد فقط، ومتأصلة في معلومات الوعي مباشرة. أرادوا البدء مجدّدًا من البداية ليعيدوا بناء صرح المعرفة على أسس متينة ضمن عقل الفرد[٣٩].

كان هذا الأمل هو الباعث وراء كلّ من التجريبية الإمبريقية empiricism والعقلانية rationalism. كان فرانسيس بيكون Francis Bacon مؤسس التجريبية[1]، وقد خطّ برنامجًا صمّم لينظّف عقولنا من كلّ الأفكار الشائعة التي نلتقطها من تعليمنا وبيئتنا، و«للبدء من جديد من الأسس ذاتها»[40]. ماذا كانت تلك الأسس؟ حسب رؤيته فإن شكل المعرفة الأبسط والأكثر مباشرة هو المدركات الحسية – المشاهد والأصوات. اقترح بيكون إعادة بناء المعرفة على أساس المحسوسات.

أما رينيه ديكارت René Descartes فقد كان مؤسس العقلانية rationalism، وافترض نظامًا لتنظيف عقولنا من كلّ فكرة مشوشة أو غير ناضجة، فأي شيء يمكن الشكُّ به، إلى أن نصل إلى أساسٍ لا يمكننا الشكّ فيه، فماذا كان ذلك الأساس؟ حسنًا لقد كان الشيء الوحيد الذي لا يشكّ فيه ديكارت هو العملية العقلية للشكّ عنده. حتّى إن كانت كلّ أفكاري أوهامًا، إلا أنّ الذات تبقى وهي التي تختبر تلك الأوهام. هذا هو معنى عبارته الشهيرة «أنا أفكر، إذًا أنا موجود (Cogito, ergo sum) "I think, therefore I am"؛ تمنّى ديكارت أنّ تكون الأفكار الواضحة والجليّة في العقل هي الأساس الذي تبنى عليه المعرفة من جديد[2].

عبّر كلٌّ من بيكون وديكارت عن مستوى معيّن من الإيمان الديني[41]. إلا أنّ الفلسفات التي اقترحاها لم تتعامل مع الله على أنّه المصدر النهائي للحقيقة. بل عوضًا عن ذلك استبدلوا

---

(١) يجمع الباحثون المختصون على أن مَن أعطى المنهج التجريبي مكانته بصورته الحديثة هم العلماء المسلمون، وذلك مثل رويرت بريفولت Robert Briffault في كتابه الشهير صناعة الإنسانية Making of Humanity وذلك دون أن يتعارض مع إيمانهم بالله أو الدين وإنما طريقة للتعرف على الكون المرصود وكشف أسراره التي سخرها الله للإنسان، وعلى رأسهم ابن الهيثم رحمه الله. (المترجم)

(٢) يعطي الإسلام العقل حقه في ممارسة التفكير وتقويم الأشياء والأفكار والمعتقدات والحكم عليها، بل ويعول الإسلام على العقل في الاهتداء إلى حقيقة وجود الخالق بجانب الفطرة حتى بدون وحي أو نبي أو رسول، لكنه يؤكد على محدودية العقل فيما بعد ذلك مثل ما هو مطلوب الخالق مني؟ ما هي صفاته؟ (المترجم)

بالإله الوعي الفردي. وكما يقول أحد الفلاسفة، لقد جعلا «وجهة نظر الشخص الأول» السبيل الوحيد لليقين؛ فأقاما «النفس باعتبارها موضع المعرفة والحاكم عليها»[٤٢].

هذا جوهر المشروع الحداثي modernist: الفكرة بأنّنا إن أزحنا ما يكفي من البقايا الثقافية – التقاليد المكتسبة، والفلسفات المخمنة، والادعاءات الدينية –بالمختصر، إزاحة أي شيء قد يخطئ بخصوصه البشر، فسنصل أخيرًا إلى شيء **لا يمكن** أن نخطئ بخصوصه. لم لا نخطئ بخصوصه؟ لأنّه لا يُعرف بالاستدلال أو المنطق، بل بالتأمّل الباطني introspection في معلومات الوعي المباشرة. بذلك يكون محصنًا ضدّ أيّ نقد أو تحدٍّ خارجي. ويوفر مثل أساس المنزل أساسًا صلبًا وبعيدًا عن الخطأ لبناء صرح المعرفة.

• هل هي علامات إرشاد أم طرق مسدودة؟

من الواضح أنّ مفكّري التنوير Enlightenment سعوا للبحث عن بديل لله. تمامًا كما يقول سفر رسالة إلى أهل رومية ١، قد تعلّقوا بشيء من الخليقة ليكون في مقام الله باعتباره مصدر الحقيقة الموثوق والأكيد، ومُفسّرهم النهائي، والأساس الثابت للمعرفة.

لذلك يتحدّث الفيلسوف كارل بوبر Karl Popper عن «الصفة الدينية religious character» في نظريّات المعرفة «الأبستموليجيات» epistemologies التنويرية. وقد كتب أنّ مرجعية الوحي الإلهي استبدل بها فقط شكل آخر من المرجعية.

تلتمس تجريبية بيكون «**مرجعية الحواس**»، بينما تلتمس عقلانية ديكارت «**مرجعية الفكر**»[٤٣]. إلا أنّ كلًّا منهما قد تمنى العثور على طريقة تفضي إلى حقيقة أكيدة وكلية بقدر ما هو الوحي الإلهي divine revelation كذلك. تمنّى كلاهما أن يجد طريقة يمكن للفرد أن يتجاوز بها موضعه المحدود مكانيًّا وزمانيًّا للوصول إلى معرفة مطلقة شبيهة بمعرفة الإله – ما يسمّيه الفلاسفة رؤية عين الله للحقيقة. وكما عبر الفيلسوف جون هيرمان John Herman Randall، «حاولوا الوصول إلى ذلك الفهم والتفسير الكامل والمثالي للكون الذي لا يحوزه سوى الله»[٤٤].

لكن ما يثير السخرية أنه بنهاية المطاف كان هذا البحث عن المعرفة الشبيهة بمعرفة الإله محدودًا بالكون الضئيل للنفس.

تولد معظم الفلسفات عندما يصادف أحدهم إحدى الحقائق التي لا يمكن إنكارها عن الخبرة الإنسانية ثم يدّعي أنّه اكتشف الأساس النهائي والبعيد عن الخطأ لكل المعرفة. لاحظ بيكون أنّه ما من أحدٍ يمكنه عمليًّا إنكار شهادة الحواس، فلا يمكننا العيش في العالم ما لم نثق بالمصداقية الأساسية لما نراه ونسمعه. قامت المؤسسة العلمية كلها على الافتراض بأنّ حواسنا تقدّم صورة موثوقة عن الحقيقة. لكنّ التجريبية empiricism تأخذ التجربة الحقيقية هذه وتجعلها مطلقة – تحاول جعلها تحمل وزنًا فلسفيًّا تعجز عن حمله، ولذلك تصل إلى طريق مسدودة. إن بدأت ببيانات الحس وحدها، فستنتهي ببيانات حسية – لا شيء سوى شريط سينمائي يعرض في عقلك.

صادف ديكارت خبرة أخرى لا يمكن إنكارها – وهي إحساسنا بالذات أو الوجود الشخصي personal existence. حتّى لو أمكن تشكيكنا بكلّ شيء نعلمه، لكن تبقى النفس التي تمارس الشك. تأخذ العقلانية حقيقة هذه الخبرة وتجعلها مطلقة، وتسعى لبناء فلسفة كاملة منها. لكن إن بدأت بالأفكار في العقل، فهناك سيكون ما تنتهي إليه. ستُحتجَز في سجن عقلك الخاص.

تتعلق كلّ فلسفة خارجة عن الدين بشيء من الخليقة – شيء يعرف عبر الوحي العام general revelation – وتحاول بناء نظام للحقيقة على ذلك الأساس، ولكن سيثبت حتمًا أنّه محدود جدًّا فلا يدعم صرحًا مثل هذا. إن خبراتنا عن العالم المخلوق هي مجرد بيانات تحتاج إلى تفسير. هي علامات إرشاد تشير إلى خالق عليّ. قد أخطأنا تفسير العلامات إن اعتبرناها مصادرَ للحقيقة المطلقة بحدّ ذاتها. وستفضي بنا بالتأكيد إلى طرق مسدودة.

• سجن كانط العقلي: صنم العقل

إن كانت كلٌّ من التجريبية والعقلانية تتركنا محتجزين في العقل، فالخطوة التالية هي ادّعاء أنّه لا يوجد عالم خارجي – عوضًا عن ذلك يخلق العقل العالم. قام بهذه الخطوة إيمانويل كانط Immanuel Kant، وتجلت فكرته المبتكرة في الاقتراح بأنّ العقل لا يعكس فقط بنية العالم؛ بل عوضًا عن ذلك يفرض فاعلية البنية والتنظيم في العالم. بالنسبة لكانط، فإن الحقيقة كما نعلمها هي بمعظمها من صنع العقل البشري.

ففي المحصلة، من أين نحصل على معرفتنا بالعالم المادي؟ تبعًا لكانط، فإن مواد المعرفة الخام هي الانطباعات الحسية، تتدفق إلى العقل عبر العينين والأذنين في فوضى مضطربة. وكيف تنتظم هذه المُدركات في تكامل محكم ومفهوم؟ بالفعل الإبداعي عند العقل البشري. افترض كانط أنّ العقل يوفّر المبادئ التنظيمية الضرورية، مثلاً قبل وبعد، السبب والأثر، المكان والزمان، وهلمّ جرًّا. ويبدو العالم خاضعًا للقوانين ومنتظمًا لمجرد أنّ العقل البشري ينشئ ذلك النظام، والأمر يشبه ضغط الصلصال ضمن قالب وبكلمات كانط فإن «العقل هو معطي القوانين للطبيعة»[٤٥]. فاتخذ العقل البشري دور الإله بإعطاء القوانين للخليقة.

لقد كان هذا المفهوم ثوريًّا، وكانط كان يدرك ذلك. وسماه ثورته الكوبرنيكية Copernican revolution. فعند ولادة العلم الحديث، حرّك كوبرنيكوس Copernicus الشمس إلى مركز النظام الكوكبي، والآن حرّك كانط الوعي البشري إلى مركز الحقيقة. فقال إنّ الحقيقة الأساسية ليست المادة بل هي العقل؛ يأخذ عالم الأشياء غالبًا شكله وصفته بواسطة الوعي البشري. ويفسّر الفيلسوف ألفين بلانتينغا Alvin Plantinga، «تتمثل الاندفاعة الأساسية لثورة كانط الكوبرنيكية في أنّ الأشياء في العالم تدين ببنيتها الأساسية وربّما بوجودها الفعلي للنشاط الإدراكي noetic في عقولنا»[٤٦].

وإن كان العقل يفرض حتّى فئات المكان والزمان، فيُفترض أنّه بذاته **خارج الزمن**. يدعو كانط هذا العقل غير المقيد بالزمن timeless وغير المتبدّل، **الأنا الأعلى transcendental ego**. لم تكن الذات الاعتيادية والمختبرة – حسّك بهويّتك الشخصية – بل نوعًا من الذات العليا، والعقل الكلي universal mind.

التسمية الفلسفية لهذه الفكرة هي المثالية idealism. لا يُستعمل المصطلح بالمفهوم الاعتيادي لامتلاك مُثل عليا، بل يعني المصطلح أنّ الحقيقة الجوهرية هي مجال **الأفكار ideas** – المجال العقلي. فبدلاً من تأليه المادة، تؤلّه المثالية العقل. وبدلاً من جعل المادة أساس الوعي، تدّعي المثالية أنّ الوعي يشكل المادة كما نعلمها، وتجعل الوعي هو المُفسّر النهائي.

ادّعى كانْط أنّ نظامه «يستند إلى أساس راسخ تمامًا، وثابت إلى الأبد»[٤٧]. عندما تسمع عبارات مثل **أساس راسخ وثابت إلى الأبد**، يجب أن يبدأ كاشف الأصنام لديك بالطنين. كلّ شيء من الخليقة يُقترح أنّه أساس أبدي وغير متبدّل للحقيقة فهو صنم. كان كانط مثل بيكون وديكارت، مؤمنًا بإله theist، ولكنّ الذي قام بدور الألوهية حقًّا في نظامه لم كن الله بل العقل البشري. العقل بحدّ ذاته قد منح قدرة على الخلق شبيهة بقدرة الإله.

تقول الكتب المدرسية غالبًا إنّ فلسفة كانط قد جمعت التجريبية مع العقلانية، لذلك من غير المفاجئ أنّها تشاركهما الضعف الرئيس نفسه. بناء على افتراضاته الخاصة، لا يوجد سبيل للخروج من العقل البشري واختبار إن كانت أفكارنا تطابق الحقيقة الخارجية، والنتيجة المنطقية لذلك هي مذهب وحدة الأنا solipsism، وهو المذهب القائل بأنّ الشيء الوحيد الذي أعرفه يقينًا هو وجود عقلي الخاص. كتب الفيلسوف أنتوني كيني Anthony Kenny، «الشيء المشترك بين التجريبية والمثالية هو المذهب القائل بأنّ العقل لا يمتلك أي معرفة مباشرة عن أيّ شيء سوى محتوياته الخاصة، ويوضّح تاريخ كلتا الحركتين أنّهما تتجهان نحو مذهب وحدة الأنا»[٤٨]. فهما تتركاننا محتجزين ضمن العقل[(١)].

---

(١) ذكر الداعية المسلم البريطاني حمزة تزورتزس أنه عانى من هذا التفكير (وحدة الأنا) في طفولته حتى إنه كان ينظر إلى الأطفال من حوله ويتساءل إذا كانوا موجودين حقًّا؟ وقد ذكر تفاصيل قصته في كتابه الذي ترجمناه (الحقيقة الإلهية) عام ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

• الفنّان باعتباره إلهًا: صنم الخيال

على الرغم من العيوب في المثالية idealism، إلا أنّ الحركة الرومانسية Romantic movement تبنّتها بحماس. كان كثير من أتباع الرومانسية من الفنّانين وقد جذبتهم المثالية لأنّها تؤلّه العقل أو المخيّلة المبدعة. إن كان العقل هو القدرة التي تفرض النظام على العالم – يخلق النظام من الفوضى – عندها لا يكون الفنّان بعد الآن مجرّد حرفيّ ماهر بل يصبح خالقًا.

فبالنسبة لأتباع الرومانسية لم يكن الأساس الجوهري للحقيقة هو الحواس (التجريبية empiricism) ولا العقل (العقلانية rationalism) بل المخيّلة المبدعة creative imagination. قد تصوّروا المخيّلة قدرة مستقلة، وهي وفق تفسير آلان جاكوبز Alan Jacobs من جامعة بايلور Baylor University «محصنة في وجه أيّ قوّة خارجية، تولّد نمطها المميز من الحقيقة التي لا تقبل التحدّي من الأنماط الأخرى من الحقيقة». يُفترَض بكلمات مثل **مستقل**، و**محصن** و**لا تقبل التحدّي** أن تجعل كاشف الأصنام لديك يرسل تنبيهًا. ادّعى أتباع الرومانسية أنّ المخيّلة تولّد حقيقة جوهرية. ويقول جاكوبز إنّها «تؤدّي عددًا من الوظائف كانت سابقًا حكرًا على الإله بذاته»[٤٩]. فهي بديل عن الإله.

بدأ الشعراء يقولون إنّ الفنّ يعيد إحداث كلّ فعلٍ للإله في خلق عالم جديد من لا شيء. يصف صامويل كولريدج Samuel Coleridge الإبداع الفنّي بأنّه «تكرار فعل الخلق الأبدي من **الأنا** المطلقة في العقل المحدود». كتب يوهان جوتفريد هردر Johann Gottfried Herder، «الفنان في طريقه ليصبح الإله الخالق». بذلك ولدت الفكرة المعروفة الآن عن الفنّان بأنّه نبي أو صاحب رؤية visionary. شَعَر ويليم وردسورث William Wordsworth بأنّ روحه قد «ألبست رداءً كهنوتيًّا» وانتخِبَت «للخدمات المقدّسة». قال ويليام بتلر ييتس William Butler Yeats إنّ الفنّ أصبح بالنسبة له «دينًا جديدًا، تقريبًا كنيسة للتراث الشعري معصومة من الخطأ». يعكس كتاب عن الرومانسية Romanticism بعنوان **المخيّلة وسيلة للسمو** The Imagination as a Means of Grace، الحالة الدينية التي نسبت إلى المخيلة الإبداعية[٥٠].

يقال غالبًا إنّ حركتين قد ولدتا العصر الحديث هما التنوير Enlightenment والرومانسية Romanticism – وكلتاهما قد أسِّست على أصنام.

• شفاء للفلاسفة العميان

تقدّم لنا الدراما الكونية التي تكشّفت في سفر رسالة رومية ١ مبادئَ قوية تنطبق على الأديان وكذلك على الفلسفات، القديمة منها والحديثة. يخبرنا المبدأ الأول أنّ السبيل للوصول إلى لبّ أيّ بديل عن الدين يكون بتحديد صنمه. كلّ واحد من هذه البدائل يشكل ملمحًا ما من الخلق ويرفعه إلى حالة مطلقة كاذبة – مبدأ مفرد يحدِّد كلّ شيء. هذا الميل لجعل جزء من الخلق مطلقًا absolutize حسب تعبير الفيلسوف المسيحي هيرمان دويويرد Herman Dooyeweerd هو «مصدر كلّ المذاهب البديلة» [المنتهية باللاحقة isms].[٥] يعامل جزء من النظام المخلوق على أنّه الكلّ، ويُدّعى أنّ جزءًا من الأحجية على أنه الصورة الكاملة، ويُعلَن أنّ لونًا واحدًا في الطيف يمثّل قوس قزح كله.

تشبه الرؤى الكونية كثيرًا الحروف في القصيدة الشهيرة «الرجال العميان والفيل The Blind Men and the Elephant». أصرّ الرجل الأعمى الذي أمسك بالخرطوم على أنّ الفيل كله يشبه الأفعى، وقال الرجل الأعمى الذي أمسك الناب إنّ الحيوان بكامله كالرمح، بينما أصرّ الرجل الذي وجد الذيل على أنّ الحيوان يشبه الحبل. وكذلك الأمر مع الرؤى الكونية المرتكزة على صنم، تعمل على النهج نفسه. تمسك كلّ واحدة جزءًا من الحقيقة وتعلن أنّها المشهد كله. يعامل ذلك الجزء على أنّه مجموعة الفئات المفاهيمية التي تفسّر كل التجربة البشرية، والمفتاح الذي يفتح قفل الكون.

وأيّ شيء لا يمكنها تفسيره إما أن يُنكر أو يعاد تعريفه أو يطرد باعتباره غير حقيقي.

بالطرف المقابل، لا يبدأ الدين من أيّ شيء في الخليقة، بل يبدأ بالخالق المتعالي. ولذلك فهو ليس محدود الأفق، فلا يلزمه اختزال كامل الحقيقة في مجموعة واحدة من الفئات. ولا يرى الخرطوم أو الناب أو الذيل فقط، بل هو نظرة متعالية ترى الفيل بأكمله – وهو الرؤية بعين الله التي سعى إليها الفلاسفة والمتصوّفون دومًا. رغم أني وإياك مقيّدان في منظورنا الفردي، إلا أنّ لدينا إمكانية للوصول إلى المنظور الأبدي.

• بهجة التفكير النقدي

تشكّل الفلسفات التي عرفتها في هذا الكتاب الأساس لكامل الفكر الغربي -- الأفكار التي تغذي كلّ مجال دراسي، وكلّ منهج أكاديمي، وكلّ مهنة. عندما أخذ ابننا مقرّرًا في تاريخ علم النفس في الجامعة، فتحت الكتاب الدراسي، ويمكنني أن أقسم أنّه كان مقرّرًا في الفلسفة. بدأ بالفلاسفة ما قبل سقراط، وذهب إلى أفلاطون وأرسطو، وتحدث عن التجريبية والعقلانية وكانْط Kant، بعدها أكمل الطريق كله إلى الحركات الفلسفية الحديثة. كان الكتاب الدراسي يؤكد فكرة أنّ كلّ نظرية **سيكولوجية** تتفرّع من تطبيق **فلسفة ما**[٢٠].

تستسقي المجالات الدراسية الأخرى من النبع نفسه. وبمجرّد أن تتقن المبادئ الخمسة من سفر رسالة رومية ١، ستكون جاهزًا للتفكير بصورة نقدية ومبدعة في أيّ نظرية في أيّ مجال من الدراسة أو العمل. وكما قال أحد طلابي، إن استعمال هذه الطريقة «هو كالفرق بين القيادة في أرجاء لوس أنجلوس مع مجرّد مجموعة من التوجيهات (استدر يسارًا، استدر يمينًا) مقارنة بحيازة خريطة للمدينة كلها. تعطيك الخريطة المنظور الكلّي». تقدّم المبادئ الخمسة خريطة للسير عبر أيّ نظامٍ من الأفكار.

أخبرني الطلاب أحيانًا أنّ الرسالة الرئيسة التي استقوها من قراءة كتب الدفاع عن الدين apologetics أنّ «كل الآخرين على خطأ». يقدّم أسلوب رسالة رومية ١ بديلاً منعشًا. بما أنّ الإله المزوّر هو شيء ضمن الخلق، لذلك يقود الناس للتركيز على ذلك الجانب من الخلق – مما يعني أنّهم على الأرجح سيكتشفون بعض الحقائق الصادقة. انظر في الأصنام التي حددناها:

- **المادية Materialism** صحيحة جزئيًّا لأنّ الله قد خلق كونًا ماديًّا. حتّى إنّه وصفه «بالحسن جدًّا» (التكوين، الإصحاح ١: الآية ٣١). لذلك علينا ألا نتفاجأ أنّ العلماء الذين تبنّوا المادية يمكنهم إخبارنا بقدر عظيم عن الكون المادي.

- **العقلانية Rationalism** تصيب بعض الأمور أحيانًا لأنّ الله قد خلق العالم ببنية

قابلة للمعرفة عقلانيًا. كما أنّه خلق العقل البشري ببنية مطابقة لذلك. فالمنطق السليم يؤدي إلى الله. في رواية سي. إس. لويس C. S. Lewis بعنوان **رسائل سكروتيب** *The Screwtape Letters*، يحذّر الشيطان الخبير الشيطان الأصغر سنًّا بأن يتجنّب الجدالات: «لأن فعل الجدال ذاته سيوقظ عقل «المريض» وبمجرّد استيقاظه، مَنْ بوسعه توقّع النتيجة؟»[٣٣].

- **التجريبية Empiricism** تصيب في بعض الأمور لأنّ الله قد خلق عالمًا ذا أبعادٍ حسية، وزوّد البشر بحواسهم الخمس ليعيشوا في ذلك العالم. صادق المسيح بنفسه على الحاجة إلى الدليل التجريبي. فقد أخبر تلامذته إن كنتم لا تصدقون كلماتي، إذًا «صدقوني بسبب الأعمال نفسها (المعجزات)» (يوحنا الإصحاح ١٤: الآية ١١)[٣٤]. عندما شكّك الفريسيون في سلطته على مغفرة خطايا رجل مشلول، أجاب المسيح، « وَلكِنِّي قُلْتُ ذلِكَ **لِتَعْلَمُوا** أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ عَلَى الأَرْضِ سُلْطَةَ غُفْرَانِ الْخَطَايَا...». وترك العبارة معلقة والتفت وأبرأ المشلول (مرقس، الإصحاح ٢: الآيات ٩ – ١١). أكّد المسيح هويّته بتقديم دليل تجريبي كان متاحًا لكل من يسعى إليه.

عندما أعلن الحواريّون عن الإنجيل[١] gospel، تعاملوا مع رسالتهم كحقيقة عامة، بناءً على شهادة عيان، ومفتوحة على الاستجواب والاختبار – أخبروا «عمّا سَمِعْنَاهُ، وَرَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، وَشَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسْنَاهُ بِأَيْدِينَا» (يوحنا الأول، الإصحاح ١: الآية ١). لم تكن بشارتهم «أساطير مختلقة بمهارة» بل كانوا «شهود عيان» للأحداث الجارية في الزمان والمكان (بطرس الثانية، الإصحاح ١: الآية ١٦). فضلاً على ذلك، عندما ذكّر بولس قادة

---

(١) الأناجيل التي بين أيدي المسيحيين اليوم عن اللغة اليونانية هي أربعة: متى ولوقا ويوحنا ومرقص، وهم أشخاص كتبوا عن حياة المسيح عليه السلام مما نقله الحواريون الذين كانوا معه ثم انتشروا في البلاد ليبشروا الناس برسالته، ومن بين أناجيل كثيرة تم اعتماد هذه الأربعة في مجمع نيقية في القرن الرابع الميلادي وحرق ما عداها لعدم توافقه مع ما اختاره الرومان وقتها من عقيدة التثليث وبنوة المسيح عليه السلام. (المترجم)

الرومان، هذه الأمور «لَمْ تَحْدُثْ فِي زَاوِيَةٍ» (أعمال الرسل، الإصحاح ٢٦: الآية ٢٦). قد كانت أحداثًا عامة شهدها أناس كثيرون منهم لا يزالون أحياء– فيمكنهم أن يدحضوا ادّعاء الحواريين، ويمكنهم إن كان لديهم أيّ دليل مخالف أن يقدّموه[٥].

- **الرومانسية Romanticism** كانت محقة في مناقضتها للرؤى الكونية التنويرية التي تختزل البشر إلى آلات معقدة. كانت محقة في تأكيدها على حرية الإنسان وإبداعه. ولأنّنا خلقنا على صورة الخالق، يجب على المؤمنين أن يكونوا ملتزمين أكثر من أيّ شخص آخر في دعم الفنون الإبداعية. فعلى الخيال أن يحلّق.

تسمح الرؤية الكونية الدينية للمؤمنين أن يصلوا إلى كلّ وجهة نظر بموقف متحرّر ومحترم، ويعلمون أنّ كلّ منظور يقدّم فعليًّا شيئًا له قيمة. علينا أن نلتقط ما هو خير أينما نجده، ويمكننا أن نستمتع بأفضل الأعمال من أيّ ثقافة، ويمكننا أن نبتهج للبراعة والجمال الكامنة في الأعمال الكلاسيكية للفن والأدب. يمكننا أن نتعلم من البصائر في العلم والفلسفة، وعلينا أن نرفض استيلاء الرؤى الكونية العلمانية على كلمات جيّدة مثل **تجريبي** و**عقلاني**، وعوضًا عن ذلك علينا السعي لملء هذه المصطلحات بمحتوى متوازن من الدين.

علينا في كل الأحيان أن نمكن لقضية أن كل ما تأصل فيه الخير والصحة سيجد منزلته الصحيحة في الدين. كلّ منهج يعزل خيطًا من نسيج الحقيقة الغني، والدين بمفرده يقدّم ما سعى إليه الفلاسفة والحكماء العظام في كلّ زمان: إطار عمل محكم وعظيم يضمّ كلّ المعرفة البشرية.

• الخير والصحيح والوثني

واجه المؤمنون في كلّ عصر مهمة تحديد ما هو خير وصحيح في الثقافات المحيطة، فقد وِلدت الكنيسة المسيحية في مناخٍ فكري صاغته الفلسفة الإغريقية[١].

---

(١) هناك آية قريبة من ذلك المعنى في الإسلام وهي قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ الأعراف: ١٩٩ ، حيث للمسلم أن يعمل بالعرف الشائع في أي مكان وزمان طالما لا يتعارض مع أصل الإسلام من محرمات أو نواهٍ. (المترجم)

كان التحدي الذي واجه آباء الكنيسة أن يصمّموا استراتيجية للتعامل مع تلك الثقافة العالية ولكن الوثنية. عند تمحيصهم في الأفكار السائدة وجدوا كثيرًا مما عليهم رفضه لأنه مناقض للدين. لكنّهم كشفوا أيضًا كثيرًا مما كان خيرًا وصحيحًا، مما يمكنهم أن يستوعبوه في الرؤية الكونية للكتاب المقدس. فاستحدثوا عبارة ما زالت شائعة اليوم: «كل الحقيقة هي حقيقة الله، أينما عثرنا عليها».

كما نقل آباء الكنيسة عبارة استعاروها من العهد القديم. عند خروج بني إسرائيل من مصر، حثّهم الرب على أن «سلبوا المصريين» (الخروج، إصحاح ١٢ : آية ٣٦). جاءت العبارة مجازيًّا لتعني أن يأخذوا أفضل ما في المجتمع الوثني بما في ذلك فنّه وعلمه[٥].

قدّم بولس بنفسه مثالاً مذهلاً عندما اقتبس من أدب زمانه أثناء مخاطبته قادة الثقافة الإغريقية على تلّة مارس Mars Hill في سفر أعمال الرسل، الإصحاح ١٧. عندما يقول النص إنّ بولس «ناقش منطقيًّا reasoned» فلاسفة أثينا، الكلمة اليونانية هي *dialegomai*، هي جذر الكلمة الإنكليزية *dialogue* (الحوار). بعبارة أخرى، لم يكن خطاب بولس يفًا باتجاه واحد. قد بدأ خطابه بإقرار أنّ لدى مستمعيه الوثنيين بعض العلم بالحقيقة، حتّى إذ كان التماسهم للإله ضبابيًّا: «وَجَدْتُ مَعْبَدًا مَكْتُوبًا عَلَيْهِ 'إِلَى الإِلهِ الْمَجْهُولِ'، فَبِهَذَا الإِلَهِ الَّذِي تَعْبُدُونَهُ وَلَا تَعْرِفُونَهُ، أَنَا أُبَشِّرُكُمْ» (أعمال الرسل، الإصحاح ١٧ : الآية ٢٣).

اقتبس بولس بعدها من الشعر الوثني: «لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ'، أَوْ كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعَرَائِكُمْ: 'نَحْنُ أَيْضًا ذُرِّيَّتُهُ»[١]. (أعمال الرسل، الإصحاح ١٧ : الآية ٢٨). يعثر على ما يشبه هذه السطور في عديد من المصادر الأدبية القديمة، مما يعني أنّ بولس كان يستفيد من الافتراضات التي كانت شائعة في ذلك الزمن.

---

(١) يكثر في العهدين القديم والجديد لدى المسيحيين وصف المؤمنين بأبناء الله وكذلك الأنبياء بل وحتى وصف النبي الواحد بابن الله، حيث كلها كناية عن مدى قربهم ونسبتهم ومنزلتهم من الله، وهي صفات مجازية كما هو متعارف بين الناس (مثل قولنا أبناء الوطن، أبناء الجيل، أبناء الإسلام وهكذا). (المترجم)

كان على استعداد تام لمناشدة الحدس والبصيرة الصحيحين لدى مستمعيه اليونانيين، حتّى عندما صحّح وحوّل تلك البصيرة بدمجها في عالم المعاني الدينية. وقدّم بولس دعوته المذهلة بأنّ الدين يعطي سياق المعنى ليفهم اليونانيّون **ثقافتهم الخاصة**.

إن الرؤية الكونية الدينية واسعة الغنى ومتعدّدة الأبعاد مما يسمح للمؤمنين أن يتعلّموا ويستفيدوا ممّا هو صحيح في جميع فلسفات الحياة، وفي الوقت نفسه تنتقد أخطاءها وتتجاوز قصورها.

لكن أولاً نحتاج إلى أن نساعد الناس على تمييز ذلك القصور. سنتعلم في المبدأ الثاني كيف نبين مدى ضيق الرؤى الكونية القائمة على صنم، وكم هي مجرّدة من الإنسانية.

المبدأ الثاني: كيف ربح نيتشه

"لماذا يدع الله الناس يمرون (بالسنوات الحمقاء)؟"

كان جون إيريكسون John Erickson يخبرني بنبرة استنكار ذاتي قصة ما يطلق عليها «سنواته الحمقاء»، أي الوقت الذي أهدره مدبرًا عن الدين باحثًا عن عقيدة أكثر حنكة ليتبعها، إنها مسيرة مألوفة قد سار خطاها العديد من اليافعين[1].

أخبرني جون قائلاً: «لقد ترعرعت في موطن ورع حيث نرتاد الكنيسة ونتدارس الكتاب المقدس نسخة الملك جيمس في الكنيسة المعمدانية الجنوبية غرب تكساس، ولكني بدأتُ خلال سنة التخرج في الثانوية بالقراءة لداروين وفرويد، غمرت نفسي بالشعراء الفرنسيين مثل ريمبود Rimbaud وغيره من الشعراء الرمزيين.

وعندما سألتُ أسئلةً حول هذه الأفكار العلمانية تبين لي أن الجواب هو أن المعمدانيين الأخيار لا يطرحون أسئلة كهذه، ولم يرضني ذلك الجواب».

وعندما بلغ جون سن الرشد في ستينيات القرن العشرين الذي اتسم بثقافة مضادة، أسر انتباهه مذهب المثالية المندفع في ذلك الزمن، شعر بالشناعة الأخلاقية لمقتل ما يزيد على خمسين ألف أميركي في فيتنام في الوقت الذي سلّمت فيه الكنيسة للأمر الواقع وأيدت الحكومة على مرأىً منه. وكشخص جنوبيّ، فقد خيّبت الكنيسةُ جون، نتيجة دورها التاريخي في العبودية والاضطهاد العِرقي، وأصبح يساريًّا في أفكاره السياسية واللاهوتية، أسدل شعره طويلاً، شارك بالمظاهرات الاحتجاجية ضد العنصرية وحرب فيتنام.

مُنح جون بعد الكليّةِ منحة روكفلر في كلية هارفرد لعلم اللاهوت، درس هنالك تحت إشراف ألمع الليبراليين البارزين في ذلك العصر مثل هـ. ريتشارد نيبور H. Richard Niebuhr وهارفي

كوكس Harvey Cox. وكان في ذلك الوقت أيضًا جوزيف فليتشر Joseph Fletcher يدرّس في هارفارد، وهو مؤلف كتاب «**أخلاقيات الموقف Situation Ethics**" الذي صرف الطلاب عن فكرة وجود مبادئ صارمة للخطأ والصواب. بدا بالنسبة لطلاب أمثال جون أن فليتشر قد حقق نصرًا فكريًا ألمعيًا، فقد: «وضع بريقًا علميًا على ما كان يعتبر لقرون مضت خيالاً صبيانيًا بحتًا، أي أن لنا الحرية بابتكار القوانين كلما تقدمنا ونسميها فيما بعد قوانين دينية».

وما أن أصبح جون على وشك التخرج حتى مرّ أخيرًا بتحدٍّ إزاء ليبراليته اللاهوتية، وليس من خلال قراءة الكتاب المقدس بل من خلال قراءته لنيتشه.

- «**ملحد صاخب**»

حدثت نقطة التحول عندما كتب جون مقالة بحثية عن نيتشه في أحد مقرراته. «كنت أعلم أن نيتشه ملحدٌ صاخب وعدوٌ للإيمان الديني، لكنني فضّلتُ نوعًا ما مشاهدته وهو يسدد اللكمات على الوجه الضعيف للبرجوازية المسيحية، ظننتُ أنه من الممتع أن أتلاكم معه لعدة جولات بدافع التسلية خلال مقالتي الفصلية».

ولكن تحولت مباراة الملاكمة بدافع التسلية إلى هزيمة نكراء، اندهش جون عندما وجد نفسه يتفق بالرأي مع معظم النقد اللاذع الذي وجهه نيتشه إلى الطبقة الوسطى البيضاء المسيحية الكثيرة الانتشار في الغرب، حيث شجب نيتشه الدين الذي تدهور ليصبح توقيرًا برجوازيًا بما يشبه القطيع.

أخبرني جون قائلاً: «قدّمتُ مقالتي وأبرمت موعدًا مع البروفسور لمناقشتها، لم أستطع حتى أن أنظر في عينيه، قلت له ورأسي مُطرق، لقد ربح نيتشه، لم أستطع أن أدحض حججه".

قد تتوقع أن يقدّم بروفسور في كلية لاهوتية بارزة تحديًا معاكسًا قويًا ضد أحد أكثر ملحدي التاريخ المُشهَّر بهم، ولكن ما فاجأ جون هو أن بروفسوره لم يقدّم له شيئًا سوى علامة جيد على مقالته.

وبعد عدة أعوام، ندم جون على السنوات التي قضاها مفتونًا بإلحاد نيتشه وعدميته. وكونه طالبًا جامعيًا متمردًا، فقد وجد أنه من السهل جلد الكنيسة المنظّمة بالسياط جرّاء إخفاقاتها، وفي الوقت ذاته تجاهل المساهمات الإيجابية للدين. اكتشف جون في النهاية أن العديد من

الحريات وحقوق الإنسان التي يتمتع بها الغرب هي ثمار الإرث الديني، وأن العلم الحديث هو في أغلبه نتاج المفهوم المستلهم من الدين حول قوانين الطبيعة، وأن عقيدة الحرب المبررة التي تطورت عن طريق علماء لاهوت القرون الوسطى قد قدمت الكثير لوضع حد للمجازر والاغتصاب والسلب والعبودية، وأن حشد المثاليات الأخلاقية ابتداءً من مناهضة الاستعباد وصولاً إلى حقوق المرأة تضرب جذورها في الدين.

تذكر جون قائلًا: «نحن كطلاب نسلّم بكل ذلك جدلاً، كوجود الأكسجين في فسحة قاعة المحاضرات، ونراكم أحكامًا فظة على الغرب المسيحي، ولكن من النادر أن نسأل، (مقارنةً مع ماذا؟).

لطالما مثّل (ماذا) نوعًا من المثال الأعلى الخياليّ (اليوتوبيّ)[1]، ولكن المُثل العليا الخيالية لم تصب نجاحًا. أشرفت المثل العليا الخيالية العلمانية في القرن العشرين على إبادة مئة مليون شخص قُتلوا لأجل (منفعة أسمى) عن طريق مُصلحين من أتباع داروين وماركس ونيتشه. لم يلد التاريخ مجموعة سفاحة أكثر كفؤًا من هذه».

تمنى جون لو أن أساتذته في هارفرد قد كانوا أكثر قسوة تجاه بِدعة العدمية لدى تلاميذهم. «لم يكن على أستاذي أن يدعني أخرج بهذه السهولة، كان عليه ألا يسمح لي بمغادرة مكتبه ظانًّا أن نيتشه قد أبطل ألفًا وتسعمئة عام من الإنجازات الفكرية والأخلاقية الدينية، كان عليه أن يقول شيئًا مثل: (كان نيتشه عبقريًّا ملتاعًا متّقد الذكاء أعطانًا مسودَةً عن الفساد الروحي وقدّم لنا الجحيم على الأرض. قد أبرحكم ضربًا لأنكم ضعيفون ومتمردون وجاهلون، والأسوأ من ذلك أنكم فخورون بهذا. أمسِك مقالتك واكتبها من جديد)» .

وفي النهاية، نضج جون متحررًا من الأوهام بما يكفي لأن يحزم أمتعته ويغادر هارفرد ويعود إلى غرب تكساس ليجتمع مجددًا مع عائلته وجذوره. ومع مرور السنين، أعاد التفكير في نظرته اللاهوتية وأصبح مؤمنًا ملتزمًا، وهو اليوم كاتب قصص أطفال ناجح للغاية وهو مؤلف سلسلة القصص المحبوبة (هانك، الكلب راعي الماشية Hank the Cowdog).

---

(١) أي المثالي، مأخوذة من اليوتوبيا مثل المدينة المثالية أو العالم المثالي. (المترجم)

• افعل ما تشاء

لماذا يسمح الله للناس بأن يمروا بما سمّاه جون إيريكسون «السنوات الحمقاء»؟ ولنجيب على ذلك فعلينا أن نستمع مجددًا إلى رسالة بولس إلى أهل رومية ١. يعيد النص جملة لاذعة تقول بوضوح: « لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ... لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ... لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١:٢٤، ٢٦، ٢٨). لا تعني الجملة أن الله قد تخلى عن الناس وإنما على العكس تمامًا، تعني أنه يحاول أن يُفهمهم عن طريق السماح لهم بالاستمرار حتى النهاية وصولاً إلى النتائج السلبية لاختياراتهم الوثنية[1].

إن الاستراتيجية الإلهية واضحة. عندما تحوّل الإسرائيليون القدماء إلى الأوثان قال الله، «فَسَلَّمْتُهُمْ إِلَى قَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ، لِيَسْلُكُوا فِي مُؤَامَرَاتِ أَنْفُسِهِمْ.» (سفر المزامير ٨١:١٢) وعلى نحو مشابه يقول الله في نشيد موسى، «أَحْجُبُ وَجْهِي عَنْهُمْ، وَأَنْظُرُ مَاذَا تَكُونُ آخِرَتُهُمْ.» (سفر التثنية ٣٢:٢٠). في السبعونية (سبتواجنت septuagint، الترجمة الإغريقية للعهد القديم) فإن الكلمة (**أَنظُرُ**) تعني أُظهِر، أُشِير، أبدِي، أعلِّم، أوضِح، أجعله معروفًا. من الواضح أن غاية الله هي التواصل. في جوهر الأمر فإن الله يقول، حسنًا، افعل ما تشاء وانظر بنفسك كم أنه مُهلِك.

ولهذه الاستراتيجية مماثلات واضحة في الحياة اليومية، يتوجب على الآباء في بعض الأحيان أن يسمحوا لأطفالهم بأن يقوموا باختيارات خاطئة ويقاسوا العواقب، قد يحتاج المعلمون أن يدعوا طلابهم يرسبون نتيجة عاداتهم الدراسية السيئة، يعلم المرشدون أن على المدمنين أن يصلوا إلى الحضيض قبل أن يمتلكوا إرادة التغيير. وبالطريقة ذاتها، يتركُ اللهُ الناسَ من أجل أن يدركوا العواقب المؤذية لأوثانهم. يوضح سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ من الآية ٢٦ وحتى نهاية الإصحاح هذه العواقب مع قائمة طويلة للسلوك المُهلِك والمُهلِك للنفس. يستخدم الله هذه التجارب السلبية ليدفع الناس إلى نقطة القرار: هل سيستمرون بعبادة إله زائف يهلكهم، أم أنهم سوف يتوبون ويعودون إلى الإله الحق؟

---

(١) كنا ذكرنا في حاشية سابقة قول الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الحشر: ١٩ أي أنساهم اختيار الصالح لأنفسهم في الدنيا والآخرة والعمل له، والآن نشير لآية أخرى تتحدث عن المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويخفون الكفر: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ التوبة: ٦٧. ومعلوم أن الله لا ينسى وحاشاه كما أثبت القرآن نفسه في أكثر من موضع، وإنما المقصود هنا بنسيان الله لهم أي توقف توفيقه لهم وتركهم لما اختاروه من الضلال. (المترجم)

• المبدأ الثاني: عرّف اختزالية الوثن

لماذا يقود الوثن دومًا إلى سلوك مُهلك؟ ما هي العلاقة؟ إن الرابط هو أن الوثن يؤدي دائمًا إلى نظرة دونية لحياة الإنسان. في سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١، تتجلى هذه العلاقة في كلمة (**أبدَلوا**): «وَأَبْدَلُوا بِمَجْدِ اللهِ الَّذِي لَا يَفْنَى شِبْهَ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ». (رسالة بولس إلى أهل رومية ١:٢٣). عندما تستبدل رؤيةٌ كونيةٌ المخلوقَ بالخالق فسوف تضع أيضًا رؤية منحطة للبشر المُكوَّنين في صورة شيء من الخلق وتهجر رؤية سامية للبشر المخلوقين في صورة الله.

لا يوجد البشر باستقلالية أو اكتفاء ذاتي أو مُعرَّفين بذاتهم، إنهم لا يخلقون أنفسهم، إنهم كائنات فانية واتكالية ومنوطة بغيرها. بالنتيجة، فسوف ينظرون دائمًا خارج أنفسهم بحثًا عن معناهم وتعريفهم الجوهري. سوف يُعرّفون الطبيعة البشرية من خلال علاقتها بالإله، بغض النظر عن طريقة تعريفهم للألوهية. من لا يستمدّ تعريفه من خالق سامٍ فسوف يستمده من شيء مخلوق.

نستطيع القول بأن كل مفهوم للإنسانية يكون مصنوعًا في صورة إله ما، وبما أن ذلك المعبود سوف يبقى دائمًا أدنى من الإله الديني فإن رؤيته للإنسانية سوف تكون أدنى أيضًا. إن من ينتقصون من قدر الإله سوف ينتقصون الذين هم مخلوقون في صورة الإله، ومن يصنعون الأوثان ففي النهاية «مِثْلَهَا يَكُونُ صَانِعُوهَا» (سفر المزامير ١١٥:٨).

ويسمى هذا في المصطلحات الفلسفية «**اختزالية**»، أي عملية إنقاص شيء من مستوى واقعية أعلى وأكثر تعقيدًا إلى مستوى أخفض وأبسط وأقل تعقيدًا. عندما يُعطي وثن جزءًا ما من الخلق صفة المُطلق فلا بدّ أن يُفسَّر كل ما تبقى تبعًا لهذا الجزء الواحد والمحدود، يُسحب هبوطًا إلى ذلك المستوى، يُقاس تبعًا لذلك المقياس الأوحد، يُختزل إلى ذلك القاسم الأقل صفاتٍ مشتركة.

أعطانا **المبدأ الأول** الخطوةَ الأولى للالتزام بأي رؤية كونية ليست من الدين: عرّف وثنها. ننتقل الآن **للمبدأ الثاني**: عرّف اختزاليتها. عندما يُسلِم الله الناسَ لأوثانهم فإن النتيجة دائمًا هي رؤية اختزالية للإنسانية، والتي تطلق العنان في النهاية للسلوك المُهلِك والمؤذي. عندما نختزل الناس لأي شيء أقل من كونهم بشرًا بالكامل فسوف نعاملهم على أنهم أقل من بشر بالكامل.

عندما نعرّف الإله على أنه **شيء** ما بدلًا من **أحد ما** فسوف نميل لأن نعامل البشر على أنهم **أشياء** أيضًا.

• جَرِّدْ أخاك الإنسان من الإنسانية

ربما من الأسهل أن ندرك الاختزالية عن طريق البدء من المستوى الشخصي. تأمّل الأوثان التي يحيا الكثيرون منا لأجلها، هل تحيا لأجل النجاح المالي؟ هل ذلك هو الهدف الأكثر أهمية في حياتك؟ إن كان ذلك صحيحًا فإنك سوف تُقوِّم كل فعالية حسب مستحقاتها المالية، سوف تعطي للناس أحجامًا من خلال التساؤل عما إن كانوا سيجلبون تحسنًا لاهتماماتك الاقتصادية، سوف تكون نظرتك للحياة أحادية البُعد ومنفعية.

أو أن أهم ما لديك في الحياة هو علاقاتك؟ مظهرك الخارجي؟ إنجازاتك المهنية؟ بغضِّ النظر عمّا هو وثنك فسوف تشعر بوطأة أن تقيس كل جزء من حياتك بذلك المقياس. يؤدي الوثن دومًا إلى سلوك اختزالي يُجرِّد الآخرين من الإنسانية ويبرر استخدامك لهم تلبيةً لجدول أعمالك الخاص.

نستدل غالبًا على الاختزالية من خلال عبارة «ليس إلا». فكّرْ ببعض الأمثلة من محادثات الحياة اليومية، ألم نسمع جميعنا أشخاصًا يقولون بأن الدين ليس إلا تعبيرًا عن الحاجة الفلسفية؟ إسقاطًا لصورة إله في السماء؟ أسطورةً ابتكرها أشخاص سُذّج ليهدّئوا روعهم من القوى الطبيعية؟ تُفترض النظرية الاختزالية للدين ببساطة دون حجة في المقررات الجامعية النموذجية أو برامج العلم التلفزيونية.

أوَلم نسمع جميعنا بأن الحب ليس حقيقةً إلا نتاج التفاعلات الكيميائية؟ توصل النظريات الحالية في العلوم العصبية انطباعًا بأن الحب قد يُختزل إلى نواقل كيميائية ودارات في الدماغ. تشير مقالة في مجلة **وول ستريت جورنال** إلى أن بطاقات عيد الحب يجب ألا تُمثّل قلوبًا وإنما صورًا عن كتلة إسفنجية مستديرة لزجة رمادية اللون، أي الدماغ. «وبدلاً من قول (أحبك) فسوف يقول المحبّ المثقف، (عزيزتي، يفيض الدوبامين في نواتي الذَّنَبِيَّةcaudate nucleus في كل مرة أنظر فيها إليك)»[٢].

ألم نلتقِ جميعنا أتباعًا للفلسفة الكلبيّة الذين يصرّون على أن المبادئ الأخلاقية ليست إلا مصلحة شخصية مُقَنَّعة؟ حاجَّ الفلاسفة في اليونان القديمة بأن الناس يفعلون ما يخدم منفعتهم الشخصية ومن ثمّ يبتكرون قانونًا أخلاقيًّا يبرر سلوكهم. وفي هذه الأيام فإن نسخة مُحدّثة من الفلسفة تستولي على المقررات الجامعية، وهي نظرية تُسمّى علم النفس التطوري، تدّعي أن السلوك الإيثاري قد بُرمِج في جيناتنا عن طريق الانتقاء الطبيعي بسبب قيمته في البقاء على قيد الحياة، نحن ودودون للغير فقط لكي يكونوا ودودين معنا في المقابل (إيثار تبادلي)، أو أننا ودودون مع الأشخاص الذين يشاركوننا مخزن جينات gene pool لأن لدينا حقًّا بيولوجيًّا مكتسبًا في تمرير جيناتنا الخاصة إلى الجيل القادم (إيثار النَّسَب). يختزل علم النفس التطوري كل السلوك البشري إلى مصلحة شخصية مُقَنَّعة.

عمليًّا، غالبًا ما يجد الناس طرقًا لتجنب المتضمنات الاختزالية لرؤاهم الكونية. ولأن الناس مخلوقون في صورة الله فإنهم يعاملون الآخرين عادةً بتوقير واحترام، فهم يشاركون في مشاريع إنسانية ويدافعون عن حقوق الإنسان. المشكلة هي أن الرؤى الكونية التي ليست من الكتاب المقدس لا تزوّد بأي أسس منطقية لمثل هذا السلوك الإيثاري، فعلى سبيل المثال، تلقى الراحل ريتشارد رورتي Richard Rorty تبجيلاً كونه فيلسوف الديمقراطية ومع ذلك فقد كتب: «لا أعرف كيف (أبرر) أو (أدافع) عن الديمقراطية الاجتماعية ... بطريقة فلسفية واسعة."[٣] كان يقرّ بأنه لا يمتلك أسسًا لمُثله العليا.

قد يكون من المجدي عادةً في دعوة غير المؤمنين أن تطلعهم على متضمنات رؤيتهم الكونية لتُظهِر لهم كيف أنها لا تزوّدهم بأسس لمُثلهم العليا الأكثر إنسانيةً والأعلى أخلاقًا.

• علم الغش

إن الاختزالية هي مفتاح تفسير لماذا تؤدي الأوثان إلى سلوك غير أخلاقي، لماذا يختتم سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ بقائمة عن السلوك المهلك والمهلك للنفس. عندما نجرّد الناس من الإنسانية في تفكيرنا ففي النهاية سوف نسيء معاملتهم ونظلمهم ونعسّفهم ونستغلهم بأفعالنا.

استُقصيت العلاقة بين التفكير والسلوك علميًّا. تصف مقالة في مجلة **ساينتفك أميركان** سلسلة دراسات نابغة مصممة لاختبار النتائج العملية لاعتناق فلسفة المذهب الماديّ ونتيجته اللازمة بأن ليس للبشر إرادة حرة. قرر فريق من الباحثين المبادرين اختبار إن كان لمثل هذه الرؤية الاختزالية للإنسانية أي تأثير على السلوك الأخلاقي.

أعطت النتائج جوابًا إيجابيًّا واضحًا. تضمنت إحدى التجارب اختبارًا مصممًا بحيث يجعل الغش مُيسَّرًا، وُزِّع بعض المشاركين عشوائيًّا على ما يسمى شرط **الحتمية**، طُلب منهم أن يقرؤوا عبارات مثل «إن الإيمان بالإرادة الحرة يتعارض مع الحقيقة المعروفة بأن الكون محكوم بمبادئ العلم المشروعة.» بينما وُزِّع مشاركون آخرون عشوائيًّا على ما يسمى شرط **الإرادة الحرة**، قرؤوا عبارات مثل «يتطلب تجنب الإغواء أن أجاهد إرادتي الحرة»[٤].

من هي مجموعة المشاركين التي غشت أكثر في الاختبار؟ لقد كانت مجموعة **الحتمية** التي استُحِثّ مشاركوها أن يعتقدوا أن ليس لهم المقدرة على الاختيار الأخلاقي وبالتالي ليس لديهم مسؤوليات أخلاقية، وعلى العكس فإن مجموعة **الإرادة الحرة** التي لُقّن مشتركوها أن يجاهدوا إرادتهم الأخلاقية كانت الأقل احتماليةً للغش.

تضمنت تجربة أخرى إدارة المال، ومرةً ثانية كانت مجموعة **الحتمية** أكثر احتماليةً لسرقة المال. لخّصت مجلة **ساينتفك أميركان** التالي: «إن أحد الاكتشافات الصادمة لنشأتنا حديثًا في علم الإرادة الحرة هو أنه عندما يؤمن الناس، أو يُرشدون للإيمان، بأن الإرادة الحرة هي مجرد وهم فإنهم يميلون لأن يصبحوا أكثر معاداةً للمجتمع»[٥].

عندما يعتنق الشخص مذهبَ المادية كفلسفة حياة فلا يبقى تأثيرها محتوىً تمامًا ضمن مضمار العقل، إنها تؤدي إلى سلوك شخصي مهلك ونتائج عامة مؤذية.

في هذه التجارب، أدرك العلم خُطا ما كان قد قاله بولس الرسول قبل ألفي عام: تؤثّر رؤيتك الكونية في طريقة معاملتك للآخرين. تقود الرؤية الكونية الاختزالية إلى سلوك مهلك، هؤلاء الذين ينتقصون من قيمة الإله سوف ينتهي بهم المطاف وهم ينتقصون من قيمة أنفسهم وقيمة الآخرين.

• سيكولوجية الطمس

نظرًا للعواقب السلبية للرؤية الكونية الاختزالية فقد تتعجب كيف لشخص ما أن يتبناها، ما الذي يجذبهم؟ يعطينا بولس مفتاحًا لحل هذا اللغز: تذكر أن الطبيعة البشرية هي جزء من وحي إلهي عام، إعطاء دليل على وجود الله. إن وجود كائنات لديها القدرة على التعليل والحب والتخطيط والاختيار هو دليل على أن السبب الأول الذي خلقهم لا بدّ أن يمتلك القدرات ذاتها على الأقل.

يجب أن يكون السبب كفؤًا لإنتاج التأثير، إن أصل الكائنات الذاتية يُفسَّر على أفضل وجه بأنها نتيجة من كائن ذاتي.

كيف يسعى البشر المَهينون الآثمون لتجنب ذلك الاستنتاج؟

يقول بولس: «الَّذِينَ يَحْجُزُونَ الْحَقَّ بِالإِثْمِ» (رسالة بولس إلى أهل رومية ١٨:١). ذلك ما تنجزه الاختزالية، فهي تنكر واحدًا أو أكثر من أبعاد طبيعة الإنسان فلا يعود الدليل على طبيعة الإنسان بعد ذلك يشير بوضوح إلى إله ديني[١].

إن كانت الاختزالية تشبه محاولة حشر الواقعية بأجمعها في صندوق فيمكن القول بأن المشكلة هي أن الصندوق يكون دائمًا صغيرًا للغاية. تجعل الأوثان جزءًا ما من تسلسل الخلق مؤلهًا، ولكن مهما كان الجزء الذي تختاره فإن جزءًا ما سوف يكون دائمًا محدودًا للغاية بحيث لا يفسر **الكل**. إن الكون معقد للغاية ومتعدد الأبعاد بحيث لا يتسع في صندوق مكوّن من جزء واحد فقط، والأمر الثابت أن هنالك شيئًا سيخرج ناتئًا، هنالك شيء لن يتسع في تصنيفاته المفاهيمية المحدودة.

ثم ماذا؟ كل ما لا يتسع في الصندوق سوف يُنبَذ أو تُخفَض قيمته أو يُرفَض برمّته. يمكن اختصار التفكير الاختزالي بما يشبه القول، إن لم تكن رؤيتي الكونية تُفسّر X فتلك مشكلة X. تكمن شعبية الأوثان في كونها تبتر الواقعية إلى قياس يسمح بتوضيبها في صندوق والتحكم بها.

إنهم يحذفون أبعاد الواقع التي قد تدحض الرؤية الكونية، باستطاعتك ببساطة أن تجعل أي

---

(١) يوضح ذلك المعنى شمولية قول الله تعالى كدليل من الأدلة على عظمته: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ الذاريات: ٢١ ، حيث لا يشير ذلك إلى الأدلة الحسية فقط من إبداع الخالق في جسم الإنسان وأعضائه، وإنما في نفسيته ومشاعره وفطرته وقدرته على العقلنة والتفكير كذلك. (المترجم)

رؤية كونية تظهر بمظهر النجاح عن طريق إنكار كل ما لا يتسع في صندوقها.

وباستخدام المصطلحات الدينية، يطمس الناس كل ما يهدد رؤيتهم الكونية المفضلة. إن كان هنالك تجلٍّ إلهي عام يدل على الإله، فإن على أي دين بديل أن ينكر ذلك الدليل.

ورغم ذلك فإن الطمس يُحدث هوّة عميقة (ثنائية أو تفرعًا ثنائيًا) على الصعيد النظري في بعض الأحيان وعلى الصعيد العملي على الدوام[1]. تقع على إحدى حافتيِ الهوّة الأشياء التي اتسعت داخل الصندوق والتي سُلّم بكونها واقعية وموضوعية. وتقع على الحافة الأخرى للهوّة الأشياء التي نتأت خارج الصندوق، والتي اختُزِلت إلى حالة الأوهام الشخصية أو البِنى العقلية.

على صعيد الاستعارات المجازية فإن الفلاسفة في بعض الأحيان يصوّرون التفرع الثنائي باستخدام صورة بناء ذي طابقين، يحاول الاختزاليون أن يعيشوا في طابق واحد فقط. على سبيل المثال، يحاول الماديون أن يعيشوا بتشدد في طابق واحد فقط وهو الكون المادي، يعاملون المادة والطاقة على أنها الشيء الوحيد الحقيقي والمعروف والصحيح موضوعيًّا، يصبح الطابق الأعلى ما يشبه العليّة (الطابق الأدنى من السطح) يرمون فيه كل ما لا يتسع في الصندوق الماديّ (النفس، الروح، العقل، الأخلاق، الحرية، الحب، الإله).

لربما تقول بأن هذه الأشياء تُخزّن في العليّة بصناديق قديمة يكسوها الغبار وعليها لصاقات كُتب عليها «خرافات» و«تفكير رغائبي» و«الأشخاص المثقفون هم أكثر دراية». نستطيع أن نتصور الطابقَين مقسَّمَين بوساطة رسم بياني. إن كنت قد قرأت أعمال فرانسيس شيفر Francis Schaeffer أو كتبي السابقة فسوف تعرف هذا الرسم البياني:

يحاول الماديون العيش في الطابق السفلي
العالم اللامادي
غير موضوعي، خرافات، بنى عقلية

العالم المادي
موضوعي، علمي، حقائق معروفة

على كل حال، لأن الناس مخلوقون في صورة الله فهم لا يستطيعون عمليًا أن يعيشوا بصرامة في طابق واحد، لا يستطيعون أن يتخلصوا بالكامل من هذه الصناديق المزعجة في العليّة، لكن هذا الكلام هو استباق لما هو مذكور في **المبدأ الثالث** الذي يقيم الحجة بأن لا أحد يستطيع العيش داخل الصندوق المحدود لرؤية كونية مبنية على وثن.

نحتاج قبل أن نطرح تلك الحجة أن نرى مدى انتشار الاختزالية، وبما أن هنالك العديد من الأوثان المختلفة فهنالك أمثلة مختلفة للاختزالية، وإن شحذ أدواتنا الكاشفة عن الأوثان أمر أساسي في سبيل التعرف عليها. وبما أنه من الأسهل أن نعرّف تأثير التجريد من الإنسانية عندما تتطور الرؤى الكونية إلى استنتاجاتها الأكثر منطقية فسوف نتدارس اثنين منها في نسخهما الأحدث وهما مذهب المادية ومذهب ما بعد الحداثة. ومن ثمّ سوف نعرّف الاختزالية المتوارثة في دينين وهما وحدة الوجود (الحلولية) pantheism والإسلام[1].

وأخيرًا، بما أن العواقب السلبية جليّة على الأخص عندما يُعبّر عن الرؤى الكونية في النظام العام فسوف نختتم مع نظريتين سياسيتين.

• كريك Crick: «لا شيء سوى حزمة من العصبونات»

قُدِّمت في السنوات الأخيرة نسخة اختزالية جذريًّا للمذهب المادي وسُميت المادية الإقصائية eliminative materialism. تتجاوز الادعاء المادي التقليدي بأن الحالات المادية تحدد العالَم العقلي وتصل إلى ادعاء أكثر إدهاشًا بأن العالَم العقلي غير موجود، أي أن جميع أفكارنا وإيماننا ورغباتنا ونوايانا وإدراكاتنا وقراراتنا عبارة عن تخيلات، إنها أوهام تنتجها كيميائية الدماغ المستبطنة دون تأثير طارئ من ذوات أنفسها، أي مثل زبد البحر نتيجة تلاطم الأمواج أو الشَّرَر الناجم عن الآلات.

يقول عالم النفس في جامعة كامبريدج نيكولاس همفري Nicholas Humphrey: «يجب

---

(١) من الغريب هنا كما سنرى بعد قليل أن تعتبر المؤلفة (التوحيد) في الإسلام (أي عبادة إله واحد) هو وجهًا آخر (ولو من بعيد) لوحدة الوجود (التي تزعم أن الإله والمخلوقات شيء واحد)، وسنرى كيف خرجت بهذه المشابهة وكيفية الرد عليها. (المترجم)

أن يكون افتراضنا الأولي كعلماء أنه لا بدّ للوعي أن يكون وهمًا في مرحلة ما، والسبب واضح: إن لم يستطع أي شيء في العالَم الفيزيائي امتلاك السمات التي يبدو أن الوعي يمتلكها فلا يمكن للوعي أن يوجد كشيء في العالَم الفيزيائي»[٧]، على ما يبدو، حسب وجهة نظره، إن كان شيء ما «ليس شيئًا في العالم الفيزيائي» فلا يمكن إذًا أن يوجد.

ولكن إن كان الوعي وهمًا فكيف يمكن لهمفري أن يكون واعيًا بتلك الحقيقة؟ وكيف لنا أن نثق بتفكير العلماء الذين يخبروننا بأن التفكير لا وجود له؟ وكما يشير أحد الفلاسفة، إن المادية الإقصائية «تدحض ذاتها ذلك أن الوهم أيضًا هو وجود تجربة في وعي شخص ما»[٨].

بصرف النظر عن هذه التناقضات المنطقية (والتي سوف نناقشها في **المبدأ الرابع**)، يعتنق العديد من المفكرين الرائدين الاختزالية المتطرفة ذاتها. يكتب فرانسيس كريك Francis Crick المشهور بكونه قد حل رموز DNA وأخذ على عاتقه بعد ذلك تفنيد وجود الروح أو النفس: «أنت، أفراحك وآلامك، ذكرياتك وطموحاتك، إحساسك بالهوية والإرادة الحرة كل ذلك ليس في الحقيقة إلا سلوك مجموعة واسعة من الخلايا العصبية وجزيئاتها الملحقة». واستنتج مستشهدًا بجملة من **أليس في بلاد العجائب** قائلاً: «لستَ إلا حزمة من العصبونات».

وبالأسلوب نفسه، يحاجّ عالم النفس من جامعة هارفرد دانييل وغنر Daniel Wegner بأن الإرادة الحرة مجرد وهم، وأن جميع أفعالنا هي في الحقيقة تأثيرات الأسباب الجسدية غير الواعية. إن عنوان كتابه يعبر عن محتواه «**وهم الإرادة الواعية The Illusion of Conscious Will**». أقرّ أثناء مقابلة بأن الإرادة الحرة هي «وهم مستمر إلى حدّ بعيد، يستمر في العودة على الدوام». ومع ذلك فهو يعاملها وكأنها مجرد خدعة من ساحر: «رغم أنك تعرف بأنها خدعة إلا أنك تُخدع بها في كل مرة. لا يفارقك الشعور مطلقًا.»[٩] (قد تعتقد أنه عندما تُنفى نظرية عبر تجارب مستمرة {لا تفارقها مطلقًا} أن الاستمرار قد يُحتسب كدليل ضد النظرية. سوف نفصّل هذه الحجة في **المبدأ الثالث**).

قد يُصدم بعض الأشخاص بشدة بالادعاء القائل بأن البشر لا يمتلكون إرادة حرة أو وعيًا أو هوية شخصية. لماذا قد يبتكر أي شخص نظرية تتعارض للغاية مع التجربة الطبيعية؟ يأتي التعليل من خلال استعارة شائعة بين علماء الإدراك: أن المخ عبارة عن حاسوب[(١)]. على سبيل

---

(١) جدير بالذكر بيان الاختلاف في المعنى بين المخ أو الدماغ Brain (وهو ذاك العضو العصبي في الرأس)، وبين العقل Mind (وهي تلك الملكة على التفكير والشعور بالأنا واتخاذ القرارات وحرية الإرادة). (المترجم)

المثال، يسمي العالم العصبي من جامعة هارفرد ستيفن بينكر Steven Pinker المخ البشري آلةً معقدةً «لمعالجة وحوسبة المعلومات.» نعلم الآن بأن الحواسيب تعمل على أكمل وجه دون أن تكون واعية، فلماذا نتمتع نحن بالوعي؟ والجواب الاختزالي لهذا: أننا لسنا متمتعين بالوعي، إن فكرة أن هنالك نفسًا داخلية توحّد أفكارنا وتجاربنا وهم. وكما صاغها بينكر بكلماته: هنالك دليل قوي بأن النفس الموحدة هي خيال»[١٠].

من أين سيأتي هذا الخيال؟ تدّعي النظرية أن الانتقاء الطبيعي قد برمجه في جيناتنا لأنه يمكّننا من التنبؤ ببيئتنا والتحكم بها بسهولة أكبر. نستطيع مثلاً أن نتنبأ بسهولة أكبر أن سالي سوف تذهب إلى البراد إن كنا نعلم بأنها **تريد** مشروبًا **وتعتقد** أن علبة الحليب موجودة في البراد. بكل الأحوال تقول النظرية واقعيًا بأن الحالات الداخلية مثل **الإرادة والتفكير** غير موجودة. إن اللغة الاعتيادية هي مجرد اختصار مريح نستخدمه لأن الحساب الدقيق اعتمادًا على قوى الفيزياء التي تحكم العصبونات التي تتنبه في دماغ سالي، سيكون معقدًا إلى درجة الاستحالة[١١].

• «اللاعقلانية الأكثر عمقًا»

علينا أن نثني على المادية الإقصائية لأنها منطقية تمامًا: بصنعها وثنًا من المادة فقد أنكرت كل ما وراء العالم المادي، ولكن مع ذلك لا تسعد هذه النتيجة جميع الماديين، إنهم يشيرون إلى الحقيقة الجليّة بأننا كائنات واعية، ويقولون بطريقة ما بوجوب انبثاق الوعي من المادة، وتسمى وجهة النظر هذه مذهب الانبثاقية emergentism[١٢].

ومع ذلك فإن الادعاء القائل بأن الخصائص العقلية تنبثق من الحالات الدماغية، ادعاء لا يمكن تصديقه على الإطلاق. ففي نهاية المطاف لا تشبه الحالات العقلية الحالات الجسدية إطلاقًا، إن الجسم المادي مثل وردة قد يكون أحمر وشائكًا، ولكن فكرتك حول الوردة ليست حمراء ولا شائكة. إن الأجسام المادية أمر عام: من الممكن أن يلاحظها أشخاص آخرون، ولكن الحالات العقلية خاصة (مثل مشاعر الألم أو الفرح): لا يمكن أن يلاحظها أي شخص آخر مباشرة[١].

---

(١) تقصد الكاتبة أن حالة الوردة هنا تختلف في عالم لا يعرف إلا المادة (ففي هذه الحالة لن يعرف فيها إلا أنها وردة حمراء وشائكة)، عن عالم يعرف ما هو أكثر من المادة (مثل أن ترمز الوردة في موقف ما إلى المحبة أو العطف وغيرهما من المشاعر). (المترجم)

إننا نفسر الحالات المادية بمساعدة قانون عام متوافق عليه (كما هو الحال في العلم). ولكننا نفسر الحالات العقلية بمساعدة النوايا الشخصية والرغبات والاختيارات. وأخيرًا فإن الحالات العقلية تتعلق دومًا بشيء ما أو موجهة نحو شيء (إنك تفكر بشخص أو تقلق حيال مشكلة)، ولكن الأجسام المادية لا تتعلق بشيء، إنها «توجد» فحسب[١٣].

يبدو أن الوعي والمادة يختلفان من حيث النوع (كيفيًا)، ولا يختلفان في الدرجة فقط (كمّيًا). ولذلك فإن الادعاء بأن الوعي ينبثق بشكل ما من المادة، يشبه محاولة أن تحصل على شيء من لا شيء، كأن تسحب أرنبًا من داخل قبعة. يسمي الفيلسوف إيفان فالس Evan fales ذلك بالغموض: «يقتضي التطور الداروينى ضمنًا أن البشر قد انبثقوا عبر العملية العمياء للقوى الطبيعية، إنه أمر غامض فكيف يمكن لمثل هذه القوى أن تولّد شيئًا غير مادي»[١٤].

أما الفيلسوف كولين ماكجين Colin McGinn فيعامل الوعي كأنه معجزة حيث يكتب: «لا نعرف كيف يمكن للوعي أن يكون قد نشأ بوساطة عمليات طبيعية من أشياء مادية موجودة مسبقًا، يميل المرء، وإن على مضض، للالتفات إلى مساعد إلهي: ... يتطلب الأمر ساحرًا خارقًا للطبيعة كي يستخرج الوعي من المادة.» ثم يطرح ماكجين سؤالاً، «كيف يمكن للتطور أن يحوّل ماء النسيج البيولوجي إلى نبيذ الوعي؟»[١٥]

يقول الفيلسوف مارك بيدو Mark Bedau بأن فكرة الانبثاق «تشبه السحر على نحو مزعج» ولذلك فإنها «سوف تزعج الأشكال المنطقية لمذهب المادية»[١٦]. تؤمن الأشكال الأكثر «منطقية» للمادية بأنه إن كان البشر قد **أتوا** من مادة فإنهم **مكوّنون** من مادة فقط، وإن العقل عبارة عن وهم.

لماذا يجد أغلب الناس صعوبة في تقبّل ذلك الاستنتاج «المنطقي»؟ لأنه يتعارض مع تجاربنا اليومية الأكثر إلحاحًا. وكما قال الفيلسوف جيلان ستراوسون Gelan Srawson، إن إنكار الوعي «هو حتمًا **أغرب ما حدث على الإطلاق في مجمل تاريخ فكر الإنسان.**» فهو يُبين أن «مقدرة سذاجة الإنسان غير محدودة، وأن قابلية العقول البشرية على أن تسيطر عليها نظرية أو إيمان لا حدود لها حقًا.» ويُظهر ذلك «اللاعقلانية الأكثر عمقًا للعقل البشري»[١٧].

إن ذلك نقدٌ لاذع، يقول ستراوسون بأن المادية الإقصائية هي «إيمان»، وهي إيمان «لاعقلاني" عميق مقارنةً بما نعرفه من خلال تجربة الفطرة السليمة.

يحاجّ فيلسوف القرن الثامن عشر توماس ريد Thomas Reid بأن مثل هذا الإصرار المنطقي المتطرف رغم وجود الحقائق المتناقضة هو ضرب من الجنون، يكتب: عندما تسمح لنفسك أن تفكر بحيث تهجر ما تعرفه بالفطرة السليمة لمجرد أن نظامًا فلسفيًّا ما يتطلب ذلك «يمكن أن نسمي ذلك جنونًا ميتافيزيقيًّا»[١٨].

لكن في نهاية المطاف إن الهدف من الفلسفة هو شرح حقائق التجربة وليس إنكارها، وكل ما هو أقل من ذلك تملص من القضية. إن المشكلة مع الاختزالية أنها بدل أن تشرح الأشياء تحاول أن تتغاضى عنها.

وخارج البرج العاجيّ، فإن الناس العاديين لا يهتمون برؤية كونية تفقد السيطرة على نظام مترابط منطقيًّا، كما أنها تناقض تجربة الإنسان. إنهم يبحثون عن رؤية كونية منطقية حول الكون الذي نقطنه بالفعل، يريدون رؤية كونية تفسّر حقائق التجربة الإنسانية التي لا يمكن إنكارها، وليس رؤية كونية تطمس هذه الحقائق من أجل اتساقها المنطقي الداخلي الخاص بها.

بالإضافة إلى ذلك فإن الحقائق التي تطمسها المادية هي بالضبط أكثر الأشياء التي يهتم بها الناس، أي عالم التجربة الواعية بأكمله. إن معظم ما يجعل الحياة تستحق أن تُعاش يتكون من تجارب: الحب، السعادة، الإنجاز، المُثل الأخلاقية، الشعور بوجود هدف، وهكذا[١٩].

وأخيرًا فإن الناس العاديين حساسون تجاه العواقب العملية والأخلاقية للرؤى الكونية. إن وجهات النظر الاختزالية المتطرفة حول ذات الإنسان ليست مجرد تفكّرات مؤذية، أي تسلية الفلاسفة في أوقات الفراغ. فما تتمسك به الطبقات المهيمنة على أنه صحيح، يميل لأن يصوغ الممارسات الاجتماعية والسياسية. إن كانت النخبة تعتنق المذهب المادي الذي يختزل البشر إلى حواسيب، فسيعاملون الناس كأنهم حواسيب، وسوف يُختزل التفكير إلى الحوسبة: علم النفس العصبي الكهربي للدماغ. سوف يُقوَّم الأشخاص بناءً فقط على مدى جودة أدائهم في المهام الموكلة إليهم، وعندما يتوقفون عن الأداء فسوف يقذفون في القمامة، ويكومون مع بقية النفايات الإلكترونية.

• انتقام الرومانسيين

في جامعة نموذجية، يغلب اعتناق الشكل المتطرف من مذهب الاختزالية في قسم العلوم حيث يكون من المتوقع أن معظم الأساتذة يعتنقون المذهب المادي. من ناحية ثانية، إن سِرتَ خلال الحرم الجامعي وصولاً إلى أبنية العلوم الإنسانية والفنون فسوف تجد أن أغلب الأساتذة يعتنقون مذهب ما بعد الحداثة، وإن الرؤيتين الكونيتين متعاكستان بأكثر من طريقة وبكل ما في الكلمة من معنى، ومع ذلك فكلتاهما تقود إلى الاختزالية المجرِّدة من الإنسانية.

تبدو كلمة **ما بعد الحداثة** للعديد من الناس غامضة بشكل أو آخر، ولكن من الأسهل فهمها إن تتبعنا كيفية تطورها، تعود جذورها إلى الحركة الرومانسية التي مررنا عليها باختصار في **المبدأ الأول**. كان شوبنهاور Schopenhauer أحد أبطال الرومانسية والذي قال، «إن المادية هي فلسفة الشخص الذي نسي أن يأخذ نفسه بعين الاعتبار»[٢٠]. ذلك أن الماديّ ينظر إلى الخارج ملقيًا نَظَرَهُ على العالم المادي وكأنه الحقيقة الوحيدة و«ينسى» أن ينظر إلى الداخل ملقيًا نظرةً على النفس. رغم ذلك فإن العالم الداخلي للوعي هو وعلى نحو مساوٍ جزء من الحقيقة التي يُطلب من الرؤى الكونية تفسيرها.

من ناحية ثانية، لم يكن الرومانسيون مهتمين بإنعاش العقل الفردي فقط، فقد كانوا متيمين بفكرة **كانط** Kant عن الأنا العليا أو العقل الكونيّ بقواه الإلهية القادرة على خلق عالم التجربة. وبالنسبة للكثيرين كانت نقطة انطلاق مذهب الحلولية أو وحدة الوجود Pantheism. يقول عالم اللاهوت إيان باربور Ian Barbour إنه بالنسبة للرومانسيين «إن الإله ليس الخالق الخارجيّ لماكينة غير ذاتية، وإنما هو روح تخللت الطبيعة»[٢١].

أراد الرومانسيون أن يهدموا صورة التنوير عن الكون بأنه آلة ضخمة ويستبدلوا بها صورة عضوية، أي أن الكون كائن حي. ووفق رؤيتهم كما يفسّر راندال Randall «لم يكن العالم ماكينة، لقد كان حيًّا، ولم يكن الإله خالقه بقدر ما كان روحه وحياته»[٢٢].

وكما رأينا سابقًا، فإن بطاقة التعريف الفلسفية لهذا هي المثالية، أي الادعاء بأن القوة السببية الحقيقية في الكون هي المجال العقلي للأفكار. أراد الرومانسيون أن يهزموا صنم المادية (أن

الحقيقة الجوهرية ماديّة) ولذلك فقد اقترحوا وثن المثالية (أن الحقيقة الجوهرية عقلية). أرادوا أن يجابهوا الرؤى الكونية التي تعلن أن المادة مُطلقة، ولذلك أعلنوا أن العقل مُطلق. يقول الروائي ووكر بيرسي Walker Percy بأن المادية تُقحم كل شيء في «صندوق الأشياء" بينما تُقحم المثالية كل شيء في «صندوق العقل»[٢٣]. أو وبالعودة إلى الاستعارة المجازية عن البناء ذي الطابقين، تحاول كل من الحركتين أن تعيش في طابق واحد.

تقسم الفلسفة الغربية إلى «عائلتين" فلسفيتين

الرومانسية

صندوق العقل

التنوير

صندوق الأشياء

نما كل من هذين التيارين ليشكلا شبكة كثيرة التشابك من الفلسفات، التي تسمى اليوم التقاليد التحليلية والتقاليد القارّيّة. تعود جذور التقليد التحليلي إلى التنويرية وتميل لأن تسلط الضوء على العلم والمنطق والحقائق، بينما تعود جذور التقليد القارّيّ إلى الحركة الرومانسية وتسعى لأن تدافع عن العقل والمعنى والأخلاقيات[٢٤].

ليست الرؤى الكونية مجموعة مبعثرة لأفكار غير مترابطة، بل تميل لأن تنعقد في مجموعات مترابطة تشبه العائلة، عندما نعلم الفكرة الرئيسة الرابطة بالنسبة لكل عائلة يصبح من الأسهل تعريف نوعها الاختزالي.

• الروح العليا عند إيميرسون

عندما توصّل الرومانسيون إلى أدوات فكرية ليدافعوا عن مفاهيمهم عن العالَم التي أعطوها طابعًا روحيًّا، أنعشوا الأفلاطونية المحدّثة neo-platonism، وهي نسخة من المثالية تضرب جذورها في القرن الثالث. كثيرًا ما تتخطى المقررات الفلسفية الجامعية الأفلاطونيةَ المحدّثة (لم أتلقَّ مقررًا عنها حتى وصلت إلى الدراسات العليا.) ومع ذلك فإن لها تأثيرًا كبيرًا على التاريخ الغربي[٢٥].

وكما يشير الاسم فإن الأفلاطونية المحدثة قد بدأت بفكرة أفلاطون والتي جُمعت مع أجزاء وإضافات من مدارس الفكر اليونانية الأخرى ونُكّهت بعد ذلك بالحلولية أو وحدة الوجود الغربية. حاكت الأفلاطونية المحدثة من هذه المصادر المتنوعة رؤية كونية «موسعة». قد تجدها مثل «حركة العصر الجديد» للعالم القديم حيث تجمع عناصر من كلا الشرق والغرب.

كانت العقيدة المركزية للأفلاطونية المحدثة هي أن العالم عبارة عن انبعاث لجوهر روحي يسمى **الواحد** أو **المطلق**. ومثل ينبوع يتدفق نزولاً عبر مستويات متعددة، بعث **الواحد** سلسلة منحدرة فاضت نزولاً عبر عدة مستويات: من الكينونات الروحية إلى البشر ومن ثمّ إلى المخلوقات ذات الإحساس sentient (الحيوانات) ثم الأشياء الحيّة (النباتات) وأخيرًا الأشياء المادية (الصخور). وهذا ما كان يسمى سُلّم الحياة أو السلسلة العظيمة للكائنات. كان الهدف من الحياة الروحية هو إعادة اعتلاء السلّم، الهروب من المادة، وإعادة التوحّد مع **الواحد**[٢٦].

وكان ما جذب الرومانسيين للأفلاطونية المحدثة هو فكرة أن الروح أو النفس تخترق الطبيعة. يقول إيغلتون Eagleton إنه بالنسبة للمثاليين فإن **المطلق** قد أدى دور «نوع من الألوهية المُعَلمَنة».

لم يكن ذلك إلهًا ذاتيًا يفكر ويشعر وينوي ويفعل. كان مادةً أو جوهرًا روحيًا لا يوصف بالذات الشخصية، يطلق عليه رالف والدو إيميرسون Ralph Waldo Emerson الروح العليا: «روح الكل ... **الواحد** السرمديّ»[٢٧].

• الألوهية التطورية تبعاً لهيغل

قدّم الفيلسوف هيغل للأفلاطونية المحدّثة منعطفًا جديدًا حيث أضاف مفهوم التطوير التاريخي أو التطور. حتى ذلك الوقت كان سلّم الحياة ساكنًا، كان عبارةً عن لائحة ثابتة من قائمة سردية لأشياء موجودة في الكون ولكن وبوجود هيغل أصبح السّلم متحركًا. ولكي نتصور التغير، تخيل أن السلّم ينزلق ويصبح سلّمًا متحركًا وأن الكون بأكمله يتقدم نحو الأمام من خلال سلسلة من المراحل. أطلق هيغل على ألوهية الحلولية أو وحدة الوجود هذه **الروح المطلقة** أو **العقل الكوني**. ولأنها كانت روح العالم، يُقال بأنها تتطور تباعًا مع العالم[٢٨].

ما قدّمه هيغل كان نسخة عن التطور قد أُعطِيت طابعًا روحيًّا. (حتى إن نيتشه قال «لولا هيغل لما كان هنالك داروين.») والفرق أن هيغل طبّق مفهوم التطور على عالم الأفكار وليس على البيولوجيا، كان ادعاؤه أن جميع أفكارنا (القانون، الأخلاق، الدين، الفن، المُثل السياسية) تنتج عن «تحقيق العقل الكوني لوجوده» بالتدريج عبر مسار التاريخ. أُدرِكَ كل شيء ضمن عملية تاريخية ضخمة تتقدم نحو حالة نهائية تامة[٢٩].

بالنسبة للعديد من الناس فإن قانون التقدم التاريخي يقوم بوظيفة بديلة عن العناية الإلهية.

وكما يفسّر راندال Randall «عندما بدا أن العلم يستبعد الإله من الكون، كان على الناس أن يؤلهوا قوى الطبيعة مثل (التطور)»[٣٠]. إن نسخة التطور الموجهة نحو هدف قد أراحت الناس بإذاعة الأمل بأن لكل حدث سببًا أو غاية ضمن التقدم الصاعد للكون ككل.

إن فلسفة هيغل نوع من النزعة التاريخية historicism (مذهب يعتقد أن جميع الأفكار هي نتاج القوى التاريخية) أي أن ما هو «حقيقي» في إحدى مراحل التاريخ سوف يفسح الطريق لحقيقة أعلى في المرحلة التالية[٣١]. تقصّى هيغل جميع الفلسفات والرؤى الكونية المتضاربة، جميع الادعاءات الدينية المتنافسة، جميع المعسكرات والحضارات المتحاربة، وقدّم اقتراحه ليتغلب على النزاع من خلال معاملة كل منها على أنها حقيقة جزئية ونسبية في التقدم الصاعد للعقل، تطور الوعي.

ما هو الخلل المنطقي في النزعة التاريخية؟ إنها داحضة لذاتها. إذ يجب أن يتضمن الادعاء بأن كل فكرة هي حقيقة جزئية ونسبية ادعاءه الخاص. وكأي فكرة ناشئة أخرى فإنها نسبية في اللحظة الخاصة بها في التاريخ، وبالتالي ليست صحيحة في أي منطق عابر للتاريخ. يقول الفيلسوف جون باسمور John Passmore، لا تستطيع أن «تحافظ على فكرة أنه لا وجود لحقائق فلسفية خالدة، باعتبارها حقيقة فلسفية خالدة»[٣٢].

تجنّب هيغل هذا الاستنتاج الهدّام فقط عبر استثناء نفسه ضمنيًّا، كتب وكأنه كان وحده قادرًا بطريقة غامضة أن يعلو فوق العملية التطورية، وكأنه وحده قادر على المشاهدة الموضوعية الأزلية الكاملة للعملية التاريخية بأجمعها.

ولكن لقد دلّ هيغل ضمنيًّا بالطبع من خلال استثناء نفسه على أن هنالك شيئًا واحدًا لا يشمله نظامه، وأقصد بذلك تفكيره الخاص. وقد قدّم بذلك تناقضًا منطقيًّا إلى نظامه وبالطبع فإن أي تناقض ضمن نظام فكر يشوّه سمعته. (تتعرض الكثير من الرؤى الكونية لهذا العيب المنطقي ذاته. سوف نسبر أغواره على نحو أعمق في **المبدأ الرابع**) .

• ثلاثية العِرق، الطبقة، الجنس

تقدمنا في أيامنا هذه أشواطًا طويلة بعد العصر الرومانسي ومع ذلك فإن التقليد القاريّ يستمر في ممارسة تأثير واسع، انتقل من المثالية خلال سلسلة من الخلفاء (مثل الوجودية) والتي لن نخصص وقتًا لمناقشتها، وقد أنجب في العقود الحديثة مذهب **ما بعد الحداثة**، وإن من السخرية المحزنة أن مذهب الرومانسية كان يُعتنق معاكسةً للاختزالية التنويرية إلا أن مذهب ما بعد الحداثة أصبح اختزاليًّا ولا إنسانيًّا على حد سواء.

غالبًا ما نواجه تيار ما بعد الحداثة في حياتنا اليومية على شكل الكياسة السياسية، التعددية الثقافية، سياسات الهوية، قواعد الخطاب. أصبحت قوانين الكياسة السياسية في الخطاب صارمةً في معظم المؤسسات الاجتماعية: المدارس، الجرائد، القانون، السياسة. اشتكى أستاذ في جامعة هارفرد أن الطلاب في حرم العديد من الجامعات «يُمنعون من حرية التعبير بإلزامهم بقواعد الخطاب التي لا يمكن أن تجتاز اختبار القهقهة بنجاح إن أجري بناءً على أسس التعديل الأول للدستور الأميركي»[٣٣] تحدد هذه القوانين الطرق المقبولة للتحدث جهرًا حول العِرق، الطبقة الاجتماعية، الجنس من حيث التذكير والتأنيث، الاثنية، الهوية الجنسية، وهكذا. تحدد ما بعد الحداثة هوية الشخص عمليًّا من حيث الجماعات التي ينتمي أو لا ينتمي إليها.

كيف انتقلنا من هيغل إلى ما بعد الحداثة؟ بالنسبة لهيغل فإن الفاعل الحقيقي في التاريخ ليس الفرد وإنما العقل المطلق أو الروح المطلقة التي تعبّر عن نفسها من خلال قوانين المجتمع، الأخلاق، اللغة، العلاقات الاجتماعية وهكذا. تقبّل هيغل مثالية كانط Kant التي يتألف العالم تبعًا لها من الوعي ولكنه بالنسبة إليه وعي جماعي. كما يفسّر ذلك أحد الفلاسفة، يخلق العقلُ المطلقُ العالمَ «من خلال وجهات النظر المشتركة للحضارة والمجتمع، وقبل ذلك كله من خلال اللغة المشتركة».

بالطبع فبالنسبة لهيغل فإن الأفراد **لا يمتلكون** حتى أفكارًا أصيلة من تلقاء أنفسهم. أفكارهم هي بالكاد تعبيرات عن العقل المطلق. وكما صاغها بكلماته فإن الأفراد «هم طوال الوقت الأدوات اللاواعية **لعقل العالم** الذي يعمل فيها»[٣٤].

ومع مرور الوقت فإن الحلولية أو وحدة الوجود التي قدمها هيغل قد أُعطِيت طابعًا علمانيًا واختُزِلت الروح المطلقة التي قدمها إلى مجاز، أي روح العصر أو كما يُقال في الألمانية زايتجايست[٣٥] (Zeit تعني الزمن أو العصر، geist تعني الروح). على كل حال فإن ما بقي هو فكرة أن الأفراد هم «أدوات لاواعية» للزايتجايست. إنهم ليسوا **منتِجين** للحضارة بقدر ما هم **منتجات** لحضارة معينة[٣٦]. يُقولب الأفراد بوساطة الجماعات التي ينتمون إليها، كل منها بما لها من وجهات نظر، قيم، عادات، لغة، وأشكال حياة.

أدى ذلك في يومنا هذا إلى الاستنتاج المتطرف بأن أفكار كل شخص هي بالكاد بِنى اجتماعية خِيطت معًا بوساطة قوى حضارية. إن الأفراد هم أكثر قليلاً من ناطقين باسم جماعاتهم بناءً على العِرق، الطبقة الاجتماعية، الجنس، الاثنية، والهوية الجنسية.

ما هو الوثن هنا؟ إن ما بعد الحداثة تجعل قُوى الحضارة أو الجماعة مطلقة. يسميها دووي ويرد Dooyeweerd «إيديولوجية الجماعة»[٣٧]. أُعِيد تعريف الحقيقة على أنها بنية اجتماعية، وبذلك تمتلك كل جماعة رؤيتها الخاصة للحقيقة بناءً على تجربتها ومنظورها وذلك ما لا يستطيع أي شخص خارج الجماعة أن يحكم عليها. يقيم أحد علماء لاهوت ما بعد الحداثة الادعاء مستخدمًا هذه الكلمات: «ليس هنالك حقيقة مطلقة: وإنما الحقيقة نسبية تبعًا للجماعة التي ننتسب إليها.» يقول رورتي Rorty إن الحقيقة بالكاد «اتفاق بين أشخاص» وسط أشخاص ضمن جماعة معينة[٣٨].

ولذلك فإن ما بعد الحداثة هي نوع من اللاواقعية anti-realism، وهي المعتقد بأن الواقع يعتمد على عقولنا من أجل صفاته ومن الممكن حتى من أجل وجوده. صاغ نيتشه مصطلح **اللاواقعية** ليصف رؤيته الخاصة والتي جمعها في شعار «ليس هنالك حقائق، هنالك تفسيرات فحسب». أو كما يقول أحد كتّاب ما بعد الحداثة، «إن الواقع قد أصبح مجرد حزمة من التفسيرات المتفاوتة والمتغيرة، انضمام متهدل متزحزح يجمع وجهات نظر في نزاع مستمر بعضها مع بعض»[٣٩].

إن تشظّي الواقع إلى تفسيرات متنازعة يؤدي إلى تشظّي مفهوم الهوية الذاتية أيضًا. يقول مذهب ما بعد الحداثة بأنه لا وجود للنفس الموحّدة، بل إن النفس هي ببساطة مستقرّ وجهات النظر المتبدلة التي تُشرِّبت من جماعات تفسيرية مختلفة، يعرّف كل منها «حقيقته" الخاصة. تذكّرْ أن التنويرية قد عاملت الفرد على أنه عقل روحي صرف متحرر من حاجات الجسد قادر على تجاوز الزمان والمكان وتحقيق رؤية بعين الله (انظر **المبدأ الأول**). وكردّ فعل، فإن ما بعد الحداثة تقيّد وعي الأفراد بالجماعات ذات المنظور المشروط بالتاريخ والجغرافيا.

وحتى العلم، وهو العجل الذهبي لمذهب الحداثة، لا يعتبر حقيقيًّا بأي معنى كلي. ومثل جميع الأشكال الأخرى للمعرفة فإن العلم هو بنيان اجتماعي. إن أتباع ما بعد الحداثة يوافقون نيتشه الرأي حول ما كتبه، «كل ذلك الامتثال للقانون، الذي يدهشنا للغاية في النجوم وفي العمليات الكيميائية، يتوافق في الأساس مع هذه الخصائص التي نجلبها **نحن** للأشياء»[٤٠]. إن كان العلم مجرد ابتكار آخر ابتكره عقل الإنسان، فلماذا يجب أن يُمنح أية منزلة خاصة أسمى من طرق التفكير الأخرى؟

وإن لم يكن هنالك حقيقة موضوعية أو كونية، فإن أي **ادعاء** بغرض الحصول على حقيقة موضوعية سيُعامل على أنه مجرد محاولة إحدى الجماعات المُفسّرة لفرض تفسيرها المحدود غير الموضوعي على الجميع. إنه عمل اضطهادي، انتزاع للقوة.

• جذور الكياسة السياسية

وكبقية الأوثان، فهنالك أشياء صحيحة تتعلق بما بعد الحداثة، فقد قدمت خدمة جيدة في مواجهة مذهب الفردية individualism المهجور حول النفس المستقلة في حركة التنوير. إنها ترفض مشروع أتباع مذهب الحداثة لمفكرين مثل بيكون Bacon وديكارت Descartes حول بدء التاريخ من جديد من الصفر ضمن الوعي الفردي المعزول. وتنكر أننا نستطيع أن نصل إلى أسس معرفة ناجعة من خلال الحدس المباشر لما يحتويه العقل الفردي[٤١].

وخلال العملية، سخر أتباع ما بعد الحداثة من مطالبات حركة التنوير بمجموعة معارف محايدة، خالدة، محررة من القيم. أصرّوا أن الأفراد الأحياء الحقيقيين يقدمون دومًا درعًا كاملة

من الالتزامات والاهتمامات والأهداف والطموحات المسبقة، حتى في مجالات مثل العلم والتي تكون فيها الموضوعية هي المعيار المتوقع.

على كل حال فإن هذه البصيرة ذاتها كان قد قدمها مفكرون مسيحيون منذ وقت طويل، إن الدين نفسه مليء بالتحذيرات من أن عبادة الأوثان تؤدي إلى نوع من العمى الروحي والفكري. يخبرنا سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ أننا عندما نرفض الإقرار بالإله تصبح أفكارنا «حمقاء» و «تُظلِم» قلوبنا (رسالة بولس إلى أهل رومية ١ ٢١:١) يسمي اللاهوتيون هذا بالتأثير **العقلي** ***noetic*** للخطيئة من الكلمة اليونانية ***nous*** والتي كما رأينا سابقًا لا تعني فقط العقل وإنما أيضًا صميم كينونتنا. علّم المصلحون البروتستانتيون أننا عندما ننصرف عن الإله في الصميم، فإن كل شيء نفعله سوف يتأثر بما في ذلك تفكيرنا، إننا نأتي إلى مكاتبنا أو مختبراتنا مع عدّة جاهزة معقدة من الحوافز والنَزَعات والتي إلى درجةٍ ما تحدد مسبقًا ما نقبله على أنه معقول أو صحيح. وبعيدًا عن كون عقولنا ألواحًا بيضاء محايدة فإنها مهيأة لكي تفسر البيانات الجديدة في ضوء الإيمان الذي نعتنقه، أي ما نريده أن يكون صحيحًا.

ومع ذلك فإن أتباع ما بعد الحداثة يتجاوزون عادةً هذه البصيرة السليمة الفطرة من الدين إلى اتخاذ ادعاء أكثر تطرفًا بكثير وهو أنه ليس هنالك حقيقة خارج العقل extra-mental truth. ويختزل ادعاءات الحقيقة إلى تركيبات اجتماعية، وتختزل الأفراد إلى دمى متحركة بين يديِ القوى الاجتماعية. إن المعنى الضمني هو أن الناس يعتنقون أفكارًا محددة ليس لأن لهم أسبابًا وجيهة، وإنما لأنهم ذوو بشرة سوداء أو بيضاء، لأنهم رجال أو نساء، آسيويون أو أمريكيون لاتينيون، أو غير ذلك.

إن هذه الفكرة تجرد من الإنسانية جذريًا، وتقتضي ضمنًا أن الأفراد مغلوبون على أمرهم بحيث لا يستطيعون أن يرتفعوا عن الجماعات التي ينتمون إليها. إنها نوع من الاختزالية التي تصهر هوية الفرد في هوية الجماعة، وإن قائمة هويات الجماعة تستمر بالازدياد. وإن كلية كيندي للعلوم السياسية في جامعة هارفرد قد أعلنت حديثًا أن على جميع الطلاب المستجدين أن يخضعوا «لتدريب إلزامي حول السلطة والحظوة لفحص عناصر العِرق، الجنس، الطبقة الاجتماعية الاقتصادية، التوجه الجنسي، المقدرة، الدين، الحالة الدولية والاختلافات بالسلطة»[١٢].

لم تعد أقسام الفنون الحرة في العديد من الجامعات تدرّس الكلاسيكيات بعد الآن، وإنما تشغل الطلاب بالأعمال المعاصرة حول السياسات العِرقية والجنسية، وإن دُرِّست الكتب الكلاسيكية في الأدب والفلسفة فستحتوي غالبًا على «تحذيرات منبّهة». تتضمن النسخة الكاملة لكتب **النقد** الثلاثة التي ألفها **كانط** Kant لصاقة تحذيرية على صفحة العنوان: «إن هذا الكتاب منتج عصره الخاص ولا يعكس القيم ذواتها كما لو كُتب اليوم. ربما يودّ الآباء أن يتناقشوا مع أولادهم عن كيفية تغير الآراء حول العِرق، الجنس، الحياة الجنسية، الاثنية، والعلاقات الشخصية منذ أن كُتِب هذا الكتاب قبل السماح لهم بقراءة هذا العمل الكلاسيكي.» ما يدعو للسخرية هو أن **كانط** Kant كان لديه تأثير هائل في تطور مفهوم اللاواقعية للحقيقة، ولكن لم يكن ذلك ما أثار مخاوف المعلمين وإنما قلقوا حول انتهاك **كانط** Kant للكياسة السياسية[٤٣].

إن ما بعد الحداثة بعيدة للغاية عن المادية المتفشية في قسم العلوم ولكنها مجرِّدة للإنسانية بالقدر ذاته. تختزل المادية الإنسانَ إلى منتجات للقوى **الفيزيائية**، بينما تختزلهم ما بعد الحداثة إلى منتجات للقوى **الاجتماعية**. في أي وقت تعلن فيه فلسفة ما أن شيئًا ما مُطلق، بغض النظر عن ماهيته، ستكون النتيجة هي الاختزالية، التي هي نظرة دونية لذات الإنسان. إن أتباع مذهب ما بعد الحداثة أنفسهم يَسِمون رؤيتهم بأنها «مناهضة لمذهب الإنسانية anti-humanism» ويقصدون أن الشخص البشري ليس لديه القوة لكي يسمو فوق الشروط الاجتماعية والتاريخية، أي روح العصر «الزايتجايست».

لكن في تلك الحالة لا يملك الفرد موقفًا مستقلاً يمكنه أن **ينتقد** الزايتجايست، وكما يشير دالاس ويلارد Dallas Willard «بالكاد تترك لك ما بعد الحداثة ساقًا واحدةً منطقية تستطيع أن تقف عليها وتعارض... روح العصر»[٤٤].

وبالمقابل يقدم الدين حقيقة سامية، رؤية غير مقيّدة بروح العصر، إنها تحرر الأفراد لكي يفكروا بطريقة ناقدة حول روح الشعب السائدة ethos.

• سقوط مذهب ما بعد الحداثة

كنت أتحدث في كلية بروتستانتية عندما سأل أحد الطلاب، «نعيش في عصر ما بعد الحداثة حيث لم يعد أحد يأبه بالحقيقة، كيف نتحدث إلى الأشخاص غير المقتنعين بالحقائق والأسباب؟» من الصحيح أن أتباع مذهب ما بعد الحداثة قد لا يكونون معجبين بعلم الدفاع عن الدين المبني على الحقائق ولكن من الممكن التفاهم معهم من خلال الحجج مستخدمين لغتهم الفكرية.

ولنبدأ برؤيتهم للحقيقة، يرفض أتباع ما بعد الحداثة أي ادعاء حول حقيقة سواء كلية أو موضوعية أو أبدية. يصرون أن وجهة نظر كل شخص «قائمة» ضمن سياق معيّن، محلي، وتاريخي عارض. ولكن بالطبع، ينطبق النقد ذاته على ادعاء أتباع ما بعد الحداثة، فهم أيضًا «قائمون" ضمن سياق معيّن وتاريخي. في نهاية المطاف، من أين أتى مذهب ما بعد الحداثة؟ كما رأينا، إنه شعبة من الحضارة الأوروبية الحديثة، تشعّب من الفلسفة القارّية ما بعد الهيغلية مع مفهومها بأن الأفراد يُنشَؤون اجتماعيًّا من خلال جماعاتهم وأشكال حياتهم.

يَتهمُ أتباعُ ما بعد الحداثة المؤمنين عادةً بأنهم ضيقو الأفق ومحدودو التفكير، ولكن ما بعد الحداثة ذاتها سجينة ضمن خط معين من التاريخ الفكري الغربي، ولذا فإن أتباع ما بعد الحداثة مقيدون بآفاقهم التاريخية الخاصة بقدر الناس التقليديين الذين ينظرون إليهم بتعالٍ.

ومثلهم مثل أي شخص آخر تمامًا فإن إصرارهم حصريّ على أن رؤيتهم تلتقط الأمور على حقيقتها.

وباختصار فإن الاستدلال ذاته الذي يستخدمه أتباع ما بعد الحداثة ليسخروا من المفاهيم التقليدية للحقيقة ينطبق أيضًا على رؤاهم الخاصة.

حدّث بعض أتباع ما بعد الحداثة تاريخية هيغل من خلال ربطها بنظريات التطور المبنية على العلم. ومثال على ذلك نذكر رورتي Rorty الذي حاجّ بناءً على التطور الداروينى بأنه لا وجود للحقائق الأبدية، أي أن جميع أفكارنا «هي منتجات الوقت والمصادفة.»[٥] ولكن استنتاجه يستند على افتراض أن التطور الداروينى صحيح، وذلك بالضبط هو المنطق الذي ينكره أي أن يكون أي شيء صحيحًا.

دُعيتُ مرةً في برنامج إذاعي لمناظرة بروفسور في معهد للتعليم العالي يصف نفسه بأنه من أتباع ما بعد الحداثة. كان سؤالي، لماذا قد يرغب مؤمن في اعتناق ما بعد الحداثة؟ الأمر مفروغ

منه، إنها تقلّص ادعاءات الحداثة حول الحقيقة الكلية من خلال إظهار أن الحداثة هي وجهة نظر محدودة ومشروطة تاريخيًا. ولكن هذا ينطبق أيضًا على ما بعد الحداثة، لماذا أرغب كمؤمن بإلزام نفسي بفكرة هي مجرد نتاج اجتماعي؟

يصف الدين الأوثان بأنها بِدَع إنسانية، «عَمَلُ أَيْدِي النَّاسِ». (سفر المزامير ١١٥:٤؛ ١٣٥:١٥). «وَالصُّنَّاعُ هُمْ مِنَ النَّاسِ.» (سفر إشعياء ٤٤:١١). إن من يعبد الأوثان «يَسْجُدُونَ لِعَمَلِ أَيْدِيهِمْ لِمَا صَنَعَتْهُ أَصَابِعُهُمْ.» (سفر إشعياء ٢:٨). لماذا قد يبني المؤمنون حياتهم على **أيّة** فكرة من منتجات التفكير البشري، «حِكْمَةَ هذَا الْعَالَمِ؟» (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس ١ ١:٢٠) يتوق قلب الإنسان للحقيقة السامية والأبدية. إن الله قد «جَعَلَ الأَبَدِيَّةَ فِي قَلْبِهِمِ» (رسالة الجامعة ٣:١١).

لا يستطيع الفاني أن يصل إلى الأزليّ، لذا فإن الطريقة الوحيدة الممكنة لكي نعرف الحقيقة السرمدية هي في حال تواصلَ الإله مع الجنس البشري، فيمنحه منظوره الأعلى. وذلك تمامًا هو الادعاء المُزلزِل الذي يقدمه الدين: أن هناك وحيًا من الله هو رسالته التي أعطانا فيها معلومات عن ذاته وعن الكون والتاريخ. بل إن المؤمنين يسلّمون بقوة بهذا المفهوم إلى درجة أنهم يجعلونه مساوِيًا للادعاء المدهش بأننا بالفعل نستطيع الوصول إلى رؤية العالم بعين الله، وهي منظور أبعد من مجرد معرفة الإنسان، إنها حقيقة خالدة وسامية.

بالطبع فإن فهمنا لتلك الحقيقة لن يكون كاملاً أو مفصلاً على الإطلاق، يترشّح فهمنا من خلال عقولنا البشرية الساقطة المعرضة للخطأ المتأثرة بحضارتنا وظروفنا. رغم ذلك فهنالك نوافذ للسمو، تعطينا كلمة الله في الكتاب المقدس منفذًا للوصول إلى الحقائق التي «لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ». (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ١:١١). يقدم الدين كمواجهة لتاريخية ونسبية الحداثة الادعاءَ المُعتق بأن البشر يمتلكون منفذًا للوصول إلى الحقائق عبر التاريخ لأن الله ذات نفسه قد تحدث.

يقرّ رورتي Rorty في فقرة صادمة بأن المفهوم ذاته للحقيقة الموضوعية متأصل في الإيمان الديني وهو أن الكون كان قد «خلقته ذات.» ويكتب أن فكرة وجود حقيقة أبعد من ذاتية الإنسان «هي بقايا فكرة أن العالم هو خلق إلهي، عمل شخص... تكلم **بذاته** لغة ما وصف من خلالها مشروعه الخاص»[١١].

وبكلمات أخرى فالحقيقة الموضوعية ممكنة فقط إن تكلم الخالق إلى الجنس البشري فمنحنا منظوره السامي السرمدي، ليس عن موضوعات الخلاص فحسب بل أيضًا عن التاريخ والكون. ولنعتمد عناوين كُتُب شيفر Schaeffer لا يكفي أن يكون **الإله موجودًا** بل من المهم أيضًا **ألا يكون صامتًا**.

وفقط إن أرسل الله لنا، أي إن أرسل السرمدي إلى المحدود، فمن الممكن أن نتحرر فلا نبقى مأسورين في عقولنا الفردية كما هو حال المفكرين التنويريين، أو مأسورين في عقولنا المشتركة كما هو حال مفكري ما بعد الحداثة. سوف تمنحك استراتيجية علم الدفاع عن العقائد الدينية أداةً تساعد في إعتاق هؤلاء المأخوذين أسرى «بِالْفَلْسَفَةِ وَبِغُرُورٍ بَاطِلٍ، حَسَبَ تَقْلِيدِ النَّاسِ» (رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢:٨). سوف تعلمك كيف «تزيل القناع عن الأوثان الزائلة»[٤٧] وتوجه الناس تجاه الحقيقة الأزلية.

• وحدة الوجود مقابلك أنت

لقد اقتفينا حتى الآن أثر نوعَين مختلفَين تمامًا من الاختزالية ناتجَين عن فلسفَتين واسعَتي الانتشار: المادية وما بعد الحداثة. تعطينا أيضًا استراتيجية علم الدفاع عن الدين في رسالة بولس إلى أهل رومية ١ أدوات لتشخيص الاختزالية الناتجة عن الدين. فلنتمرن على تطبيق هذه الأدوات على وحدة الوجود الشرقية والإسلام.

تعلمنا فيما سبق أن المفكرين الرومانسيين قد اعتنقوا النسخة الغربية لوحدة الوجود، فليس من المفاجئ أنهم كانوا منفتحين أيضًا على النسخة الشرقية. أصبح شوبنهاور Schopenhauer في أواخر القرن التاسع عشر الفيلسوف الأول الذي استجلب البوذية في أوج تفتحها إلى الغرب. كما رفعت حركة العصر الجديد في يومنا الحالي الأديان الشرقية إلى مرتبة درجات الأناقة.

تُلخَّص وحدة الوجود Pantheism نموذجيًّا بأنها المعتقد بأن الإله هو الكون، والكون هو الإله (pan تعني كل وtheism تعني الإله).

يسمّى الله بالواحد أو الكل. يُرى الكون بأنه تجلي الجوهر الإلهي أو انبعاثه.

هل هذا وثن؟ بالتأكيد.

تحاجّ وحدة الوجود نموذجيًّا بأن تعاليم الدين حول الإله المتعالي قد صرفتنا عن الطبيعة، حيث سببت اعتداء وسرقة الحضارة الغربية على الأرض. يدّعون أننا لو غرسنا حسّ الاتحاد الروحي مع الطبيعة فسوف نحظى بتبجيل أعظم للحياة كلها.

هل ذلك الادعاء صحيح؟ كلا على الإطلاق. والسبب أنه، ومثل كل الأوثان، فإن وحدة الوجود اختزالية، إنها تؤدي إلى رؤية أدنى للحياة.

كيفما تعرّف الرؤية الكونية الإله يصبح ذلك التعريف هو العدسة التي ترى من خلالها كل شيء، أو الغربال الذي تنخل من خلاله ما هو حقيقي. إن الإله في وحدة الوجود هو وحدة روحية ضمنية «حلولية»، الواحد. إذًا فإن ما يمر من الغربال هو التنوع، الاختلاف، الفردية. أما في الهندوسية فإن هويتك الفردية في الحقيقة تسمى مايا ***maya*** والتي تعني الوهم، يُنظر إليها بأنها سبب الشر، الأنانية، الجشع، والحرب. إن الهدف من التأمّل هو إذابة إحساسك بأنك ذات منفصلة عن طريق الاندماج مع الذات الكونية، الكل غير المتمايزة، كقطرة ماء تتبعثر في المحيط. أما في البوذية فإن الكلمة ***nirvana*** تعني حرفيًّا «أن تصبح خامدًا»[٤٨].

يُعبَّر عن فقدان الذات في قصيدة للشاعر الصيني لي بو Li Po، تدور القصيدة حول قدوم المساء وتنتهي بهذه الكلمات:

نجلس معًا، أنا والجبل

حتى لا يبقى إلا الجبل

عادةً ما تُقتبس هذه القصيدة في كتب التأمل كتعبير مؤثر عن توحّدنا مع الطبيعة، ولكن لاحظْ أن في هذا التوحّد تُفقد «الأنا»، تذوب في حجارة جانب الجبل. وكما تشرح قصيدة معاصرة، إن الجبل يمثّل الواحد السرمدي: «تطيل النظر في هذا {الجبل} الخالد الوجود، فتجد في سكونه العميق أنه لا وجود لك لكي تُرى، تندهش باكتشافك أن كل ما سمّيته لا إراديًّا {أنا} لم يكن موجودًا على الإطلاق أساسًا»[٤٩].

إن الرسالة الضمنية هي أن للذات الفردية قيمة ضئيلة جدًّا بحيث يجب أن تذوب في الواحد، حيث إنها «لم تكن موجودةً مطلقًا في الأساس». لقد كانت وهمًا.

هنالك سبب آخر لأن وحدة الوجود تؤدي إلى رؤية دونية لحياة الإنسان وهو أن الإله ليس ذاتيًا. إن مفهوم الإله في وحدة الوجود التقليدية ليس ربًا ذاتيًا يفكر، يريد، يشعر، ويفعل ولكنه قوام روحي غير ذاتي، غير مفكر، غير فاعل مستبطن لكل شيء[1]. يفسّر أحد معتنقي البوذية السابقين (والذي تحوّل إلى المسيحية) أن الإله في وحدة الوجود «جوهر غير واعٍ وغير ذاتي والذي قد يُسمّى الإله، الطبيعة، المُطلق، الأحدية»[50].

بالنتيجة، من المدهش أن وحدة الوجود لا تختلف كثيرًا عن المادية، إنها الوجه الآخر للعملة ذاتها. تدعي المادية أن كل شيء يتألف من أشياء مادية، تدّعي وحدة الوجود أن كل شيء يتألف من أشياء روحية، وكلتاهما غير ذاتية، ولذلك تفشل كلتاهما في أن تفسر الأبعاد الذاتية لطبيعة البشر، وما لا تستطيعان تفسيره فسوف تطمساته وتنكرانه في النهاية.

ذلك هو النمط الاختزالي، كل رؤية كونية مبنية على وثن تسعى وراء حشر كل الواقع في صندوق، على كل حال فإن شيئًا ما سوف ينتأ خارج الصندوق لا محالة، سوف يخفق شيء ما في الاتساع ضمن تصنيفاته المفاهيمية. تعرّف كل من المادية ووحدة الوجود الحقيقة الجوهرية بمصطلحات غير ذاتية، ولذلك تفشل كلتاهما في تفسير ذاتية الإنسان، ولذلك ينتهي بهما المطاف بإنكار وتشويه سمعة وإنقاص قيمة السمات الفريدة للذات الإنسانية. يُختزل البشر إلى منتجات للقوى غير الذاتية، يذوب الفرد في حجارة جانب الجبل[51].

إن أي نظام يبدأ بقوى غير ذاتية سوف يَطمِس في النهاية ذاتية الإنسان، سوف يَختزِل الأشخاص إلى مكونات قالب كينونة أعمى غير واعٍ، لا يمكن للماء أن يعلو فوق منبعه.

وإن السؤال المحيّر هو لمَ هذه الرؤى الكونية شائعة إلى هذه الدرجة. في النهاية، فإن أكثر ما نتوق إليه هو أن نكون معروفين ومحبوبين لما نحن عليه كذوات فريدة، توق لا يتحقق إلا إن كان الإله ذاتًا. إن إله المسيحية لا يمحو هويتنا الفردية وإنما يؤكدها، إنه يدعونا لنصبح تمامًا الأفراد الفريدين الذين خلقنا بغرض أن نكونهم. وعلى عكس الصوفية الشرقية، فإن الهدف هو عدم طمس رغباتنا وإنما توجيهها لما يرضي بالفعل، أي إلى علاقة الحب العميق مع الذات الجوهرية السامية.

---

(١) من الأفضل هنا تذكر هذا الكلام من المؤلفة نفسها لأنه يناقض تمامًا ما يعرفه المسلمون في القرآن والأحاديث عن الله الواحد الذاتي الذي له إرادة ومشيئة وقدرة وبائن عن مخلوقاته ليس متحدًا معها ولا حالًا فيها. (المترجم)

• الإسلام مقابل كرامة الإنسان

جميع الديانات التي نظرنا في أمرها، سواء أكانت شرقية أم وثنية، تتلاءم مع تشخيص رسالة بولس إلى أهل رومية ١، إنهم يعبدون المخلوق بدلاً من الخالق، إنهم يطلقون على ما هو راسخ ضمن الكون صفة المُطلق. وبما أن ربهم هو شيء أخفض من إله الكتاب المقدس فإنهم يقودون إلى رؤية أدنى للذات الإنسانية، وكما يقول المبدأ الثاني فإنهم يقودون إلى الاختزالية.

إن الاستثناءات في هذه القاعدة هي الديانات التوحيدية الأخرى، اليهودية، والإسلام والتي تتشارك مع المسيحية في مفهوم الخالق السامي. وإنها تقرّ أيضًا على الأقل ببعض المقاطع ذاتها للكتاب المقدس[١]. سوف أترك اليهودية جانبًا بسبب علاقتها المعقدة مع المسيحية. تؤمن المسيحية بأن معتقدات مثل الثالوث موجودة في العهد القديم[٢]، حتى وإن كانت تُعلّم بتفصيل أوسع في العهد الجديد[٣]، ولذلك قال الإنجيل « لِلْيَهُودِيِّ أَوَّلًا» (رسالة بولس إلى أهل رومية ١:١٦ ١). إن مصطلح «اليهودي-المسيحي» يؤكّد على الكثير من الاستمرارية والتشابه.

---

(١) يشترك الإسلام مع غيره من الرسالات السابقة في إعلان العبودية لله، وفي الإيمان بالرسل والأنبياء، وفي العمل بصالح الأخلاق وترك الرذائل والمنكرات وهكذا... لكنه يختلف في تفاصيل خاصة بالعقائد المحرفة التي تسللت إلى تلك الرسائل سواء أصاب التحريف أصل التوحيد منها (مثل التثليث في المسيحية) أو عالمية الرسالة أو محدوديتها (مثل قومية اليهودية) وكذلك العبادات ونحوها. (المترجم)

(٢) لا يوجد نص صريح واحد في العهد القديم أو فيما يعرف بالتوراة يذكر التثليث أو الخلاص والفداء إلخ. وإنما محاولات من المسيحيين لخلع هذه المعاني بتأويلات لبعض الفقرات (خاصة فقرات البشارات برسول خاتم عظيم منتظر) لكي يتم سد جزء من ثغرة السؤال الكبير وهو: إذا كانت حياة البشر رهينة فداء المسيح وصلبه وخلاصه لهم، بل وشرط لدخول المؤمنين الفردوس إيمانهم بذلك، فماذا عن آلاف السنين ومئات الرسل والأنبياء الذين كانوا قبله؟ (المترجم)

(٣) جدير بالذكر أن العبارة الأشهر الدالة على التثليث صراحة في الأناجيل يراها بعض المحققين من المسيحيين أنفسهم أنه تمت إضافتها لاحقاً كصفقة بين القديس أثناسيوس والوثنيين الرومان ليقبلوا الدخول في المسيحية، ولعل أشهر من تبنى هذا الرأي بعد بحث وتمحيص هو العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن، حيث أرسل إلى جون لوك بهذه النتائج عام ١٦٩٠م (انظر موقع الموسوعة البريطانية مادة إسحاق نيوتن تحت عنوان: Interest in religion and theology) حيث آمن بإله واحد وبشرية المسيح ورفض التثليث وهو ما أوقعه في مشكلات كثيرة فيما بعد رغم عدم مجاهرته بها خوفاً من العقاب، وقد ذكرت المؤرخة كارين أرمسترونج بعض تفاصيل ذلك في كتابها عن تاريخ الأديان A History of God: The 4,000-Year Quest of Judaism, Christianity and. (المترجم)

وماذا عن الإسلام؟ أصبح الإسلام اليوم قوة جيوسياسية فاعلة، ويحاول المسيحيون البحث عن طرق أفضل لفهمه. يؤمن الإسلام بمقاطع من الكتاب المقدس المسيحي على أنها وحي إلهي (التوراة اليهودية، مزامير داود، الإنجيل)[٥٢]. رغم ذلك فإن مفهومه عن الإله يختلف في طرق مهمة عن اللاهوت المسيحي التقليدي، والاختلاف الأكثر وضوحًا هو رفض مفهوم الثالوث.

يعلّم القرآن أن المسيح ليس له صفة إلهية وإنما «رسول من الله فحسب»[٥٣]. يكتب العالم الإسلامي السيّد حسين نصر[(١)]، «يشدد القرآن باستمرار على وحدة ووحدانية الله ويمكن القول إن السبب المطلق لوجود الإسلام هو التأكيد بشكل قاطع ونهائي على وحدانية الإله وعلى عدمية كل من هو في حضرة جلالة الواحد». بناءً على تشديد الإسلام على وحدانية الإله، يؤكد بعض العلماء[(٢)] على أن الإسلام أقرب إلى وحدة الوجود في الأفلاطونية الحديثة والهندوسية منها إلى المسيحية[٥٤].

---

(١) أستاذ فلسفة شيعي إيراني الأصل من مواليد ١٩٣٣م، يعيش اليوم في أمريكا ويتبنى الفكر الصوفي وتقارب الأديان ومحاربة الفلسفات المادية والحداثية لمصلحة وجوب نشر الفكر الروحي بين الناس. (المترجم)

(٢) إيراد الكاتبة لوصف (العلماء) هنا مضلل إلى حد كبير للأسف، حيث تركت أصول الإسلام (القرآن وأحاديث النبي نفسه) ومئات العلماء منذ القرن الأول الهجري من أهل السنة والجماعة لتقتصر على آراء شاذة لا نجدها في كتب الدين الإسلامي إلا مذمومة ومتهمًا أصحابها بالأقوال الكفرية، مثل القول بوحدة الوجود (أي الخالق والمخلوق واحد ومتحدان معاً) أو الحلول والاتحاد (أي أن الله يحل في الأشياء أو يتحد بها حتى المستقذر منها والنجس)، وغير ذلك من الفلسفات الشرقية الوثنية التي حاول خلطها بالإسلام بعض المتصوفة مثل ابن عربي وجلال الدين الرومي وبعض الفلاسفة مثل الفارابي وإخوان الصفا، بل العجيب أن أكبر نقطة تميز الإسلام عن المسيحية واليهودية هي بقاء ذلك الأصل (القرآن والسنة) إلى اليوم لم يمسه التحريف، فلماذا لم تستشهد الكاتبة بنصوص من هذا الأصل مثلما فعلت مع كل (الأصنام) التي ذكرتها سابقاً بإيراد أقوال لمؤسسيها ورعيلها الأول؟ هل لم تعلم مئات النصوص الصريحة في القرآن نفسه ومئات الأحاديث الصحيحة في السنة والتي تدل على ذاتية الله وأنه مُباين لخلقه مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ الزمر: ٦٢ لتذكر للقارئ آراء أشخاص لا يمثلون شيئاً عبر تاريخه المديد، إذ بالنظر إلى المرجع (٥٤) الذي وضعته المؤلفة في آخر الكتاب لهذه النقطة نجد أن (العلماء) الذين ذكرتهم هنا دون تفصيل كممثلين عن الإسلام هم: الفيلسوف الفرنسي- رينيه غينون René Guénon المتوفى عام ١٩٥١م، والذي بعد إسلامه حاول تعديل الإسلام ليتواءم مع الروح الغربية، ونجده يتحدث بدوره عن الأفلاطونية الحديثة وما وافقها من فكر الفارابي وإخوان الصفا (في القرن الثالث الهجري) ليتماشى ذلك مع ما اختارته المؤلفة من كلام حسين نصر الشيعي الإيراني الصوفي الذي ما زال على قيد الحياة، يقول الإمام أبو زرعة الرازي المتوفى عام ٢٦٤هـ: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار، فكان مذهبهم أن الله على عرشه باثن من خلقه كما وصف نفسه بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً». (المترجم)

ونتيجة لذلك يفتقد المفهوم الإسلامي للألوهية وجود عناصر رئيسة للذاتية. مثلًا، انظر في الصفات المرتبطة بالعلاقة، يستطيع الإله من خلال العلاقة فقط أن يعبّر عن السمات ما بين الأشخاص مثل الحب، التعاطف، الألفة، الإيثار، والتواصل. ولا يوجد عطاء وأخذ، بدء واستجابة، مشاركة وبوح، توحّد ومشاطرة إلا بين الأشخاص المستقلين فحسب.

حتى يكون الإله ذاتيًا بالكامل وبالتالي قادرًا على الحب والمشاركة فلا بد أن يكون هنالك تعددية خالصة في كينونة الإله. يُدرّس علم اللاهوت المسيحي التاريخي أن هذه السمات ما بين الشخصية كانت تُعبَّر منذ الأزل بين الذوات الثلاث للثالوث. تستطيع المسيحية في هذه الطريقة أن تُبقي ضمن الربوبية المفهومَ الأعلى لما يعنيه أن تكون كائنًا ذاتيًا.

يكتب سي إس لويس C. S. Lewis «إن جميع أنواع الناس مولَعون بترديد العبارة المسيحية بأن {الله محبة} ولكن لا يبدو أنهم يلاحظون أن الكلمات {الله محبة} ليس لها معنىً حقيقي إلا إن اشتمل الإله على ذاتين على الأقل، إن الحب هو شيء تمتلكه ذات لذات أخرى، إن كان الإله ذاتًا وحيدة إذًا فقبل أن يُصنع العالم لم يكن الإله محبة.»" (أو إن كان فعلاً يمتلك القدرة على الحب فلم يكن لديه سبيل ليمارسه، ولكي يُرضي طبيعته فسوف يحتاج أن يخلق العالم، وبأي الحالين سوف يكون معتمدًا على الخلق، وذلك ليس الإله في تعاليم الإسلام أو المسيحية)[1].

---

(١) طرح بعض المسيحيين هذه الحجة بأن (الله يحب) وهو (أزلي) إذًا يجب أن يكون هناك (إله آخر) أزلي ليحبه، رغم أنها ساقطة منطقيًا، لأننا إذا عممناها على كل صفات الخالق للزم لكل صفة إلـهٌ أزليٌّ مع الله لتتحقق الصفة، فالله يعاقب (إذًا هناك إله أزلي مُعاقَب) والله يسامح (إذًا هناك إله أزلي مُخطئ) وهكذا (ومن هنا نعرف لماذا تقتصر أمثلتهم على صفة المحبة فقط حتى لا تتعرض الحُجة كلها للهدم)، وأما الصواب (كما عندنا في الإسلام) فهو أن صفات الله تعالى أزلية بأزليته، وهي لا تحتاج ولا تنتظر أحداً لتكون فهي كائنة في ذاته بالفعل، مثال الشخص الكريم، فهو كريم في ذاته سواء ظهر مَن يتكرم عليه أو لم يظهر، فالكرم صفة فيه (ولله تعالى المثل الأعلى والمثال للتقريب فقط)، وعليه نجد أن المحاولة لتسويغ الثالوث بهذه الصورة تبقي فكرة التثليث والأقانيم الثلاثة في الجوهر الواحد عصية على الفهم والتبرير منذ القرون الأولى لمحاولات تحريف المسيحية وإلى اليوم، حيث نجد الكثير من الأشخاص والجماعات قد جاهروا بإنكار التثليث Nontrinitarianism أو معاداته Antitrinitarianism بمن فيهم مَن عاشوا قبل مجمع نيقية ٣٢٥م الذي تم فرض فكرة التثليث فيه بالجبر وإضافتها قسرًا في الأناجيل الأربعة المختارة وقتل واضطهاد مَن عاداها (مثل الأريسيين)، مروراً بعشرات الكنائس والجماعات المتفرقة طيلة عشرات القرون الماضية، ثم مؤخراً في عصر التنوير بالقرن ١٨ ثم توابعه في الصحوة الكبرى الثانية بالقرن ١٩ وصولاً إلى فرق تراهم الكنيسة منشقين عن المسيحية مثل المورمون وشهود يهوه. (المترجم)

إن إلهًا مع صفة الحب هو فقط ما يكون ذاتيًّا بالكامل، لذلك فإن الثالوث أمر حاسم للمحافظة على مفهوم تام عن الذاتية الشخصية للإله. وكما يكتب عالم اللاهوت روبرت ليثام Robert Letham «إن الإله الثالوثي فقط يمكن أن يكون ذا ذات شخصية... لا يستطيع الفردي الوحيد أن يحب، وبما أنه لا يستطيع أن يحب فلا يمكن أيضًا أن يكون ذاتًا شخصية.» ولذلك فإنه «لا يمتلك طريقة ليفسّر أو حتى يحافظ على ذات الإنسان»[٥٦].

وما يثير الدهشة أن **موسوعة ستانفورد للفلسفة** قد ذكرت أن الإسلام لا يمتلك حتى مفهومًا حول الذات: «ليس هنالك مرادف مفاهيمي للمفهوم الفلسفي الغربي حول {الذات الشخصية} في اللغة العربية والفلسفة الإسلامية التقليدية»[(١)]. يبدو أن هذه الحقيقة «تؤكّد على أهمية الأصول النوعية للمصطلح... المسيحي على التحديد»[٥٧].

إن كان صحيحًا أن الإسلام يفتقد حتى لمفهوم واضح عن الذات فذلك سوف يفسر سبب ميله لأن يكون يؤمن بالقدر fatalistic مؤكّدًا على الخضوع التام لإرادة الله (**الإسلام** يعني الخضوع). وكما يشرح أودو ميدلمان Udo Middelmann، «إن الإسلام هو دين الاستسلام resignation... إن الله قد صنع العالم وعليك أن تقبل الطريقة التي يتفاعل بها معك حتى وإن كان سيقتلك، ليس مسموحًا لك طرح الأسئلة أو الشك أو المسؤولية الفردية. إن إنكار النفس هو خلاصك»[(٢)].

---

(١) هل تستحضرون كلام المؤلفة منذ عدة صفحات والذي طلبنا منكم تذكره لأننا سنحتاجه الآن؟ ها هو: «إن مفهوم الإله في وحدة الوجود التقليدية ليس ربًّا ذاتيًّا يفكر، يريد، يشعر، ويفعل ولكنه قوام روحي غير ذاتي، غير مفكر، غير فاعل مستبطن لكل شيء"، والآن نضم ذلك مع افتراء موسوعة ستانفورد للفلسفة، ونضع في مقابله مئات الآيات في القرآن فقط والتي يتحدث الله فيها ذاتياً بمشيئته الخاصة وإرادته في أن يفعل أو لا يفعل، يتوب أو لا يتوب، يحب أو يكره، يتوب ويرحم أو يغضب ويعاقب، وهل هناك ذاتية أكثر من قوله صراحة عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ طه: ١٤ ، وهل هناك ذاتية أكثر من تنعيمه للمؤمنين في الجنة وتعذيبه للمجرمين في النار؟﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ النمل: ٨٩ - ٩٠. فهل ستعذب (وحدة الوجود) اللاذاتية نفسها؟! يبدو أن المؤلفة على سعة اطلاعها لم تقرأ القرآن بنفسها للأسف، وإنما اكتفت بما ذكرته بعض المصادر الفلسفية وبعض الفلاسفة عنه. (المترجم)

(٢) القَدَر في الإسلام يعني أن علم الله تعالى شامل لما سيكون وما سيقع، ولذلك فهو مكتوب بالفعل عند الله، وهذا من باب العلم وليس من باب الجبر، فأنت عندما تتوقع أن يقع ابنك الصغير أو أن يختار نوعاً معيناً من الحلوى فأنت هنا توقعت بعلم ولم تجبره على شيء، فإذا كنا نحن البشر- المحدودي العلم نستطيع أن نتوقع بعض الأحداث المستقبلية بنسب متفاوتة فنصيب أو نخطئ بسبب فوات بعض التفاصيل عنا وعن=

وإن هذا يفسر أيضًا لماذا يتألف قدر كبير من عبادة المسلم من شعائر آلية تقريبًا: يتلو المتعبدون القرآن بتناغم كلمةً بكلمة عن ظهر غيب باللغة العربية الفصحى. (تعني كلمة قرآن {ما يُتلى}). نعود مرة أخرى لنقتبس من ميدلمان Middelmann «إن روحانيته تكرارية وغير ذاتية، حب لله غير مُختار أو مُتَعمّد بكامل قلبك وعقلك وروحك» [1].

لا يُطلب من المسلمين حتى أن يفهموا ما يتلونه. إن الكثيرين منهم ليسوا عربًا ولا يتكلمون اللغة العربية، يقول كتاب لمؤلفَين مسلمَين «ليس أمرًا نادرًا أن تقابل أشخاصًا يعرفون قدرًا كبيرًا من الآيات عن ظهر قلب ولكن ليس لديهم أدنى قدر من فهم الرؤية الكونية المتضمنة فيها.» ولكن ذلك مقبول حسب ما يقول المؤلفان، لأن «الفهم ثانوي» في الإسلام بالنسبة للتلاوة والشعائر [2].

حساباتنا، فما بالنا بالخالق العليم بكل شيء؟! هذا هو مفهوم القدر في الإسلام، ومعنى الاستسلام الذي تم تحريفه هنا هو الاستسلام لأحكام الله من أوامر بعمل الخير ونواهٍ عن عمل الشر، وليس مقصوده أن لا تفعل شيئًا في حياتك وإلا: فلماذا يمتلئ القرآن بعشرات الآيات التي تستحث الكافرين على الإيمان؟ أليس هذا تغييراً كبيراً في حياتهم؟ لماذا لم يتركهم من باب (الاستسلام) لقدر الله؟! يقول عز وجل: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ فصلت: ٤٠. ويقول: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ الزلزلة: ٧ - ٨. (المترجم)

(١) لا نعرف مِن أين يستقي ميدلمان معلوماته عن الإسلام؟ هل سأل قرابة ملياري مسلم عن محبتهم لله فأخبروه أنها محبة غير مختارة وغير متعمدة بكامل القلب والعقل والروح؟ يقول الله تعالى في قرآنه متحدثاً عن هؤلاء الذين يقحم مدلمان نفسه على ألسنتهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ البقرة: ١٦٥. وفي الحديث أن أحد الصحابة كان يصلي بهم فيختم دوماً بسورة الإخلاص (قل هو الله أحد) فذكروا ذلك للنبي ﷺ فطلب منهم أن يسألوه عن السبب فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال لهم النبي: أخبروه أن الله تعالى يحبه. فدين الإسلام فيه المحبة قرآناً وسنة في عشرات المواضع، وأما دليلها العملي فهو اتباع النبي المرسل لنا من الله ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١﴾ آل عمران: ٣١. (المترجم)

(٢) للأسف ما تقوم به المؤلفة هنا هو عملية (انتقاء) للآراء الضالة في الإسلام وإبرازها على أنها هي الإسلام، فالكاتبان المسلمان اللذان أشارت إليهما نجد اسميهما في المرجع رقم (٥٩) في نهاية الكتاب وهما الكاتبة اليابانية Sachiko Murata وهي شيعية ولها كتب شيعية تناصر وحدة الوجود وابن عربي والصوفية الفارسية بل وتتحدث عن بعض ممارسات الشيعة المحرمة في الإسلام مثل زواج المتعة ولها كتاب في ذلك Temporary Marriage in Islamic Law والكاتب الأمريكي William Chittick وهو صوفي=

لذلك يبرهن الإسلام المبدأ الاختزالي مرة أخرى، أي أن الرؤية الأدنى للإله تؤدي إلى رؤية أدنى لقيمة وحالة وكرامة الإنسان[1].

• من الأوثان العلمانية إلى معسكرات الإبادة

إن إحدى الطرق الفاعلة في الانخراط مع الباحثين والمشككين هي مساعدتهم في تحديد أوثانهم الخاصة، ومن الأسهل التعرف على الأوثان عندما تكون جزءًا من الحياة التي نعيشها، خصوصًا عندما تتجسد في السياسة والنظام العام. لقد طبّقنا **المبدأ الثاني** على الفلسفات

له كتابات وتأثر كبير بأفكار ابن عربي وجلال الدين الرومي اللذين يعيد الغرب نشر كتبهما وأفكارهما الضالة بكثرة على أنها الإسلام رغم ما فيها من كفريات وزندقة وادعاءات بوحدة الوجود وانسياح كل الأديان دون فوارق فعابد الله كعابد الوثن كعابد الصنم، العجيب هنا أن نسبة المسلمين العرب في العالم اليوم هي الخمس تقريباً (أي ٢٠٪) وليس معقولاً أن يكون الباقي وهم أكثر من مليار مسلم لا يعلمون من القرآن شيئاً لأنهم يتلونه فقط بغير علم لمعانيه! وإنما الحاصل أن القرآن هو الكتاب الوحيد في العالم بطريقة بنائه الصوتي الفريدة الذي يمكن حفظه بسهولة عن ظهر قلب رغم احتوائه على ٧٧ ألف و ٤٣٩ كلمة حتى من غير المتحدثين بالعربية، والحق أن هذا أحد أوجه إعجازه التي تستوقف كل ناظر محايد أو منصف، وهي مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ القمر: ١٧. وأما الكلام المنقول أعلاه فهو حق أريد به باطل، إذ بالفعل ليس المسلم مطالبًا بفهم كل القرآن، وإنما له أن يسعى إلى ذلك وأن يفهم منه ما يستطيع أو يتعلمه أو يسأل عنه مَن هو أعلم منه، وذلك ما يُبقي القرآن دوماً غضّاً نشيطاً متجدداً محلًا للنظر وتجديد التدبر في كل زمان ومكان، فهو معجزة الله الباقية والزاخرة بالمعاني التي تظهر لملايين البشر كلما تأملوا فيه أو في ترجمات معانيه، وذلك بعكس كتب اليهود والمسيحيين التي هي للقصص النثرية أقرب، ولذلك لا يتم تكرار قراءتها مثل القرآن فضلاً عن حفظها بأكملها مثله، ومن هنا نفهم أن عدم فهم بعض القرآن لا يمنع قراءته أو حفظه، يكفي أن تلاوة القرآن هي أحد أركان الصلاة، وكان ذلك أحد أسباب حفظ القرآن من محاولات التحريف بجانب حفظه مكتوباً في المصاحف، وهناك عشرات الأقوال للصحابة والعلماء المسلمين على أن الأهم من حفظ القرآن وتلاوته هو فهم معانيه والعمل به، بل ويخبرنا الله صراحة بضرورة العمل لتغيير الواقع وعدم التواكل على الله أو التسليم للظروف والأحداث بحجة أنها القدر المكتوب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١. (المترجم)

(١) على قدر ما يفرح المسلمون بدخول مفكرين في الإسلام من حضارات وخلفيات ثقافية مختلفة، على قدر ما يجب استيعاب حقيقة تأثر معظمهم بما كانوا عليه من أفكار مسبقة ومحاولتهم أحياناً خلطها بالإسلام وعقيدته، وذلك الأمر يتكرر قديماً وحديثاً، من بلاد الصين وإيران ووسط آسيا شرقاً إلى أوروبا وأطراف أفريقيا غرباً، إنه شيء منطقي نظرًا لطبيعة أكثر البشر، لذلك وجب توقعه وتحرك المسلمين السنة إلى التعامل الدائم معه، والإعداد المسبق لاستقبال أمثال تلك الحالات والحوار العقلاني معها لهدايتها إلى الإسلام الصحيح، خاصة مع بقاء أصول الإسلام صافية غير محرفة كما ذكرنا. (المترجم)

والأديان: دعونا الآن نظهر تأثير الاختزالية عندما تُبرز تفاصيلها من خلال نظريتين سياسيتين، النازية والشيوعية. توضح كلتاهما القوة المكفهرّة والمدمّرة للأوثان.

يقول عالم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) ريتشارد شويدر Richard Schweder تعاد رواية التاريخ الغربي عادةً بطريقة ملحمية دينية، «تمتلك قصة التنوير نسختها الخاصة من سفر التكوين وإن الأفكار الرئيسة فيها معروفة تمامًا: استيقظ الكون من سُبات {العصور الوسطى} وأصبح أخيرًا على تواصل مع الحقيقة وتحسنت حاله قبل حوالي ٣٠٠ سنة مضت في أوروبا الشمالية والغربية.» يقدم هذا الإيمان العلماني نسخته الخاصة عن الخلاص: «عندما فتح الناس أعينهم، أفسح الدين (المُعادِل للجهل والخرافة) الطريقَ للعلم (المُعادِل للحقيقة والمنطق)».

ظلّت هذه الأسطورة التنويرية لقرون من الزمن باقية كمسوَّدَة للتقدم والحرية، ومع ذلك «كنظرية تاريخ».

علّق شويدر بجفاء «كان للقصة منفعة تنبئية تساوي الصفر تقريبًا»[١٠]. ذلك أن ظهور العلمانية لم يؤدِّ إلى أي ازدياد في الحرية، على العكس، فقد حوّلت القرن العشرين إلى مجزرة من الموت والدمار. اقترفتْ معظم الشناعات أنظمة كانت قد كُرّست للإيديولوجيات السياسية مثل الاشتراكية القومية (النازية) والماركسية (الشيوعية).

لطالما تساءل المؤرخون كيف يمكن لمثل هذه الهمجية المترنحة العقل أن تنشأ في أوروبا الحديثة المتمدنة. يكمن الجواب في قوة الأوثان. كان المعتقد النازيّ يدور حول وثن العِرق، قيل إن عِرق الفرد (آري أو يهودي أو صقلبي) يحدد رؤى الشخص وشخصيته وحتى قيمته. بينما كانت تدور إيديولوجية الشيوعيّ حول وثن الطبقة الاقتصادية، حيث كانت طبقة الشخص الاقتصادية (رأسمالي أو بروليتاري) تعتبر العامل الذي يحدد كل شيء.

وكما رأينا، ففي كل رؤية كونية مبنية على وثن لن تتسع بعض أجزاء الخلق في صندوقها، سوف تُطمس بعض حقائق التجلّي الإلهي العام. ولكن عندما تُطبّق رؤى كونية متمركزة حول وثن في المضمار السياسي فسوف يكون هنالك بعض **الأشخاص** الذين لا يتسعون في صندوق الدولة المفروض، وسوف يُقمعون أو يُقتلون حرفيًّا. أولئك الذين لم يتسعوا في صندوق العِرق المفروض تحت الحكم النازي بمن فيهم اليهود والغجر والصقالبة (السلاف) والصربيون

والبولنديون والأوكرانيون وغيرهم، نُقِلوا إلى معسكرات اعتقال حيث تعرض حوالي خمسة وعشرين مليون شخص منهم للموت أو أعدموا رميًا بالرصاص. وأولئك الذين لم يتسعوا في صندوق الطبقة الاقتصادية المفروض تحت الحكم الشيوعي بمن فيهم الرأسماليون والكولاكيون (الكولاكي: مزارع غني بروسيا) وغيرهم، أُخضِعوا لمجاعة إجبارية أو لمعسكرات الأعمال الشاقة حيث تعرض ما يقدّر عدده بخمسة وثمانين إلى مئة مليون شخص للموت أو للإعدام بالرصاص. (في كلا النظامين مسيحيون معارضون)[١١].

دفع هؤلاء المستبدون الخادعون ذواتهم في الحرب العالمية الثانية إلى صراع عالمي، وكما لاحظ جيلسون Gilson آنذاك «إن ملايين من الناس يتضورون جوعًا وينزفون حتى الموت لأن اثنين أو ثلاثة... من المعبودات المجردة تشن حربًا الآن، فعندما تتقاتل الآلهة بين بعضها وبعض لا بدّ أن يموت الناس»[١٢].

إن العبرة هنا هي أن الإيديولوجيات المبنية على أوثان تكون مُجرِّدة من الإنسانية على الدوام، وتؤدي إن لم يكن عليها رقابة إلى القمع والإكراه والاضطهاد والحرب والبطش. لقد سلبوا ارواحًا وخلّفوا دمارًا خلال القرن العشرين وحده أكثر بكثير من جميع مطاردات الساحرات المُحرَّضة دينيًّا ومحاكم التفتيش والحروب التي اندلعت في القرون السابقة.

يكتب ألدوس هكسلي Aldous Huxley «إن الماديين مستعدون لأن يعبدوا بِدَعهم الهزيلة البناء كما لو كانت هي المُطلق، وذلك يتيح لهم أن يطلقوا العنان لشهواتهم الأكثر بشاعة بضمير صاحٍ مقتنعين بأنهم يعملون لمصلحة المنفعة الأعلى»[١٣]. لم تكن إراقة الدماء ومعسكرات الموت من قبل الإيديولوجيات الوثنية انتهاكًا لمبادئها (كما كانت الحروب الدينية انتهاكًا للمبادئ المسيحية)، بل كانت أعمالاً تنفيذية منسجمة منطقيًّا مع الرؤية الكونية.

يكتب الفيلسوف جون جراي John Gray، رغم أنه ملحد، «عندما يصبح الإلحاد مشروعًا سياسيًّا تكون النتيجة الثابتة هي دينًا بديلاً لا يُمكن أن يُحافَظ عليه إلا بوسائل استبدادية»[١٤]، أي الشرطة السرية ومعسكرات الإبادة.

من المحرّرين إلى الطغاة

إن دراسة الرؤى الكونية ليست مجرد موضوع نظري يُناقش افتراضيًا في الصف الدراسي، إن للأوثان عواقب تتعلق بالحياة والموت. عندما قال سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ بأن الله يُسلِم الناس إلى التأثير المدمر لأوثانهم فإن ذلك لا يعني فقط السلوك الذاتي. تُجسّد الرؤى الكونية أيضًا في الصف الدراسي وقاعة الاجتماعات وقاعة المحكمة وقاعة التشريعات ومسرح الحرب.

توضّح الاستبداديات الحديثة تعاليم بولس بأن أولئك الذين لا يعرفون الله سوف يخضعون لعبودية الأوثان. حيث «اسْتُعْبِدْتُمْ لِلَّذِينَ لَيْسُوا بِالطَّبِيعَةِ آلِهَةً» (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٤:٨)[٦٥]. عندما كتبت مجموعة شهيرة من الشيوعيين السابقين كتابًا حول خيبة أملهم أعطوه عنوانًا وهو **الإله الذي أخفق**.

لاحظ مرةً المؤرخ إشعيا برلين Isaiah Berlin أن كل فلسفة تقدّم نموذجًا عن الحقيقة تَعِد بتحرير الناس من الخطأ: «ولكن غالبًا وبلا اختلافات بينها ينتهي الأمر باستعبادها لهؤلاء الأشخاص ذواتهم، **بسبب إخفاقها في تفسير التجربة بكليتها**. تبدأ كالمُحرِّرة وتنتهي في نوع ما من الطغيان»[٦٦].

ومن أجل ابتكار مجتمع إنساني يجب علينا أن نعرّف الأوثان التي «تخفق في شرح التجربة بكليتها»، أي التي تحجز الناس في نماذج جزئية وحيدة البُعد للواقع. إن الأساس الوحيد لحقوق الإنسان الأصيلة وكرامته هي الرؤية الكونية الكاملة للكتاب المقدس. وبدلاً من أن تطلق المسيحية على قطعة واحدة من قطع الصورة صفة المُطلق، فإنها تقدّم كامل الصورة بجميع أجزائها في تناغم مبتكرةً صورة فاتنة الجمال، إنها تعطي رؤية أكثر غنىً وأكمل وأكثر تعقيدًا للواقع مقارنةً مع أي رؤية كونية أخرى. تشمل المسيحية بصائرَ قاطعة من جميع الرؤى الكونية الأخرى بينما تتجنب نقاط ضعفها.

• أكثر مما يُحلم به في فلسفتك

ما هي الصِّبغة العامة المشتركة التي تخللت جميع الأمثلة المذكورة في هذا الفصل؟ إن الأديان والرؤى الكونية التي تُنكِر الإله يجب أن تُعامِل شيئًا آخرَ على أنه الحقيقة المطلقة (**المبدأ الأول**). ومع استثناء الديانات التوحيدية الأخرى، فإنهم يُؤلّهون شيئًا يوجد ضمن الكون، يطلقون صفة المُطلق على بعض جوانب الخلق وكأنها المُفسِّر الجوهري، ومن ثمّ يختزلون كل شيء آخر إلى ذلك

التصنيف الوحيد (المبدأ الثاني). إن الاختزالية تشبه محاولة رؤية العالم من خلال عدسة وحيدة. سمّى ج. ك. تشيسترتون G. K. Chesterton الاختزالية بالسجن العقلي، «سجن الفكرة الواحدة.»[١٧] حيث يُنكر ويُطمس كل ما لا يتسع في ذلك السجن.

إن النتيجة دومًا هي رؤية للكون أضيق وأفقر وأقتم وأقل إنسانية من الصورة الدينية، لا يمكن لمفهوم الرؤية الكونية عن الإنسانية أن يكون أسمى من مفهومها عن الإله.

تبدأ رسالة بولس إلى أهل رومية ١ تعاليمها عن الأوثان بقولها إن «غضب الله» معلن من السماء، ليس هنالك غالبًا شيء يتعلق بالدين يكرهه الناس المعاصرون أكثر من التحدث عن غضب الله، إنه يشير إلى صورة عن إله غاضب توّاق للانتقام، ولكن عادةً ما يشير مفهوم الكتاب المقدس عن الغضب ببساطة إلى معارضة الإله العنيدة للشر والظلم، ولا يعني بالضرورة حدثًا كارثيًا مثل صاعقة من السماء، في الحقيقة، فإنه لا يعني بالضرورة تدخلاً إلهيًا في شؤون الإنسان على الإطلاق[(١)]. وكما رأينا في المبدأ الثاني فإن قضاء الله يكمن عادةً في إعطاء الناس ما يريدونه وتركهم يختبرون عواقب ما اقترفت أيديهم، يسمح لهم باختيار طرق التفكير والعيش المهلكة لذواتهم والتي تهدم شرف واحترام أنفسهم والآخرين.

لا يسعني التفكير بوصف أفضل لرؤى كونية اختزالية.

عندما يحذّر سفر رسالة بولس إلى أهل رومية ١ بأن الأوثان تؤدي إلى سلوك مُشين فإننا عادةً نغفل عن المعنى الضمني، أعني أن الناس بطبيعتهم يميلون لأن يقدّروا أنفسهم والآخرين. وكما يكتب توماس جونسون Thomas Johnson فإن النص يقتضي ضمنًا «أن هنالك طرقًا أنسب لكي يقدّر الناس أنفسهم» أي من خلال تقبّل رؤية الإله لهم. «عندما يقبل الناس مرتبتهم بأنهم حاملون لصورة الخالق، وأنهم مُنزلون في هذا العالم لكي ينجزوا وصاياه، فهنالك شرف يشمل الجميع». ولكن عندما يصنعون بدائل عن الإله ويعيدون سبك فهمهم لأنفسهم في صورة وثن، فهنالك يعم الخزي والهلاك على الجميع[١٨].

---

(١) هذا الكلام غير دقيق في طريقة التعبير للمؤلفة، إذ يمتلئ العهد القديم وحده لدى المسيحيين بعشرات من صور العقاب الإلهي للكافرين والطغاة بل وللشاذين جنسيّاً مثل قوم لوط عليه السلام ومن قبلهم قوم نوح والطوفان وغيرهم. (المترجم)

يجب أن تنفطر قلوبنا على من عندهم رؤى كونية مظلمة، ومجرِّدة من الإنسانية، ومُحتقِرة، ومشينة للإنسان. هنالك فرصة مفتوحة على مصراعيها لتقديم الدين على أنه إيجابي وإنساني الأصل، لا تؤلّه الرؤية الكونية الدينية أي جوانب من الخليقة أو تَعُدّ شيئًا ما مُطلقًا زائفًا، ونتيجة لذلك فإنها لا تؤدي إلى اختزالية تنقص من قيمة الأبعاد الأخرى للخلق أو تنكرها، لا تحتاج أن تُقحِم الكون في صندوق ثم تتخلص مما لا يتسع فيه، إنها ليست حصرية وإنما شاملة، تؤكد على الخير والواقعية لجميع خلق الله المتنوع والمتعدد الأوجه.

يتفق الدين مع هاملت Hamlet عندما قال لهوراشيو Horatio «هنالك أشياء في السماء والأرض أكثر مما يُحلم به في فلسفتك.»[1] تُصرّ الرؤى الكونية الاختزالية أن هنالك أشياء **أقل** في السماء والأرض، إن العيش وفقًا لهذه الرؤى الكونية أشبه بالعيش في عنبر إسمنتي لا يحتوي أية نوافذ، يجب أن يكون التواصل مع رؤية كونية دينية أشبه بدعوة الناس لأن يفتحوا الباب ويخرجوا، يجب أن تعبّر رسالتنا عن بهجة إرشاد الأسرى لطريق الخروج من عالم ضيق صغير إلى عالم واسع ومتحرر.

ونفهم الآن على نحو أفضل كيف استطاع بولس أن يَمْثُل أمام إمبراطور الروم ويصرّح بأنه «لم يكن خجلاً بالدين». كان واثقًا بأن الدين ليس فقط أكثر إقناعًا من أي عقيدة أو رؤية كونية منافسَة ولكنه أكثر جذبًا أيضًا. لا تعني عبارة «أخزى» عادةً أن تكون مُحرجًا نفسيًّا فقط، تعني أن تثق بشيء يخذلك ويخفق في إنجاز وعده. « فَلَا تَدَعْنِي أَخْزَى. لَا تَشْمَتْ بِي أَعْدَائِي.» (سفر المزامير ٢٥:٢). لأنه «السَّيِّدُ الرَّبُّ يُعِينُنِي... عَرَفْتُ أَنِّي لَا أَخْزَى.» (سفر إشعياء ٥٠:٧). لذلك فعندما قال بولس بأنه ليس خجلاً» فإنه يقول بأن الرؤية الكونية الدينية لن تخذلك، لن تخيّب ظنك[2]. يُرضي الدين توق الإنسان لرؤية كونية موحّدة متكاملة يعيش وفقًا لها، إنه يمتلك المصادر الفكرية التي تزوّد بدليل حياة إرشادي شمولي متسق داخليًّا.

بالطبع إن مجرد كون رؤية كونية ما جذابة فذلك لا يعني أنها صحيحة، ولكي نختبر إن كانت صحيحة أم خاطئة فنحتاج أن ننتقل إلى **المبدأ الثالث**. عندما نسأل إن كانت رؤية كونية صحيحة فإن ما نعنيه عادةً هو، هل تتناسب مع الكون الذي نعرفه؟ هل تتوافق مع الحقائق؟ سوف نرى في **المبدأ الثالث** كيف أن رسالة بولس إلى أهل رومية ١ تجهّزنا بعدّة فعّالة من الأدوات بغرض اختبار الرؤى الكونية لنكشف الستار عن الحقيقة.

---

(١) هي شخصيات خيالية في مسرحية (هاملت) الشهيرة لشكسبير. (المترجم)

المبدأ الثالث: العلمانية وقفزاتها الإيمانية

نشرت الـ CNN منذ سنوات قليلة مقالاً تحت عنوان «لماذا ربيت أولادي دون الله» ثم انتشر المقال انتشار النار في الهشيم. كانت كاتبة المقال أمًّا شابة تسمى ديبورا ميتشل Deborah Mitchell، وقد أدرجت في مقالها عدة أسباب عن حماية أولادها من التعلم عن الله، أغلبها يتعلق بمشكلة الشر.

وجادلت ميتشل بأن الله المحب لن يسمح «بحصول جرائم القتل والتعدي على الأطفال والحروب والهزائم الوحشية والتعذيب وملايين الأفعال التي ترتكب عبر كل التاريخ البشري[1]»[1].

إنَّ الجواب الديني التقليدي لمشكلة الشر هو أن الله خلق البشر وأعطاهم حرية الإرادة، فقاموا بفوضى من الأفعال المرعبة. يسمى هذا بالدفاع من جهة حرية الإرادة، وهو إقرار بالحقيقة المأسوية للذنب والمعاناة، في حين يؤكد في الوقت نفسه كرامة البشرية. لأنه يصور البشر كفاعلين أخلاقيين أصليين، اختياراتهم هامة جدًّا لدرجة أنها قد تعدل التاريخ، بل وحتى الأبدية.

ماذا قدمت ميتشل كبديل بعد رفضها للإجابة الدينية؟ لقد افترضت رؤيةً كونية مادية يكون البشر فيها محدودين تمامًا فلا يملكون إرادة حرة. وأنشدت تقول: «نحن مجرد جزء صغير للغاية من آلة هائلة الحجم، وما نحدثه من تأثير صغير للغاية. «علينا أن نتقبل «إدراكنا لتفاهتنا».

---

(١) تعد مشكلة الشر السبب الرئيس الحقيقي لمعظم حالات الإلحاد في العالم قديماً وحديثاً، وقد أفرد لها مركز دلائل كتاباً خاصّاً بعنوان: أسس غائبة، من إصدارات عام ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م. (المترجم)

هل يراد **بذلك** أن يكون بديلاً جذابًا عن الدين؟ أي أنَّ البشر ما هم إلا آلات صغيرة محجوزة ضمن آلة كبيرة؟ وأن أفعالهم تافهة؟ ادعت ميتشل أن رؤيتها المادية تقود إلى «الشعور بالضآلة humbleness». وأنَّها غير مُذلة في الوقت نفسه؛ فهي تنزع النظرة الإنسانية فقط، وتختزل البشر جوهريًّا إلى رجال آليين.

والأهم من ذلك أنها غير صحيحة، فنظرتها للبشرية تجري عكس بيانات التجربة الإنسانية. إذ أدركت جميع الحضارات عبر التاريخ أنَّ البشر فاعلون أخلاقيون قادرون على انتقاء اختيارات مسؤولة. ولا يوجد مجتمع لا يحوي بعض الرموز الأخلاقية. وتشهد التجربة البشرية العالمية أن البشر ليسوا مجرد رجالٍ آليين[٢].

ومع ذلك، فما هي الرؤية الكونية التي نريد تفسيرها؟ يُقصد بأي رؤية كونية إعطاء شرح منهجي لتلك الحقائق الحتمية التي يستحيل تجنبها في الخبرة السهلة المتاحة لجميع البشر في كل الثقافات وعبر كل فترات التاريخ. وباستخدام مصطلحات الدين، تلك الحقائق المشكلة للوحي أو التجلي الإلهي العام. يشير الفلاسفة أحيانًا إلى مجموعها بعالم الحياة، أو التجربة المعيشة lived experience أو التجربة ما قبل النظرية[٣]؛ إن كل الفكرة من بناء أنظمة **نظرية** هو شرح ما يعرفه البشر من تجربتهم **ما قبل النظرية**. وهذه هي نقطة البداية لأي فلسفة. وهي البيانات التي تبحث عنها لتفسرها. وإذا فشلت في تفسير بيانات التجربة، فقد فشلت هذه الفلسفة في الاختبار ودُحضت.

• جاذبية الحقيقة

ربما يُعد هذا هو الاختبار العملي للرؤى الكونية. تمامًا كما يختبر العلماء نظرية ما بإحضارها للمختبر وخلط المواد الكيميائية في أنبوب اختبار لرؤية إذا كانت النتائج تؤكد تلك النظرية، كذلك نختبر نحن الرؤية الكونية من خلال إحضارها لمختبر الحياة العادية، ونسأل: هل يمكن العيش معها باتساق في العالم الحقيقي دون أن تسيء للطبيعة البشرية؟ هل تعمل الحياة بالطريقة التي تقول الرؤية الكونية إنها يجب أن تعمل من خلالها؟ هل تناسب الواقع؟ هل تتوافق مع ما نعرفه عن العالم؟

يمكننا القول إن الهدف من الرؤية الكونية هو تفسير ما نعرفه عن **العالم**. فإذا تناقضت الرؤية الكونية مع تجربتنا الأساسية عن العالم (ما نعرفه بالوحي العام) فهذا مؤشر جيد لنقوم بإلغائها. وكما ذكر هيرمان دوويويرد Dooyeweerd: إن كل فلسفة «يجب أن يقابلها معلومة حصلنا عليها من تجربة صرفة، وذلك لاختبار قدرتها على تفسير هذه المعلومة بطريقة مُرضية». وأي فلسفة «لا تستطيع تفسير هذه المعلومة بطريقة مُرضية لا بد أنها خاطئة»[1].

يقول الفيلسوف جيمس بورتر مورلاند J. P. Moreland: نحن نختبر الرؤية الكونية من خلال جودة تفسيرها «للحقائق المتمردة recalcitrant،» تلك الحقائق العنيدة التي يجب على كل نظرية أن تفسرها، وإلا فستدحض»[2].

ويمكننا الاطمئنان إلى أنَّ جميع الرؤى الكونية المتمركزة حول صنمٍ ما **ستكون** خاطئة. ستفشل جميعها في تفسير بعض هذه الحقائق العنيدة على الأقل. ولمَ يكون ذلك؟ لأنها اختزالية، كما تعلمنا في المبدأ الثاني.

فهي تحاول تعريف الكل اعتمادًا على الجزء. وستكون تصنيفاتها التصورية ضيقة ومحدودة حتمًا. وستبرز بعض أجزاء الواقعية خارج صندوقها الصغير.

خذ مثلاً مقال الـ CNN الذي انتشر انتشار النار في الهشيم. لقد اقترح المقال فلسفةً ماديةً تختزل البشر إلى آلات تتحكم بها قوىً مادية. فما الذي برز خارج صندوق هذه الفلسفة؟ لقد برز خارجه الحرية البشرية. إنَّ الحقيقة التي يستحيل إنكارها هي أنَّ البشر يختارون خياراتهم. تخدم هذه الحقيقة كدليل أن الشخص **ليس** «جزءًا بالغ الصغر من آلة هائلة الحجم.» فالبشر كائنات ذات شخصية لها إرادة يستطيعون الاختيار، ما يعني أن أصلهم يجب أن يكون كائنًا شخصيًّا، وليس القوى العمياء للطبيعة.

تذكر أن **صفة الشخصية** في الفلسفة لا تعني الدفء والود؛ وإنما تعني كائنًا قادرًا على التفكير والشعور والاختيار والفعل، على نقيض المادة ذات الأفعال الآلية غير القادرة على التفكير. انظر مثلاً ما يحدث عند دمج الصوديوم مع الكلور: تتفاعل الذرات بعضها مع بعض منتجةً كلوريد الصوديوم (ملح الطعام). لم تختر الذرات قرارًا واعيًا للقيام بالتفاعل، ولم تختر نقل الإلكترونات

لتشكيل رابطة شاردية. جرت العملية بقوىً فيزيائية آلية صرفة. يدعي المذهب المادي أن التصرفات البشرية يمكن تفسيرها وفق النمط نفسه أي من خلال القوى الفيزيائية التي تعمل في كيمياء أدمغتنا فقط. لكن وجود الإرادة الحرة يتعارض مع تلك النظرية. وهذا يقدم دليلاً على أنَّ البشر لم تخلقهم قوىً فيزيائية آلية، إنما خلقهم فاعل شخصي.

لذا من السخرية أن الأشخاص الذين رفضوا الدين ظنًّا منهم أنهم سيكونون أحرارًا من دون الله، انتهى بهم المطاف إلى اعتناق فلسفات تنكر الحرية الإنسانية.

سنطرح لك عزيزي القارئ عدة أمثلة لتألف هذا الاختبار العملي. والفائدة من طرح الأمثلة هي تعليمك تحليل الصياغة والتفكير المنطقي الذي يستخدمه المفكرون العلمانيون في أوضاع العالم الحقيقي. والأكثر دهشة أننا سنكتشف أنَّه عندما ضُغط على كثيرٍ منهم أقروا بأنَّ رؤيتهم الكونية لا تتوافق مع الحقائق. ستساعدك الأمثلة في هذا الفصل على فهم الحالة باستخدام كلماتهم هم أنفسهم.

• أنا رجل آلي، نحن آلات

لا يجنح تفكيرك إلى أنَّ أسئلة الرؤى الكونية (مثل هذه الرؤى) مخصصة لفئة معينة esoteric لا يمكن للناس العاديين الخوض فيها. فقد كنت أعالج فعلاً وأنا مراهقة هذه الأسئلة التي طرحتها أم شابة كتبتها للـ CNN. وبعد رفضي لتربيتي اللوثرية اعتنقت مذهب الحتمية الاجتماعية والمادية. ورأيتها كمسمار في نعش الإيمان، ذلك أن الدين يُعلم بوضوح أن البشر يمارسون مسؤولية أخلاقية: «**اُنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ الْيَوْمَ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْخَيْرَ، وَالْمَوْتَ وَالشَّرَّ... فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ**» [**سفر التثنية: ٣٠، ١٥-١٩**]

بالطبع يناقش علماء الدين الطبيعة الدقيقة للحرية البشرية. وقد أكد المصلحان لوثر Luther وكالفن Calvin أن البشر لا يمكنهم فعل شيء يساهم في خلاصهم. فرسالة التحرر في الإنجيل أنَّنا لسنا مضطرين لاكتساب خلاصنا أو السعي للحصول عليه، ذلك أنَّ مصدر كلّ من العفو والتطهير من الإصغاء الروحي للإيمان «أم بخبر إيمان» [رسالة بولس إلى أهل غلاطية: ٣: ٢-٥] . لكن المُصلحين لم يعنيا أنَّه لا يمكننا اختيار لحم الخنزير من لحم الديك

الرومي في سندويشاتنا على الغداء. وتساند المادية بالمقابل فكرة أن البشر يخيل لهم فقط أنهم يختارون لحم الخنزير أو لحم الديك الرومي، لكن الواقع أن تصرفاتهم تسيرها القوى الطبيعية، مثل عمل الخلايا العصبية في الدماغ، وذلك تمامًا كما يتفاعل الصوديوم مع الكلور. يتفق كل المؤمنين على رفض هذا المفهوم المادي للبشر بأنهم مجرد رجال آليين أو آلات صنعت من اللحم.

يُعلمنا الدين أن البشر واقعون في الخطايا، لكن هذا الوقوع لم يجعلنا أقل بشرية، ولم يجعلنا آلات.

من الواضح أنَّ البشر لا يملكون حرية القيام بأي شيء قد يحلمون به، وذلك لأننا مخلوقات ولسنا الخالق. نحن موجودون أيضًا ضمن الكون المادي والعالم الاجتماعي؛ ولدى كلٍّ منا تاريخه الشخصي الذي يؤثر على خياراته. إلا أنه لدينا ضمن هذه المقاييس مجال من الاختيار الأصيل والمساءلة accountability. فأفعالنا ليست مجرد ارتباطات في سلسلة مغلقة من الأحداث المادية المترابطة سببيًّا بعضها مع بعض. لدينا القدرة على أن نكون الأسباب الأولى، أن نبدأ سلسلة جديدة من السبب والنتيجة.

لم تكن تلك رؤيتي إلى أن ذهبت إلى مراكز «الملجأ L'Abri» التعليمية بعد ما سمعت بوجود حججٍ مقنعة عندهم حول الإرادة الحرة. ركزت الحجج على عالمية التجربة الإنسانية. وقد كانت شهادة جميع الثقافات المعروفة على مر التاريخ المسجل أن البشر يمارسون الحرية الأخلاقية والمسؤولية. ويطرح من وقت لآخر بعض الأفراد ذوي الرأي المتفرد اعتراضات عليها، لكن لا يمكن أن تستمر الحضارات دون الاقتناع بأن الناس يمكنهم تحمل مسؤولية أفعالهم.

بل إنَّ المادية نفسها تعترف غالبًا بأنه من المستحيل عمليًّا على البشر العيش بخلاف هذه الطريقة. ذكر أحد الفلاسفة مازحًا أن البشر ينكرون الإرادة الحرة، إذًا عندما يذهبون للمطعم ويطلبون الطعام يجب أن يقولوا: «اجلب لي ما حددت القوانين الطبيعية أني سأحصل عليه"[٢]. يبدو أننا مجبرون على تقبل حقيقة حرية الإرادة. إنَّ البشر قد خلقوا بحيث لا يمكنهم حتمًا دونها القيام بأي شيء. فهي إحدى تلك الحقائق العنيدة التي يجب أخذها بالاعتبار في أي رؤية كونية»[١].

كانت هذه بعضًا من الحجج التي صادفتها أثناء دراستي في مراكز «الملجأ» التعليمية. ونتيجة لذلك بدأت التفكير الجاد إن كانت رؤيتي الكونية الحتمية خاطئة. بدا الأمر لي كما لو أنَّ امتلاك البشر للحرية الأخلاقية أمر في غاية الوضوح. وإذا كانت رؤيتي الكونية لا تفسر ذلك، فعلي التوجه لرؤية أخرى تفسرها. وكانت تلك بداية تحول ثقافي في حياتي. وظهر لي أن الدين أكثر منطقية.

كيف يمكننا جعل الدين أكثر منطقية لأصدقائنا وأفراد عائلتنا الباحثين واللاأدريين والمشككين؟

• المبدأ الثالث: اختبر الصنم: هل يتناقض مع ما نعرفه عن العالم؟

عملنا على تحليل الرؤية الكونية من خلال مبدأين حتى الآن. أولاً حددنا صنمها. ثم حددنا اختزاليتها. والآن سنسأل إذا كانت الرؤى الكونية المرتكزة على الأصنام تناسب العالم الحقيقي.

لنتابع الآن في سؤال حرية الإرادة، وذلك لأنه سؤالٌ مركزي في الكرامة الإنسانية. فالقدرة على الاختيار من بين عدة بدائل تتيح مجموعة كبيرة من القدرات البشرية المتميزة، تشمل الإبداع والقدرة على حل المشكلات والحب والعلاقات (الرجال الآليون لا يعشقون)، حتى العقلانية rationality نفسها (لو كانت عقولنا مبرمجة مسبقًا على التمسك بفكرة، فهي لا تتخذها بقرار عقلاني). يقول أستاذ القانون جيروم هول Jerome Hall: «إن لم تكن الكائنات البشرية مسؤولة أخلاقيًا عن أفعالها، فإنَّ العدالة مجرد سراب.» إن لم يكن لدى البشر حرية إرادة فلن يكون بمقدورنا امتلاك حس بالهوية أو الاعتزاز بالنفس (لأنه سيكون كل شيء أقوم به عندئذ عمل قوىً آلية غير واعية فعلاً)[٩].

يقول أحد الفلاسفة: الأمر المهدد بالضياع في هذا لا يقل عن «**تقدير الشخصيات الذاتية**». فإن كانت الحتمية واقعًا، سنكون «في الحسبة النهائية مجرد ألعاب للحظ»[١٠].

بهذا تصبح حرية الإرادة بديلاً عن مجال كامل للصفات البشرية التي تعتمد عليها. إذا أخذت مساقًا دراسيًا أوليًا في الفلسفة ١٠١، فسترى أنَّ كتابك سيتضمن على الأرجح دومًا فصلاً عن حرية الإرادة مقابل الحتمية. وانتقل الموضوع في السنوات الأخيرة ليشغل مكانة مركزية في الفلسفة»[١١]. لذلك فهو إحدى أكثر الحقائق البارزة للوحي الإلهي العام التي يمكن استخدامها في اختبار الرؤى الكونية.

• لماذا لا يمكن للعلمانيين العيش بطريقة علمانية

دعنا نمارس تطبيق المبدأ الثالث على عدة أمثلة باستخدام كلمات العلمانيين وكتاباتهم. من أوضح الأمثلة التي يمكن إيجادها هو غالين ستراوسون Galen Strawson وهو فيلسوف ذكر بشجاعة كبيرة: «إنَّ استحالة الإرادة الحرة ... يمكن إثباتها بيقين تام».

لكنَّه اعترف في مقابلة معه بأنه عمليًّا لا يمكن لأحد القبول بالنظرة الحتمية. فقال: «لنكن صريحين، لا يمكنني أنا نفسي قبولها حقًّا، لا يمكنني بالفعل العيش مع هذه الحقيقة يوميًّا، هل يمكنك ذلك فعلاً؟»

لكن إذا كان البشر «لا يمكنهم بالفعل العيش مع» نتائج الرؤية الكونية، فهل يمكن اعتبارها خريطة للواقع يمكن التعويل عليها؟ ترقب عبارات مثل هذه عندما تقرأ أمثلة أخرى، فغالبًا ما تجدها دلائل عن محاولة أحدهم العيش برؤية كونية لا تناسب العالم الحقيقي - بحيث سيصطدم بإحدى الحقائق العنيدة التي تدل على الله المذكور في الدين.

بالإضافة إلى ذلك يصر غالين ستراوسون أنه ليس الوحيد في ذلك، وأنَّه حتى علماء الإدراك الذين ينشرون كتبًا ومقالات في المجلات تؤيد الحتمية لا يقبلون بها كنظرية عملية لنحيا بها. فهم «قد يقبلونها في لباسهم الأبيض، لكنني متيقن أنهم كبقيتنا عندما يخرجون للعالم مقتنعون بالحقيقة الجذرية للإرادة الحرة»[١٢].

بالمختصر: **إن ممارستهم** تتناقض مع **تصريحاتهم**. هم عالقون في التنافر المعرفي cognitive dissonance.

يذكر غالين ستراوسون الصراع بمصطلحات مثيرة قائلاً: «تستمر المبررات القوية المنطقية أو الميتافيزيقية لافتراض أنه لا يمكننا امتلاك إرادة حرة قوية بالظهور مرارًا مقابل مبررات نفسية لها قوة مساوية بأنه **لا يمكننا إلا تصديق** امتلاكنا لهذه الإرادة الحرة... يبدو أنه **لا يمكننا العيش** أو تجربة خياراتنا ضمن نظرة حتمية، وإن كانت الحتمية صحيحة»[١٣].

ما هي العبارات الواضحة هنا؟ إنها وجود أفكار «أنه لا يمكننا إلا تصديقها.» و«لا يمكننا العيش» على أساس أفكار مناقضة لها، حتى إذا ظننا أنها حقيقية. عندما يستمر مفهوم (مثل

مفهوم الإرادة الحرة) بالغليان والظهور bubbling up بطريقة حتمية لا يمكن مقاومتها حتى في عقل شخص ينكرها بشدة (**رؤيته الكونية تنكرها إنكارًا مباشرًا**) فتلك إشارة واضحة على أنها حقيقة من حقائق الوحي الإلهي العام إلا أنَّها تُقمع. يرفض نظام الخليقة أن يتسع داخل صندوقِ أيٍّ من الرؤى الكونية القائمة على الأوثان.

لا يهم مقدار محاولة الناس كبح معرفتهم بالله، فالخليقة نفسها تتحداهم باستمرار. وقد كتب توماس جونسون: «إنَّ الحياة الإنسانية هي مباراة مصارعة مستمرة مع الله ونظامه المخلوق.»[١٠] يمكننا عند التحدث مع الشكوكيين واللاأدريين إظهار فشل رؤيتهم الكونية في تفسير الواقع كما يختبرونه **هم أنفسهم**. في النهاية لا يمكن قمع حقائق الوحي العام.

الرؤية الكونية كالخريطة الداخلية التي ترشدنا خلال إبحارنا في واقع الحياة. ولأن الأصنام تؤله **جزءًا** من الخلق، فهي تنتج خرائط تغطي فقط **جزءًا** من الواقع. ونتيجةً لذلك وفي سياق الحياة العادية يضل الناس دومًا عن مسار الخريطة. يحدث ذلك عندما «يُرغمون على الإيمان» بالإرادة الحرة أو المسؤولية الأخلاقية أو أي شيء آخر لا تشمله خريطتهم الإدراكية؛ عندما «لا يمكنهم العيش» ضمن حدود الخريطة المحدودة. تستمر الحياة نفسها بدفعهم خارج خريطتهم الخاصة، لا يمكن لأحد العيش المستقر على أساس خريطة رؤية كونية محدودة مثلها.

• ازدواجية التفكير عند العلمانيين

ولنأخذ أمثلة أخرى من الحياة الواقعية، نجد إدوارد سلنجرلاند Edward Slingerland في كتابه **ماذا يقدم العلم للعلوم الإنسانية** *What Science Offers the Humanities* يُعرف نفسه بأنه ذو قناعة راسخة بالمادية والاختزالية. وقد عبر مراجع لمجلة **العلوم** *Science* عن أمله أنَّ الكتاب سوف «يطلق تجارب اعتناق» للرؤية المادية. (تجارب اعتناق؟ ثم تبدي استغرابك إن أمكن وصف المادية بأنها دين؟)

يحاجُّ إدوارد سلنجرلاند بأن المادية الداروينية تؤدي منطقيًّا إلى استنتاج أن البشر رجالٌ آليون؛ وبالتالي فإن إحساسنا بامتلاك الإرادة أو النفس أو الوعي مجرد وهم. لكنه يعترف أنَّه وهمٌ من المستحيل علينا إبعاده. لا يمكن لأي أحد إلا أن «**يتصرف** كأنه حر، وفي مستوىً ما **يشعر حقًّا** أنه حر». نحن في أساسنا عاجزون عن **تجربة** أنفسنا وباقي الأنواع البشرية كما لو أننا رجالٌ آليون».

حتى إنَّ أحد أقسام كتابه عنون بـ «نحن رجالٌ آليون مصممون على عدم التصديق بأننا رجالٌ آليون».

هل أدركت لغة الوحي العام؟ إنها مشمولة في تلك الحقائق الأساسية التي «لا يمكن للبشر إلا» اختبارها والشعور بها، حتى عندما تكون تلك الحقائق مناقضة لرؤيتهم الكونية الخاصة. ولقد كتب إدوارد سلنجرلاند في أحد المقاطع: «نحن مبنيون بتلك الطريقة» بحيث نخبر «الواقع الذي نعيشه» على أنَّنا فاعلون أخلاقيون «حتمًا» و «دون إمكانية للفرار» من ذلك.

كيف يقترح إدوارد سلنجرلاند حل التناقض بين «واقعه الذي يعيشه» وفلسفته الحتمية؟ إنه حتى لم يحاول. وبدلاً من ذلك قال: «علينا الإقلاع عن خدعة... العيش في وعيٍ مزدوج، وتنمية قدرتنا على رؤية الكائنات البشرية تحت وصفين في وقت واحد: أنهم أنظمة مادية، وأنهم أشخاص»[١٠]. بمعنىً آخر، يوصي بوضوح ببناء انقسام عقلي ثنائي، انقسام ذي طابقين مختلفين:

تنمية «وعي مزدوج»

أشخاص

فاعلون أحرار

أنظمة مادية

رجال آليون

اشتهر هذا التفكير الموزع على أقسام بما دعاه جورج أورويل George Orwell «التفكير المزدوج"، وهو يعمل هنا كآلة تأقلم فلسفية. عندما تفشل رؤية كونية في تفسير الواقع كله، فما الذي يقوم به أتباعها؟ هل يقولون: «أعتقد أن نظريتي فشلت؛ من الأفضل أن أرفضها؟» معظم الناس لا يستسلمون بتلك السهولة. بدلاً من ذلك يقمعون الأمور التي لا يمكن لرؤيتهم الكونية تفسيرها، فيرتفعون في برجٍ عاجيٍّ بعيدًا عن الواقع؛ في قصة من خيالات مفيدة. وتحقيق الرغبة، والأوهام.

إنَّ الوعي المزدوج هو إشارة أنَّ الدليل المقابل من الوحي العام قد قُمع. وكما رأينا في المبدأ الثاني **فكل** رؤية كونية غير الدينية تنتهي بشكل من «الوعي المزدوج» أو الثنائية. سيكون هنالك دائمًا تناقض بين الحقائق التي تعترف بها (ما يتناسب في صندوقها) والحقائق التي تنكرها (ما يبرز خارج الصندوق). الصراع بين ما تصرح به وما تقمعه.

• فقدان الحقيقة الكاملة

من ناحية أخرى فإنَّ ثمن قبول مثل هذا الانقسام الحاد هو خسارة حقيقة موحدة. فكل من نظرتي إدوارد سلنجرلاند للشخص البشري متناقضتان منطقيًّا. فإن كنا بالفعل رجالاً آليين نعمل بناء على أسباب مادية صرفة، فإنَّ الحرية مستحيلة. ليس هنالك رؤية كونية موحدة متماسكة منطقيًّا يمكنها الإحاطة بكلتا الرؤيتين المتناقضتين عن الشخص البشري[١٦].

منذ الأزل يتمسك الناس بفكرة وحدة الحقيقة، فالكون نفسه كلٌّ متسقٌ متكامل، ولذلك فحقيقة الكون يجب أن تكون كلًّا متكاملاً متماسكًا. قد لا نستطيع رؤية كيفية تكامل أجزائه بعضها مع بعض، لكننا نعلم أنَّ جملتين متناقضتين لا يمكن أن تكونا صحيحتين معًا.

كتبت مؤرخة هارفارد جولي روبن .Julie Reuben[١٧] أنه إلى قرابة ثلاثينيات القرن العشرين كان التعليم العالي في أمريكا يقوم على ما يدعى صراحة «وحدة الحقيقة» – «القناعة بأنَّ جميع الحقائق متوافقة، ويمكن ربط بعضها مع بعض أساسًا في نظام واحد». لكن مع هذا تجد اليوم أنه حتى المتعلمون جيدًا يقبلون أحيانًا رؤية متناقضة متشظية بين قسمين متناقضين للحقيقة. فمن ناحية يعتنقون رؤية كونية اختزالية جذريًّا. ومن ناحية أخرى لا يمكنهم إنكار الحقائق التي يواجهونها في خبرتهم اليومية، حقائق الوحي العام. فقاموا بذلك بما كان يعد بالنسبة للأجيال السابقة ضربًا من الجنون: لقد تخلوا عن مثالية وحدة الحقيقة.

• قفزة الشك

لقد كان المفكرون الذين ذكرناهم للتو صريحين للغاية. فلاحظوا التناقض الحاد بين ممارستهم وادعاءاتهم. لكن من غير المعتاد أن يكون الناس متبصرين جدًّا هكذا. حيث يمتنع الكثيرون عن التفكير في النتائج الكاملة لرؤيتهم الكونية، ويعيشون فقط في رقعة من الأفكار

المتناقضة. ومن الاستراتيجيات الفعالة في علم الدفاع عن الدين apologetics مساعدة الناس على رؤية أوضح إلى أين تؤدي رؤاهم الكونية. فعندما يدركون أنَّ الرؤى الكونية المرتكزة على الأصنام تفشل في الاختبار العملي قد يفتح ذلك بصيرتهم للرؤية الكونية الدينية.

انظر مثلاً لمارفن مينسكي Marvin Minsky من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. اشتهر بعبارته الحادة pithy أن الدماغ البشري ليس إلا «حاسوبًا من اللحم بوزن ٣ أرطال».

من الواضح أن الحواسيب ليس لها القدرة على الاختيار؛ وكذلك لا يمكن للبشر الاختيار. لكن ما يثير الدهشة سؤال مينسكي الذي سأله بعد ذلك: «هل ذلك يعني أننا يجب أن نعتنق الرؤية العلمية الحديثة، ونتجاهل الأسطورة القديمة للاختيار الطوعي؟ لا. **لا يمكننا القيام بذلك**».

لم لا؟ يتبع بعدها مينسكي قائلاً: «بغض النظر عمَّا يقدمه العالم المادي من أنه لا مجال لحرية الإرادة؛ فإن هذا مفهوم أساسي لنماذجنا عن المجال العقلي». لا يمكننا «أبدًا الاستسلام. نحن مجبرون فعليًّا على الحفاظ على ذلك الإيمان، **حتى وإن كنا نعلم أنه خاطئ**»[١٨]. خاطئ، ذلك بالطبع وفقًا لرؤية مينسكي الكونية المادية.

هذه حالة مدهشة من التفكير المزدوج الأورويلي Orwellian. يقول مينسكي إنَّ الناس مجبرون على الحفاظ» على الثقة بالإرادة الحرة، حتى عندما تخبرهم رؤيتهم الكونية أنَّها خاطئة". من الواضح أنَّه لا يشير لمجرد عادات أو تقاليد ثقافية يمكن أن تختلف من مجتمع لآخر. هذه حقائق لا يمكن للبشر أن يجهلوها.

الحقيقة الحتمية بأنَّنا كائنات لها ذات شخصية هي دليل على أنَّ أصلنا من كائن له ذات شخصية. كيف هرب مينسكي من قوة «ذلك الدليل؟ لقد اختزله لحالة من البطلان الضروري. ونقله إلى الطابق الأعلى:

«أساطير الأولين» «المجبرون نحن على الحفاظ عليها»
أباطيل ضرورية
حرية الإرادة

رؤية علمية
حاسوب من اللحم

وهذا ليس إلا قفزة إيمانية للعلمانية secular leap of faith. يبدأ أتباع المذهب المادي بتأكيد الطابق السفلي كتفسير لما هو واقعي وصحيح. لكن عندما تفشل حقائق الخبرة المعيشة في التلاؤم مع رؤيتهم الكونية يقومون بقفزتهم الإيمانية leap of faith إلى الطابق الأعلى، ويعتنقون تلك الحقائق بطريقة غامضة كمعتقدات خاطئة لكنها ضرورية[١].

علينا التأكيد على أنَّ هذا بعيد عن مفهوم الدين عن الإيمان. لا يعرف الدين الإيمان كقفزة لشيء ليس له أرضية منطقية في رؤيته الكونية - فليس زيفًا مفيدًا. عندما كتب بولس: «لأَنَّنَا بِالإِيمَانِ نَسْلُكُ لَا بِالْعِيَانِ» [رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٥: ٧]، اعتقد بعض المسيحيين أنَّه يتكلم مجازيًّا، قاصدًا: «بالإيمان، نسلك لا **بالعقل**». لكن بولس كان يتكلم حرفيًّا، ويعني العيان (البصر). فالحقائق اللامادية غير مرئية، لا يمكن رؤيتها. والإيمان هو «الدليل على أمور لا ترى» [عب ١١: ١]. يتطلب الأمر إيمانًا راسخًا للتصرف بناء على حقائق لا نراها، لكنه ليس تناقضًا منطقيًّا. وبناء على الدليل فإن هذه الأفعال منطقية جدًّا، كما يكون منطقيًّا للفيزيائيين الاعتماد على حقيقة القوى والمجالات التي لا يرونها.

يؤدي المشروع العلماني إلى انتحار الفكر وتفكك المرء. وعلى النقيض من ذلك تكون الرؤية الكونية الدينية إيجابية بدرجة مدهشة، مؤكدة كلاًّ من وحدة الحقيقة والالتزام الشمولي عند الشخص المفكر.

• الإلحاد مقابل الحضارة

يحذر بولس في رسالته لأهل رومية ١ أنَّ الأصنام تؤدي لسلوك مدمر، وانهيار القيم الأخلاقية والاجتماعية. وما يثير الدهشة أنَّ بعض المفكرين العلمانيين قد أدركوا حقيقة تحذير بولس.

يعد الفيلسوف ساول سميلانسكي Saul Smilansky من أتباع الحتمية وأنَّ الفاعلية الحرة مجرد وهم. لكنه يعدها وهمًا جاء «من حظنا»، لأنَّها تجعل الحياة المتحضرة ممكنة. ويحض نخبة المجتمع لإقناع الناس بأنَّهم فاعلون مسؤولون (رغم أنَّهم في الحقيقة ليسوا كذلك) للحفاظ على شعورٍ صحي بالمسؤولية والواجب الأخلاقي. وإلا فسيتعللون للسلوك العدائي بقولهم إنهم لا يملكون خيارًا في المسألة. الإرادة الحرة خيال ضروري («ضروريٌّ أخلاقيًّا») لتثبيت أسس النظام الاجتماعي.

لخص ساول سميلانسكي ذلك بقوله: «**لا يمكننا العيش** بطريقة مناسبة مع... إدراك كامل لغياب الإرادة الحرة». وهكذا «علينا التمسك بهذه المعتقدات المركزية ولكن المتناقضة وغير المتماسكة بما يخص الإرادة الحرة»[٢٠].

ما هي العبارات الواضحة التي يتحداها الوحي العام؟ إنها اعترافه «بأنَّنا لا نستطيع العيش» على أساس ما تمليه رؤيته الكونية. وأنه «علينا التمسك» بمعتقد متناقض عن الإرادة الحرة.

بالطبع لا تقدم رؤية ساول سميلانسكي الكونية المادية أي أساس لأي «واجب» أخلاقي، لأنَّ هذه الكلمة تتضمن أنَّ البشر قادرون على اتخاذ خيارات أخلاقية. وتشير مراجعة لكتابه أنَّه يناصر نظامًا «ذا طبقتين two-tiered»: «هنالك أهل المعرفة (غالبًا الفلاسفة والعلماء) الذين يدركون الحقيقة الطبيعية عن أنفسنا، ومن ثم بقيتنا (الأغلبية العظمى) الذين يجب أن يضللوا ويحجبوا عن طبيعتنا الحقيقية، وإلا أصبحنا بلا أخلاق demoralized »[٢١].

عندما نسمع الناس يتحدثون عن أفكار بأنَّها خاطئة، لكنها ضرورية للنظام الاجتماعي البشري، فهذه إشارة إلى أنهم اصطدموا بالحافة القاسية للواقع، وأنَّه لا يناسب رؤيتهم الكونية. لقد تعثروا بحقائق الوحي العام. ويسعون لقمع تلك الحقائق من خلال الحط من مرتبتها إلى مجرد خيالات مفيدة. من المثير للاهتمام كيف يسهل وصف بولس في رسالته لأهل رومية ١ لديناميكيات الكبت الفكري من فهمنا للرؤى الكونية الحديثة.

• رؤية دوكنز الكونية «غير المحتملة»

إنَّ أكثر الملحدين الجدد شهرةً هو ريتشارد دوكنز. ولقد ناقش ريتشارد في كتبه أنَّ البشر ما هم إلا «آلات نجاة، رجالٌ آليون مبرمجون بصورة عمياء» من خلال جيناتهم. لذلك من غير المنطقي وضع المسؤولية على أي أحد فيما يقوم به. وفي النهاية قال: «عندما يخطئ الحاسوب لا نعاقبه، إنما نبحث عن المشكلة ونصلحها». وحث على إصلاح كامل نظام العدالة الإجرامي: «أليس القاتل أو المغتصب مجرد آلة فيها مكون معيب؟»

يحب دوكنز شرح وجهة نظره مستعينًا بحلقة من عرض الكوميديا البريطاني **فولتي تورز** *Fawlty Towers* (**أبراج فولتي**). عندما لم تعمل سيارة باسل فولتي Basil Fawlty

حمراء صغيرة قام أولاً بتوبيخ السيارة، تمامًا كما يفعل الوالدان مع الطفل العاصي، ثم عد حتى ثلاثة. وفي النهاية ضرب السيارة ضربة قوية باستخدام جذع شجرة، وكتب دوكنز عن ذلك: «لقد ضحكنا.» لكن: «لمَ لا نضحك على أحكام قاض يعاقب مجرمًا؟ ... أليست الحتمية العلمية حقًا والميكانيكية عن الجهاز العصبي لا تعطي معنى فيما يتعلق بفكرة المسؤولية نفسها»؟

حسب ذهن دوكنز فإن الإنسان لا يملك حرية تفوق تلك التي للسيارة الحمراء الصغيرة.

وقد عترف دوكنز أنَّه لا يتصرف وفق ما يوصي به عندما ضغط عليه شاب بخصوص هذه المسألة بعد محاضرة عامة. لم يعامل دوكنز فكرة المسؤولية نفسها بكونها لا معنى لها، فيقوم بتحميل الناس مسؤولية أفعالهم: «أنا ألوم الناس، أنا أشكر الناس».

فسأله الشاب: «لكن ألا ترى ذلك عدم اتساق في وجهات نظرك؟» فرد عليه دوكنز: «نعم، أعتقد. لكنه عدم اتساق ضروري لنا لكي نعيش، **وإلا فستكون الحياة غير محتملة**»[٢٣].

لقد كان اعترافًا مذهلاً أنَّه لا يمكن لأحد عمليًّا العيش بالرؤية الكونية الطبائعية التي يحملها هو نفسه؛ لأنَّ عواقبها «لا يمكن تحملها».

• معضلة أينشتاين

ما قد تعتقده من هذه الأمثلة هو أنَّ كثيرًا من المفكرين البارزين يعيشون وجودًا منفصمًا. فقد تبنوا في أعمالهم الاحترافية الفلسفة الاختزالية التي تعدُّ الناس مجرد حمراء صغيرة. لكن عندما يتركون مختبراتهم ويذهبون إلى منازلهم عليهم أن ينحوا معتقداتهم جانبًا ليتمكنوا من معاملة الناس بعدل وإنسانية؛ لتجنب حياة «لا يمكن تحملها».

لكن يبدو أن أينشتاين المفكر العظيم قد وقع في المعضلة نفسها، فقد كتب من ناحية: «إن الحرية البشرية في تفكيرها وشعورها وتصرفها ليست حرة، فهي مرتبطة سببيًّا، كما ترتبط النجوم بالحركة في مساراتها». لكنه قال من ناحية أخرى: «أنا مرغم على التصرف كما لو أنَّ الإرادة الحرة موجودة لأني إن رغبت بالعيش في مجتمع متحضر فيجب علي التصرف بمسؤولية»[٢٤].

الحمراء الصغيرة قام أولاً بتوبيخ السيارة، تمامًا كما يفعل الوالدان مع الطفل العاصي، ثم عد حتى الثلاثة، وفي النهاية ضرب السيارة ضربة قوية باستخدام جذع شجرة، وكتب دوكنز عن ذلك: «بالطبع لقد ضحكنا.» لكن: «لمَ لا نضحك على أحكام قاض يعاقب مجرمًا؟ ... أليست وجهة النظر العلمية حقًّا والميكانيكية عن الجهاز العصبي لا تعطي معنى فيما يتعلق بفكرة المسؤولية نفسها»[٢٢]؟

حسب ذهن دوكنز فإن الإنسان لا يملك حرية تفوق تلك التي للسيارة الحمراء الصغيرة.

ولقد اعترف دوكنز أنَّه لا يتصرف وفق ما يوصي به عندما ضغط عليه شاب بخصوص هذه المسألة بعد محاضرة عامة. لم يعامل دوكنز فكرة المسؤولية نفسها بكونها لا معنى لها، فيقوم بتحميل الناس مسؤولية أفعالهم: «أنا ألوم الناس، أنا أشكر الناس».

فسأله الشاب: «لكن ألا ترى ذلك عدم اتساق في وجهات نظرك؟» فرد عليه دوكنز: «نعم، نوعًا ما. لكنه عدم اتساق ضروري لنا لكي نعيش، **وإلا فستكون الحياة غير محتملة**»[٢٣].

لقد كان اعترافًا مذهلاً أنَّه لا يمكن لأحد عمليًّا العيش بالرؤية الكونية الطبائعية التي يدعمها هو نفسه؛ لأنَّ عواقبها «لا يمكن تحملها».

• معضلة أينشتاين

ما قد تعلمناه من هذه الأمثلة هو أنَّ كثيرًا من المفكرين البارزين يعيشون وجودًا ذا طابقين، أو ثنائي القطب. فقد تبنوا في أعمالهم الاحترافية الفلسفة الاختزالية التي تعدُّ الناس أساسًا سيارات حمراء صغيرة. لكن عندما يتركون مختبراتهم ويذهبون إلى منازلهم عليهم أن يتحولوا لنموذج مضاد ليتمكنوا من معاملة الناس بعدل وإنسانية؛ لتجنب حياة «لا يمكن تحملها».

بل إن ألبرت أينشتاين المفكر العظيم قد وقع في المعضلة نفسها، فقد كتب من ناحية: «إنَّ الكائنات البشرية في تفكيرها وشعورها وتصرفها ليست حرة، فهي مرتبطة سببيًّا، كما ترتبط النجوم بحركتها في مداراتها.» لكنه قال من ناحية أخرى: «أنا مرغم على التصرف كما **لو** أنَّ الإرادة الحرة موجودة، وذلك لأني إن رغبت بالعيش في مجتمع متحضر فيجب علي التصرف بمسؤولية»[٢٤].

لفظ أينشتاين «كما لو أنَّ» تشي بأنه يتكلم عن قفزة إيمانية لا عقلانية. مصدر العبارة هو كتابات إيمانويل كانت Immanuel Kant. فمن ناحية ظن إيمانويل كانط أنَّ العلم يقود لخلاصة أنَّ البشر عبارة عن عناصر في آلة هائلة الحجم تعمل بقوانين الفيزياء. ومن ناحية أخرى قال لإنقاذ المبادئ الأخلاقية، علينا التصرف **كما لو** أننا أحرار. ولتقوية معاييرنا الأخلاقية، علينا التصرف **كما لو أنَّ الله** موجود. وعلينا التصرف **كما لو** أنَّ هنالك آخرة لأن المبادئ الأخلاقية لا معنى لها إلا بانتصار العدالة في النهاية. وإلا «ستعتبر جميع القوانين الأخلاقية مجرد أحلام عاطلة».

في نظرة إيمانويل كانط من المستحيل معرفة إن كانت هذه التعاليم الدينية صحيحة. لكن لتشجيع السلوك الأخلاقي قال إنَّه علينا العيش **كما لو** أنَّها حقيقية. يشير لفظ «**كما لو**" لمفهوم انتقل إلى الطابق الأعلى[٢٥].

العيش «كما لو» كان الدين صحيحًا
ما نقبله «كما لو»
الحرية، الله، الأخلاق، الحياة الآخرة

ما نعلمه
المادية، الحتمية

ومنذ زمن إيمانويل كانط أصبح المصطلح «**كما لو**» يشير إلى حقائق يرغم الناس على التمسك بها، رغم عدم قدرتهم على تفسير تلك الحقائق في رؤيتهم الكونية، فهم يعيشون كما لو أنَّ الدين صحيحٌ، حتى لو أنكرتها رؤيتهم الكونية.

وبدلاً عن التخلي عن رؤيتهم الكونية في مواجهة الحقائق المناقضة لها، تحملوا حالة فصام عقلي حاد.

- **الروحانية العلمانية (التصوف العلماني)**

ما زلنا نعيش في ظل إيمانويل كانط. ناقش عالم الحاسوب إيريك بوم Eric Baum في كتابه **ما هو الفكر What is thought**؟ أنَّ العقل أساسًا هو حاسوب مبرمج أنتجته عمليات تطورية؛ وبهذا تكون الإرادة الحرة وهمًا. وأصر إيريك بوم أنَّ الحجة المنطقية «محكمة». ولكن

المذهل أنه أضاف بعدها: «لكن عمليًّا، من يأبه حقًّا لذلك؟ من العملي والمنطقي أكثر للجينات أن تبني فينا التصديق بالإرادة الحرة، والعملي والمنطقي لي أن أتصرف وأفكر **كما لو** أنَّ لدي إرادة حرة». إنَّه لخيال مفيد usefull fiction.

لكنَّ الخيال المفيد يبقى خيالاً. والتمسك به عندما تنكره رؤيتنا الكونية أمر غير عقلاني. قد ندعوه شكلاً من الروحانية العلمانية secular mysticism. يعترف إيريك بوم أيضًا بذلك، حيث كتب: «الإرادة الحرة نظرية مفيدة للغاية» لوصف السلوك البشري. لكنها ما تزال نظرية «خاطئة». ولنكون دقيقين، فهي «ليست حتى خاطئة»؛ وذلك لأنَّه «لا يمكن تقديم أي تفسير منطقي لها» (على الأقل ضمن رؤيته الكونية). وهكذا يستنتج بوم أن «الإيمان روحي ببساطة»[٢٦].

حتى إنَّ إحدى مجموعات المفكرين لقبت بـ«الروحانيين mysterians». وجادلوا بأنَّ الذكاء البشري بكل بساطة ليس مجهزًا لحل لغز الوعي؛ ذلك أنَّه تطور لحل المشكلات العملية الصرفة، مثل الحصول على الطعام وصناعة الأدوات. وكتب كولين ماكغين Colin McGinn ممثلاً هذه المجموعة: «**لا بد أن** الوعي تطور من المادة بطريقة ما، لكن لا يمكننا استنباط أو تصور أي شيء يعطينا أدنى أمل لتفسيره... لا نملك المؤهلات الإدراكية التي تسمح لنا بإزالة الشعور بالغموض»[٢٧].

ولقد لاحظ فرانسيس شيفر في كتابه **الإله الذي يوجد هناك** *The God Who Is There* أنَّ كل رؤية كونية تتضمن ثنائية من طابقين تؤدي في النهاية إلى «الروحانية» بمعنى أنَّ الأتباع لا بد أن يؤكدوا في المحصلة وجود حقائق لا يمكن لرؤيتهم الكونية تفسيرها منطقيًّا[٢٨]. من السخرية أنَّ كثيرًا من المفكرين الممجدين لأنفسهم بأنهم أبطال العقلانية قبلوا شكلاً من الروحانية؛ منقادين إلى ذلك الموقف المتطرف رغبة بقمع الحقائق التي تتناقض مع رؤيتهم الكونية المفضلة.

• الداروينيون المعتلون نفسيًّا

في رسالة أهل رومية ١ أنَّ الله «تخلى عن البشر» ليلاحقوا أصنامهم أكثر، مما يزيد الفجوة بين ما يدعونه وبين ما يمارسونه. يمكننا تصوير الرؤى الكونية تقع في مجال ممتد: كلما حاول الناس

أكثر جعل منطق رؤيتهم الكونية متسقًا، كانت النتيجة اختزالية أكثر وكانت الفجوة أكبر، وكانت القفزة أبعد إلى الروحانية اللاعقلانية. ويصبح الخيار أمامهم أوضح: هل سيتبعون دليل الوحي العام؟ أم سيتعلقون بنظرياتهم ضد الدليل؟

دعنا نتبع سلسلة من الأمثلة لنري أنفسنا كيف تنمو الفجوة أكثر فأكثر؛ وبطريقة مقلقة أكثر.

لقد بدأنا مع سلنجرلاند؛ فلننظر الآن أين انتهى به الأمر. لقد أقر باعتباره داروينيًّا ومتبعًا للمذهب المادي، أنَّ رؤيته الاختزالية عن البشر كرجال آليين أساسًا مناقضة للخبرة البشرية العادية. إنَّها «شاذة وكريهة غالبًا، وفق أي منظور بشري طبيعي.» وكتب مشيرًا لابنته: «في مستوىً مهم ومتأصل فإنَّ فكرة أنَّ ابنتي مجرد رجل آلي معقد تحمل جيناتي إلى الجيل اللاحق فكرة مشوشة وكريهة أيضًا بالنسبة لي.» تلهمنا مثل هذه الرؤية الاختزالية نوعًا من المقاومة العاطفية وحتى الاشمئزاز».

في الحقيقة لقد كتب، إذا لم تشعر بالنفور، فهنالك خطب ما بك: «ربما هنالك أفراد يفتقرون لهذا الشعور، ويمكنهم أن ينظروا بُيسر وتعمق لأنفسهم ولباقي البشر ضمن منظور آلي ذرائعي صرف، إلا أننا ندعو مثل هؤلاء الأشخاص 'معتلين نفسيًّا'، ونحاول تحديدهم وإبعادهم ونحن محقون في هذا حماية لبقيتنا»[٢٩].

ماذا عسانا نقول عندما يحثنا شخص على تبني رؤية عن البشرية يعترف هو نفسه بأنَّها مشوشة وكريهة؟ رؤية تلهم النفور؟ رؤية خطيرة للغاية، لدرجة أنه عند تفعيلها تبرر لنا أن نصف الناس بصفة «الاعتلال النفسي» وأن نحبسهم؟

هنالك اصطدام شديد بين ما تخبره به ماديته الداروينية (في الطابق السفلي) وما تخبره به خبرته الحياتية (في الطابق العلوي). فأيتهما سيتقبلها كحقيقة؟

لوصف هذا الاصطدام نستخدم مصطلح **التنافر المعرفي** cognitive dissonance، لكن قد تكون تلك الكلمة ألطف مما ينبغي، فهذا تناقض صارخ. ولقد كتب بولس أنَّ أولئك الذين يبنون حياتهم على الأصنام فلقد «**حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ**» [رسالة بولس إلى أهل رومية ١: ٢١].

تعني الكلمة اليونانية *futile* (المترجمة في النسخة العربية للإنجيل بـ «حمقوا») غير منتج، غير نافع، فاشلاً في تحقيق هدفه. وكما يعرض هذا المثال بوضوح فلا يمكن للرؤى الكونية المستندة على الأصنام إعطاء المطلوب من فلسفتنا للحياة، وهو رؤية كونية متماسكة ترضينا منطقيًا تعطي معنى لكل الحياة.

وتعزز الكلمة اليونانية *foolish* (المترجمة في النسخة العربية للإنجيل بـ «الغبي») مقصودنا. يعني جذرها التركيب، أي وضع الأشياء بعضها مع بعض في العقل، للحصول على الفهم، فيصبح المرء حكيمًا. وهكذا فأن تكون غبيًا هو أن تفشل في ربط الأفكار، أو تفشل في ربطها في بنية ذات معنى، في كلٍّ متماسك. يسلط النص الديني الضوء على الرؤى الكونية المفككة والمتكسرة المتناقضة داخليًا ذات الطابقين والناتجة عن اعتناق الأصنام.

ليس من العجب أن يكتب بولس أنَّ أولئك الذين يرفضون الخالق « إِنَّهُمْ بِلَا عُذْرٍ» [رسالة بولس إلى أهل رومية ١: ٢٠]. تعني العبارة أنهم «بلا دفاع» وتشير أساسًا إلى دفاعٍ شرعي في المحكمة. إنَّ الكلمة في اللاتينية هي *anapologetos*، ولها الجذر نفسه مع الكلمة *apologetics* والتي تعني علم الدفاع عن العقائد المسيحية. يشير المقطع إلى أنَّ أولئك الذين يتبنون بديلاً عن الله ينتهي بهم المطاف مع رؤىً كونية ذات طابقين، لا يمكنهم تبريرها على أنها متماسكة منطقيًا أو متسقة أو واقعية. لا تناسب رؤاهم الكونية الواقع كما اختبروه بأنفسهم.

قوة هذا المنهج أنه يبين سبب فشل الرؤى الكونية بناء على شروطها نفسها. من النادر أن يقتنع أحد بنقدك لرؤى الآخرين انطلاقًا من مفهومك أنت. كل ما يبينه ذلك هو أن تلك الرؤى تخالف **رؤيتك**. وبدلاً من ذلك عليك أن تدخل تخيليًا في المنظورات الأخرى لتبين من داخلها افتقارها للقدرة التفسيرية.

• أستاذ في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا: أولادي آلات

عندما يترك الله الناس لأصنامهم، سيواجهون صراعًا متناميًا بين رؤيتهم الكونية وواقعهم الذي يعيشونه. عندما أُعلم هذه المفاهيم في الصف فأحد الأمثلة التي يجدها طلابي محزنة بشكل خاص هو كتاب **اللحم والآلات** Flesh and Machines لروندي بروكس Rodney Brooks، وهو

أستاذ فخري في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. حيث كتب بروكس أنَّ الكائن البشري ليس إلا آلة، «كيس كبير من الجلد مملوء بالجزيئات الحيوية" تتفاعل طبقًا لقوانين الفيزياء والكيمياء.

بالطبع من الصعب في الحياة العادية النظر للناس فعلاً بتلك الطريقة. لكن وحسب قوله: «عندما أنظر لأطفالي، يمكنني عندما أجبر نفسي... رؤية أنهم آلات».

لكن هل يعاملهم على ذلك النحو؟ بالطبع لا: «أنا لا أعاملهم على هذا الأساس... أنا أتفاعل معهم ضمن مستوىً مختلفٍ تمامًا. فلهم حبي غير المشروط، وهو أبعد ما يكون عن الوصول إليه بتحليل منطقي». بالتأكيد إذا كان ما يعد «منطقيًا» هو الرؤية الكونية المادية التي تحسب البشر آلات، فحب أطفالك غير منطقي، وليس له أساس ضمن رؤية بروكس الكونية. إنه يبرز خارج الصندوق.

كيف يتصالح بروكس مع هذا التنافر المعرفي المحطم للقلب؟ لم يقم بذلك؟ أنهى بروكس الكلام قائلاً: «حافظت على مجموعتين من المعتقدات غير المتسقة بعضها مع بعض»[٣٠]. لقد تخلى عن أي محاولة لموافقة نظريته مع تجربته. لقد تخلى عن أي أملٍ في رؤية كونية موحدة ومتسقة منطقيًا. ببساطة: لقد سقطت دفاعاته.

هذه هي مأساة عصر ما بعد الحداثة، فالأشياء الأكثر أهمية في الحياة، والضرورية للمجتمع البشري؛ القِيَم مثل الحرية الأخلاقية والكرامة البشرية وحتى حب أطفالنا، اختزلت إلى مجرد خيالات مفيدة. لقد رميت في علية البيت، التي أصبحت مكب نفايات مناسبًا لأي شيء يعجز نموذج المادية عن شرحه.

يعلمنا الدين أنَّ البشر دون الله سيخسرون أخلاقهم. لكنهم أيضًا سيتيهون فكريًا، لأنهم يحاولون العيش ضمن حدود رؤية كونية محدودة وضيقة بحيث لا تفسر **إنسانيتهم أنفسهم**. إنهم مجبرون على وضع كل أملهم في الحصول على الكرامة والمعنى في مجال الطابق العلوي الذي يعدونه أنفسهم غير منطقي وغير قابل للمعرفة؛ حيث لا شيء فيه إلا أباطيل ضرورية.

وما يثير الأسى أنه مع مرور الوقت ستفقد هذه القيم الإنسانية قوتها حتمًا. فبالمحصلة إننا قد صُنعنا على صورة الله ككائنات منطقية؛ ولذلك نميل لاتباع النتائج المنطقية لمسلماتنا. ومن

المستحيل نفسيًّا أن نتقبلَ مفاهيم نعتبرها خيالات، مهما كانت مفيدة. إن كان شخص مثل بروكس ينظر حقًّا إلى أولاده باعتبارهم مجرد آلات تعمل بتروس دوارة، فإن ذلك الاعتقاد سيُتلف في النهاية «حبه غير المشروط» تجاههم. وإن كانت الطبقات التي تقود المجتمع مقتنعة فعلاً أن الناس مجرد آلات فستتلف تلك القناعة بالمحصلة الحريةَ السياسية. فللأصنام نتائج عملية[٣٠].

• غلبرت تشيسترتون Chesterton: الدين «أروع من أن يُصدق»

لدى المؤمنين اليوم فرصة لم يسبق لها مثيل لتقديم الرؤية الكونية للدين كرؤية إيجابية ومؤكدة للحياة. إذا انطلقنا من مادة تعمل بطريقة عمياء وبقوىً آلية، فالمنطقي عندئذٍ أن البشر في النهاية ليسوا **إلا** آليات معقدة. فافتراضاتك الأولية تحدد من التصنيفات المتوافرة لك.

لكن إذا بدأت بفاعلٍ متعال له ذات شخصية، فلديك تفسير منطقي مثالي عن سبب كون البشر بالمثل أيضًا فاعلين يتمتعون بذوات شخصية، فالسبب مكافئ للنتيجة. يمكن تقديم تفسير منطقي للظاهرة نفسها التي تكون إشكالية في المادية العلمية (مثل حرية الإرادة والوعي والحب) وذلك ضمن الرؤية الكونية الدينية. لا يوجد أي جزء من التجربة البشرية يقع خارج تصنيفاتها. لا يبرز شيء خارج الصندوق. لا تكون الذات الإنسانية غير متلائمة ضمن عالم حتمي. ليس هنالك تقسيم لطابق علوي وطابق سفلي، لأنك لا تحتاج لعلية روحانية تخفي فيها الأشياء التي لا تتناسب مع رؤيتك الكونية. يستمر الدين بالتأكيد على وحدة الحقيقة ككلٍّ متماسك متسقٍ منطقيًّا. ففيه تصالحت كل الأمور «**صَالَحَكُمُ**» [رسالة بولس إلى أهل كولوسي ١: ٢١].

يراهن غلبرت كايث تشيسترتون على أنَّ العلمانيين يرفضون الدين ليس لأنَّهم يرونه نظرية سيئة، إنما لأنه يبدو «أروع من أن يُصدق». بالنسبة لمتبع المذهب المادي فإنَّ «الكون سجنٌ عالمي.» يقيد البشر بسلسلة متشابكة من السبب والنتيجة. وهكذا عندما يواجه العلماني رؤية الدين «يبدو التصديق بأمر مثل الحرية كالتصديق بوجود دنيا الخيال».

خلص تشيسترتون إلى أنَّه إذا وجد العلماني الدين «غير قابل للتصديق»، فلأنَّه إيجابي إلى درجة غير قابلة للتصديق في إثبات رؤية سامية للكرامة والحرية البشرية»[٣١].

ينتقد المفكرون العلمانيون الدين غالبًا لأنه غير منطقي. لكن ما يثير السخرية أنَّ الرؤية الكونية المتماسكة في نظام متسقٍ منطقي اليوم هي الرؤية الكونية في الكتاب المقدس. فهي تحررنا من التنافر المعرفي، وتمنحنا سلامًا، ووحدة داخلية عميقة. وتتوافق مع الطبيعة البشرية التواقة لحياة موحدة وكاملة. (كلمة موحدة مصدرها الكلمة اللاتينية الكل). وعند التحدث مع العلمانيين يمكننا أن نريهم كيف يملأ الدين قيمهم وآمالهم الأسمى.

بالطبع ليس كل من يقبل المادية أو الطبيعية يتابع فيقبل الحتمية. لكني أفترض أنَّ هؤلاء كانوا كذلك لأنهم لم يحرصوا على الوصول إلى النتيجة المنطقية لمسلماتهم. يقبل غالب الناس الأفكار التي تبدو جذابة أو معقدة، لكن لا يتعقبون تلك الأفكار وصولاً لنتائجها النهائية. وبتقديم أمثلة عن علماء وفلاسفة كالذين ذكرناهم في المبدأ الثالث نستطيع تقديم تأكيد واقعي. يميل الناس للاقتناع عندما يتعلمون العواقب السلبية للمادية والإلحاد من كتابات المفكرين الماديين والملحدين أنفسهم.

• الانحراف عن خريطة ما بعد الحداثة

لقد طبقنا حتى الآن الاختبار العملي على الرؤى الكونية التنويرية. لكن ماذا سيحدث عندما نطبق المبدأ الثالث على الوجه الآخر للعملة – تقليد قاري ناتج عن الحركة الرومانسية؟ كما رأينا سابقًا فبدلاً من جعل الطابق السفلي (المادة) مطلقًا، تقوم المثالية الفلسفية بجعل الطابق العلوي (العقل) هو المطلق، فتدعي أنَّ الحقيقة الجوهرية هي العالم العقلي للأفكار. يصف شوبنهاور Schopenhauer المثالية بقوله إنَّها تأخذ «الحقائق الأبدية» والتي هي أساس كل الفلسفة السابقة، وتتحرى أصلها، لتجده في رأس الإنسان»[٣٣].

لكن إذا كانت الحقائق الأبدية بالفعل «في رأس الإنسان»، فالخلاصة المنطقية أنَّها بالمحصلة ليست أبدية، وأنها مجرد بنيات بشرية نسبية ومتغيرة. وفي أيامنا هذه وصلت ما بعد الحداثة إلى تلك الخلاصة، فتؤكد أنَّ البشر لا يملكون الوصول لعالم موضوعي أو خارج حدود العقل. وفي عبارة ريتشارد رورتي Rorty المختصرة المفيدة فإنَّ الحقيقة «تصنع بدلاً من أن توجد»[٣٤].

إذا أبقت المادية صناديقها القديمة في العلية، فيمكننا القول إن عصر ما بعد الحداثة أبقاها صناديق قديمة في السرداب، معنونة بمصطلحات فترة ما بعد الحداثة، مثل «المركزية المنطقية»، أو «بعد الاستعمار» أو «السرديات الكبرى Metanarrative» أو «الوعي الكاذب».

لنسأل السؤال نفسه الذي طرحناه على الرؤى الكونية التنويرية: هل يمكن لما بعد الحداثة تفسير حقائق الخبرة البشرية الكلية؟ هل يمكن العيش فيها دون تناقض في العالم الحقيقي؟ أم تؤدي إلى ثنائية هشة؟

الجواب هو أنَّه عمليًّا لا يعيش أتباع مذهب ما بعد الحداثة باتساق على أساس فلسفتهم الخاصة. فهم لا يعاملون جميع الأفكار كما لو أنها بنى بشرية. وبدلاً من ذلك ومثل أي شخص طبيعي آخر، يختبرون مفاهيمهم العقلية مقابل الحالات خارج العقل بشتى الطرق. لقد ظنوا أنَّ الخبز كان في الثلاجة، ولكنهم وجدوه على الطاولة. لقد ظنوا أن مفاتيحهم كانت على الطاولة، لكنهم وجدوها في جيب. كيف؟ من خلال مقارنة معتقداتهم الداخلية مع شؤون العالم الخارجي.

يُظهر أتباع ما بعد الحداثة في الحياة اليومية اهتمامًا بالحقيقة الموضوعية كما يفعل أي شخص آخر. ويعلق دالاس ويلارد Dallas Willard على ذلك قائلاً: «لقد لاحظت أنَّ أكثر أتباع ما بعد الحداثة تشددًا ينقلب بكل برودة لحداثي عندما يناقش مصالحه الثانوية fringe أو بقية الأمور التي لها تأثير كبير على حياته العملية»[٢٥]. إذا استخدمنا استعارة «أن الرؤية الكونية هي خريطة عقلية»، نرى أنَّ أتباع ما بعد الحداثة ينحرفون عن خريطتهم. لقد كانت أصغر من أن تفسر الجغرافية الكاملة لماهيتهم.

كما رأينا في المبدأ الثاني، فإن ما بعد الحداثة تعد شكلاً من التضاد مع الواقعية، فهي رؤية للعالم كتركيب اجتماعي. ورغم ذلك فليس بوسع البشر إلا العمل باعتبار أن العالم الخارجي حقيقي، وأن معرفتنا به موثوقة أساسًا. أولئك الذين ينكرون إمكانية وصولنا إلى العالم الخارجي لا يدعون النظر إلى طرفي الطريق قبل العبور. ويتجنبون القفز من على الشرفات، ولا يحاولون التنفس تحت الماء. أي إنهم يعلمون بوجود عالم خارجي عليهم صَوغُ سلوكهم تبعًا له؛ وإلا فستكون النتائج كارثية.

لقد تعلمنا جميعًا هذه الحقيقة الأساسية منذ نعومة أظفارنا. في بداية طفولتنا، عندما اصطدمنا بالحائط أو انقلبنا من على الكرسي واصطدمنا بالأرضية اكتشفنا وبطريقة مؤلمة أن الكون له بنية موضوعية objective. عندما لم يحتوِ صندوق الألعاب على الدمى التي أردناها اكتشفنا أنَّ الواقع لا ينحني لرغباتنا الشخصية. إن أي شيء يلزمنا تأكيده لكي نعيش في هذا العالم هو جزء من الوحي العام.

يشرح الدين سبب عدم كون الحقيقة مجرد تركيب بشري. فالعالم ليس من خلق عقولنا الخاصة. إنَّه صناعة الله. لا يمكن للعقل البشري انتحال دور ووظيفة الخالق. يعطي مفهوم الكتاب المقدس عن الخلق الأرضيةَ المنطقية التي تدعم ما يخلص إليه البشر حتمًا بالتجربة منذ بداية طفولتنا.

ومن المثير أنَّ ريتشارد رورتي يعترف أنَّ الفكرة ذاتها للحقيقة الموضوعية (الحقيقة الموجودة «خارجيًّا هنالك») تكون منطقية فقط على أساس الرؤية الكونية الدينية. والاقتراح أنَّ الحقيقة توجد خارجيًّا هناك... هو إرث عصر كان العالم يرى فيه خلقًا لخالق لديه لغته الخاصة»، «لغة غير بشرية» مكتوبة في الكون[٣٦]. ينصت ريتشارد رورتي إلى الصورة التي اعتنقها المؤمنون، فكرة وجود كتابين: الكتاب المسطور (كلام الله)، والكتاب المنظور (الطبيعة). ولأن العالم نفسه أشبه بكتاب، فهنالك رسالة ومعنىً مكتوبان في الكون نفسه. يجب على البشر أن يكونوا قادرين على «قراءة» حقائق أساسية معينة مسطورة في الخلق. علينا أن نكون قادرين على معرفة أثر الله في الوحي العام، تمامًا كما في تعاليم أهل رومية.

• لا تفرض حقائقك

تعلمنا سابقًا أنَّ جميع الأصنام تقود إلى انقسام أو ثنائية عقلية؛ وأنَّ ما بعد الحداثة ليست استثناءً من ذلك. أشار الفيلسوف ويليام لان كريغ William Lane Craig إلى أنَّه لا يطبق أحد باتساق عمليًّا ما بعد الحداثة بكل اتجاهاتها وحدودها: «لا يكون الناس نسبيين relativistic عندما يتعلق الأمر بالعلم والهندسة والتقنية. لكن تراهم نسبيين وتعدديين فيما يتعلق **بالدين والأخلاق**»[٣٧].

بالمختصر، هم يطبقون شكوك ما بعد الحداثة خاصتهم بطريقة انتقائية.

فكر بالأمر هكذا: كثيرًا ما نسمع الناس يقولون: «لا تفرض دينك عليَّ». لكننا لم نسمع أحدًا يقول: «لا تفرض حقائقك عليَّ.» لمَ لا؟ لأنَّ الحقائق يفترض أن تكون موضوعية وعالمية، تشمل الجميع.

المغزى أنَّ أكثر الناس يوظفون أفعالهم على شقين: حداثيين وما بعد حداثيين، بناء على الحالة. يقول الفيلسوف إرنست غيلنر Ernest Gellner عند التعامل مع الدين والأخلاق

يتوقف معظم الناس عن التفكير في الصح والخطأ. يتوقفون عن النظر للدين كنظام للإجابة عن الأسئلة الكونية للحياة. وبدلاً من ذلك يختارون الدين بالطريقة التي يختارون بها نمط ورق الجدران، أو كما يختارون طعامًا من قائمة المطعم.» لقد أصبح مجالاً من مجالات الحياة حيث يقبل الاختيار على أساس مشاعر الذوق الشخصي الصرف. وبخلاف ذلك يقول إرنست غيلنر Ernest Gellner عندما «تكون القضايا الهامة للناس مهددة بالضياع" مثل الحصول على المال أو الحصول على الاحتياجات الطبية، ترى الناس يرغبون في حلول تستند على «المعرفة الحقيقية.» يرغبون في معرفة النتائج المجربة للأبحاث والعلم الموضوعي[٢٨].

وهذا يعني أنَّ معظم الناس يعيشون حياة مجزأة. ففي العالم الخاص للمنزل والكنيسة والعلاقات يتصرفون طبقًا لنظرة ما بعد الحداثة للحقائق باعتبارها نسبية وشخصية، لكن في العالم العام المتعلق بالعمل والتمويل تراهم يتصرفون طبقًا لنظرة الحداثيين عن الحقيقة بكونها موضوعية وقابلة للإثبات. بالمختصر يتوقفون عن العيش كأشخاص كاملين ذوي فلسفة متسقة ومتماسكة عن الحياة.

وليس من العجب ما قاله الفيلسوف لويس دوبري Louis Dupre أنَّ التحدي المركزي لعصرنا هو الافتقار لأي حقيقة متكاملة: «**إنَّنا نجرب ثقافتنا بطريقة متقطعة؛ فنعيش على** أساس قطع من المعنى ونفتقر للرؤية الكاملة التي تمسكها معًا في كلٍّ واحد». ونتيجة لذلك يشعر الناس بحاجة شديدة للتكامل الذاتي. إلا أنَّ الدين يمتلك القوة لتكامل حياتنا ويُنشئ بنية شخصية متماسكة، لكن ذلك فقط إذا تمسكنا بها باعتبارها الحقيقة المطلقة، التي تجمع كل الحقائق الأدنى منها. يقول لويس دوبري التزامنا بحقيقة الدين «لا يمكن ببساطة أن يبقى جزءًا منفصلاً من الحياة.» يجب أن «تتكامل كل السمات الأخرى للوجود»[٢٩]. أي شيء أقل من ذلك ليس جميلاً ولا يكفي لإشعال عاطفتنا وتحسن شخصيتنا.

• اعتراف أستاذ في هارفارد

وزعت مرة عرضًا تقديميًّا يتضمن عدة أمثلة في هذا الفصل. بعد ذلك أتى إليَّ أستاذ من هارفارد من الحضور وبدا الانزعاج عليه واضحًا. فقد انتقدت عمل أساتذة الجامعة في أماكن مثل هارفارد، وهم زملاؤه. وقال بتأكيد: «**هم يعلمون أنَّ نظرياتهم لا تشرح الحياة العادية** خارج المعمل». «لكن لماذا نجابههم بهذا صراحة»؟

أول شيء صدمني كان انزلاق لسانه باعتراف مذهل. يعلم هؤلاء العلماء والفلاسفة أن نظرياتهم لا تناسب العالم الحقيقي؟ وفي رسالة بولس لأهل رومية ١ يقول بولس إنَّ شهادة الوحي العام معروفة للجميع، هل كان هذا الأستاذ يؤكد ما قاله بولس دون أن يتعمد ذلك؟

عندما قرأت في رسالة بولس لأهل رومية ١ أنَّ أولئك الذين يعبدون أصنامًا «بِلا عُذْرٍ» قد تبدو لهم تلك الكلمات قاسية. لكن في هذا الفصل قابلنا عدة باحثين اعترفوا بانفتاح أنَّ نظرياتهم الاختزالية تتصادم مع حقائق الخبرة العملية، فهم مدركون من زاوية ما أنهم يخفون تناقضًا حادًّا. يقول ديريك بارك Derek Park إنَّ هذا النوع من النزاع الداخلي شائع جدًّا في الحقيقة.

وكتب مخاطبًا زملاءه الفلاسفة: «قد نقتنع ضمن مستوىً انعكاسي أو فكري أنَّ رؤية ما صحيحة؛ لكن في مستوىً آخر، مستوىً يختلط مباشرةً مع عواطفنا، قد نستمر بالتفكير والشعور كما لو أنَّ رؤية أخرى هي الصحيحة.» ويخلص إلى قوله: «أشك بأنَّ لدى كثير منا هذه الاعتقادات غير المتسقة حول الأسئلة الغيبية لمعظمنا»، مثل حرية الإرادة والوعي والنفس[٤٠].

كيف يبرر الفيلسوف تعايشه مع «معتقدات غير متسقة»؟ يجرؤ الفيلسوف كاريستن هاريس Karsten Harries من جامعة ييل Yale على أن يقول إنَّ كثيرًا يتمسكون بنظرية «مزدوجة الحقيقة». هم «مصممون أساسًا» على التمسك ببعض الأفكار على أنها حقيقة من ناحية التجارب الشخصية الأولى، لكنهم يتمسكون بأنَّ الأفكار نفسها تعتبر خاطئة بحسب العلم. فقال: « نحن مجبرون كفاعلين أذكياء على تصديق بعض الأمور، أكثرها أهمية هي أنَّ إرادتنا حرة، وأننا أنفسٌ مستمرة عبر الزمان، وأنَّ هنالك حقائق أخلاقية قد تكون عالمية، معتقدات نعلم أنها خاطئة لأنَّنا ملتزمون بالعلم». وقوله «خاطئة» طبقًا للمفهوم المادي للعلم[٤١].

قد تظن أنَّه عندما يدرك الناس أنَّهم يتمسكون بمعتقدات غير متسقة سيبحثون عن معتقدات أفضل. إلا أنَّه وكما رأينا فإنَّ كثيرًا من العلماء يحدون أنفسهم بعمق في اختزاليتهم. قد يشير الإقرار بدليل الوحي العام إلى الله المذكور في الدين؛ ولذلك يقمعون ذلك الدليل.

المذهل في الأمر وجود بضعة أشخاص ممن اعترفوا أنَّ التخلص من فكرة الله هو بدقة هدف نظرياتهم الاختزالية. خذ مثلاً فرانسيس كريك Francis Crick الذي أصبح اسمًا علمًا بعد

اكتشافه مع جيمس واتسون James Watson البنية الحلزونية المزدوجة للحمض النووي الريبوزي المنقوص الأوكسجين (الدنا). اعترف كريك بأريحية أنه سعى وراء النظريات الاختزالية لأنَّه أراد إقصاء الدين. فقال في مقابلة معه: «دخلت في العلم بسبب هذه الأسباب الدينية، ليس هنالك شك في ذلك». «لقد سألت نفسي ما هما الشيئان اللذان يبدوان غير قابلين للتفسير ويستخدمان لدعم المعتقدات الدينية». ولقد قرر أن هذين الشيئين هما أصل الحياة (الطبيعة المادية) والوعي (الطبيعة البشرية). وقد كان هدفه توضيح كل منهما باختزالهما بأسباب فيزيائية كيميائية.

ولقد عبر واتسون في المقابلة ذاتها عن حافزه الديني. وقال إن اكتشاف البنية الحلزونية المزدوجة يعطي «أرضية تفكير بأنَّ القوى المُسلم بها أنَّها خاصة حصريًّا بالآلهة قد تصبح في يوم من الأيام بحوزتنا»[٤٢].

بالنسبة لبعض الناس على الأقل فإنَّ هدف اقتراح النظريات الاختزالية هو إنكار الخالق، وسلب قواه الإلهية.

• العلمانية صغيرة للغاية حتى على العلمانيين

الأمر الآخر الذي صدمني حول تعليق أستاذ جامعة هارفارد كان توصيفه لتحليل شخص عن رؤيته الكونية بـ « لماذا نجابههم بهذا.» يجب ألا يكون هدف اختبار الرؤى الكونية مهاجمة أولئك الذين يتمسكون بمبدأ انفتاح العقل لبديل أفضل. غالبًا ما يتمسك الناس بأفكار غير ناضجة يمكن أن يرفضوها إذا فهموا بوضوح أكبر إلى أين تقود هذه الأفكار. لذلك ينصبون نوعًا من منطقة محمية لحماية أنفسهم من العواقب اللاإنسانية واللامنطقية لرؤاهم الكونية. ومن الطرق الفعالة في علم الدفاع عن الدين هي الضغط بلطف على الناس للتفكير بطريقة نقدية أكثر لإزالة الطبقات الواقية، ليتمكنوا من رؤية تداعيات رؤاهم بوضوح أكبر. فعندها فقط سيكونون أحرارًا بالفعل لاتخاذ خيارات صعبة تتعلق بثوابتهم الأساسية، لكن عند الضغط على الناس بلطف ليكونوا منطقيين في استنتاجاتهم علينا أن نتصرف بحب وشفقة، لأنَّ الناس عندما يشعرون بالقوة الكاملة لرؤاهم فيمكن أن تكون مسببة للاضطراب بشدة.[٤٣]

ويقول النص إنَّه عندما لاحظ بولس كثرة الأصنام في أثينا «احتدت روحه»، وهي كلمة تترجم أيضًا لـ حزن وانزعج واضطرب وغضب [سفر أعمال الرسل ١٧ : ١٦]. يجب أن يكون دافع المؤمن في علم الدفاع عن الدين حزنًا يستلهمه من الله شفقة على الضالين. يجب أن نكون حزينين للغاية على الاختزالية المهينة للكرامة البشرية، ذلك أنها تخزي وتدمر إخواننا البشر. يجب أن نبكي على أولئك الذين تنكر رؤاهم الكونية المظلمة المعنى والأهمية الأخلاقية لخيارات حياتهم. يجب علينا المضي بأسًى لأجل أولئك الذين علمهم تعليمهم أنَّ عشقهم وأحلامهم وأفكارهم الأسمى هي لا شيء إطلاقًا إلا نبضات كهربائية تقفز في مشابك أدمغتهم. يجب أن نندب حزنًا متبعي ما بعد الحداثة الذين يظنون – كما قال شوبنهاور Schopenhauer أنَّ «الحقائق الأبدية» موجودة فقط في رؤوس الناس.

عند الحديث مع أشخاص عالقين في رؤية كونية علمانية يمكننا مساعدتهم على رؤية أنَّها لا تقدم أساسًا لحقائق الحياة التي تعد أهم ما يهتمون به هم أنفسهم. الحقيقة نفسها التي لا يمكنهم العيش ضمن حدودها المقيدة هي إشارة على أنَّهم صُمموا ليعيشوا في كونٍ أغنى بالمفاهيم. العلمانية صغيرة للغاية حتى على العلمانيين. يجب أن نبدأ بإظهار التضامن مع أشواقهم الأعمق للمعنى والأهمية؛ ثم نبين ذلك لهم في رؤية الدين الكونية، هذه الأشواق ليست مجرد أوهام أو خيالات مفيدة، إنما هي حقائق حية.

غالبًا ما نسمع صورًا نمطية عن الدين بأنَّه سلبي وقمعي؛ بأنَّه يعدُّ طبيعة البشر فاسدة وعديمة القيمة؛ وأنَّه لا يعير قيمة للحياة في هذا العالم. لكن في الواقع فإنَّ الرؤية الكونية الدينية للحياة البشرية أسمى من أي نظام منافس. فهي تعطي قاعدة منطقية لحقائق التجربة المعيشة التي تنكرها الرؤى الكونية العلمانية المهيمنة في يومنا هذا: الحرية والخلق والحب والأهمية الشخصية والحقيقة الأصلية. كيف يمكننا أن نكون إلا محبين ومبتهجين في تواصلنا مع مثل هذه الرسالة المُحيية للروح؟

من الصور النمطية السلبية الأخرى عن الدين هي أنَّه لا عقلاني ورجعي. ستتعلم في الفصل القادم كيف تدير دفة الحوار عند مصادفة تلك التهمة، كيف تعرض أنَّه في الحقيقة أنَّ الأصنام هي ما تؤدي لرؤىً كونية لاعقلانية ومتناقضة ذاتيًا. ستتعلم استراتيجيةً رغم بساطتها إلا أنها مدمرة، استراتيجية لإظهار كيف تقوم الرؤى الكونية الصنمية بتدمير نفسها بنفسها.

المبدأ الرابع: لماذا تنتحر الرؤى الكونية؟

هل على المؤمنين تفقد علمهم على باب الكنيسة؟ اعتاد رائد الجراحة الدماغية مايكل إجنور Michael Egnor التفكير في ذلك. بعد سنين من التدريب العلمي الشاق كان متيقنًا أنَّ الرؤى الكونية العلمية لا تتوافق مع أي شكل من أشكال الدين.

وما يثير السخرية أنَّ العلم نفسه هو ما أظهر له كم كان مخطئًا.

أخبرني مايكل إجنور: «لقد ترعرعت كلا أدريٍّ، وكبرت كشخص ماديٍّ علميٍّ تمامًا»[1]. لقد اعتبرت الدين نظامَ إلهام للقصص الأخلاقية؛ دروسًا تسمو بالروح، إلا أنها غير صحيحة.

لماذا كان متيقنًا جدًّا من ذلك؟ ففي نظره فإنَّ العلم قد نقض بما لا يدع مجالاً للشك كل الادعاءات الإيمانية. ويقول: «باعتباري رائدًا علميًّا في الجامعة، كنت غارقًا في التطور الداروينى، والذي بدا أنَّه يوضح إمكانية تفسير الحياة بطريقة مثالية باستخدام الآليات المادية وحدها. لم يكن هنالك سبب للاستشهاد بوجود الله».

بدا لي أن نظرية داروين قد أنهت الحجة التقليدية للتصميم.

كما غطت دراسات مايكل إجنور كتابات فرويد أيضًا، حيث أقنعته نظرياته أنَّ «الدين ما هو إلا إشباعٌ للرغبات؛ نتاج بحثٍ عن شخصية أبوية، طريقةٌ للتعامل مع رغباتنا ومخاوفنا الداخلية». وأخبرني أنَّه نتيجة دراساته الجامعية: «كلما كنتُ آخذ الدين بعين الاعتبار، يوقفني التفكير الصادم أنَّه قد يعني تجاهل التكامل العلمي».

وبمرور السنين ارتقى مايكل إجنور لقمة مجاله. لقد عُيّنَ أستاذًا ونائب رئيس الجراحة العصبية في جامعة ولاية نيويورك، جامعة ستوني بروك Stony Brook، وأصبح جراح دماغ حاصدًا لجوائز، وقد عدته مجلة نيويورك أحد أفضل أطباء نيويورك. أحد اختصاصاته هو

معالجة المَوَه («ماء في الدماغ»)، وبينما هو يطور نظرية تدفق الدم للدماغ أخذ بحثه منعطفًا مفاجئًا. لقد أدرك أنَّ النظام القحفي الذي كان يدرسه كان أشبه بأداة مصممة بإبداع. فالمرشح الذي يحمي الشعيرات الدموية الحساسة من قوة نبض القلب «كان آلية مضبوطة بدقة تتشابه مع موهنات الاهتزاز المستخدمة استخدامًا واسعًا في الهندسة. في الحقيقة معظم ما أردت معرفته لم يكن في كتب علم الأحياء، إنما في كتب الهندسة».

وما الذي يقوم به المهندسون؟ بالطبع يقومون بتصميم الأشياء.

في النهاية أدرك إجنور أنَّ كل الأبحاث الحيوية عمليًّا تُجرى على أساس فرضية التصميم. فمثلاً يدعى أحد الإجراءات المعيارية في علم الأحياء «الهندسة العكسية» وهي على غرار طريقة تفكيرك الاعتيادية عندما تصادف أداةً لا تعلم كيفية عملها، فتقوم حينها بتجزئتها قطعةً قطعة، ثم تقوم بالعمل باتجاه معاكس لإنتاج العملية التي فكر بها المهندس عندما صممها أساسًا. هذا هو بالضبط نمط التحليل الذي يقوم به علماء الأحياء في المختبر. هم يبعثرون الجزيئات كالبروتينات أو الجينات كلاً على حِدة، ويتساءلون عما يقوم به كل جزءٍ، وكيف تتفاعل هذه الأجزاء بعضها مع بعض لإنجاز الوظيفة المطلوبة.

يعمل علماء الأحياء جوهريًّا على أساس التصميم طيلة الوقت (عمليًّا على الأقل) بغض النظر عن أي نظرية يتبنونها.

ويقول الفيلسوف مايكل روس Michael Ruse رغم أنَّه متحدث باسم الداروينية إنَّ علم الأحياء يستند بطريقة غير قابلة للتجنب على «التفكير بنمط التصميم.» تُفسر الأشياء الحية أفضل ما يكون من خلال استكشاف أهداف أجزائها. فهدف العين هو الرؤية. صممت الزعانف للسباحة، والأجنحة للطيران. تعمل جميع المكونات بعضها مع بعض بصيغة متسقة متماسكة للوصول لغاية ما.

وكتب مايكل روس: «إنَّنا نعامل الكائنات الحية – أو أجزاءها على الأقل – **كما لو** أنها مصنعة، **كما لو** أنها مصممة، ثم نحاول فهم وظائفها». إنَّ التفكير الموجه لنهاية محددة (التفكير الغائي) مناسب في علم الأحياء، وذلك لأنَّ الكائنات الحية تبدو فقط **كما لو** أنها مصنعة، **كما لو** أنَّ ذكاءً خلقها، وهيأها للعمل»[٢].

ومن المثير للدهشة أنه حتى داروين لم ينكر أنَّ العالم يبدو كما لو أنَّه مصمم. لقد ناقش فقط أنَّ مظهر التصميم مضلل؛ وأنَّ النظام الغائي نفسه يمكن إنشاؤه بالقوى المادية كبديل.[٣]

كما رأينا في المبدأ الثالث يشير اللفظ «كما لو» للتنافر المعرفي. فهو يشير إلى أفكار محددة لا يمكن لأي أحد التهرب منها عمليًّا، مهما يكن ما تخبر به رؤيته الكونية. وإنَّ افتراض مفهوم (مثل مفهوم التصميم) لفهم الأنظمة الحية، يدلنا أنَّه جزء من الوحي العام.

• هي ليست جراحة دماغ ... انتظر، هي كذلك بالفعل

صادف إيجنور في عمله في المختبر كباحث طبيٍّ التنافر المعرفي ذاته مرارًا وتكرارًا. وأخبرني: «لقد كنت مندهشًا كيف كانت مساهمة النموذج الداروييني في عملي قليلة للغاية». «بالمقابل، لقد توافق نموذج التصميم بطريقة رائعة مع سمات بحثي». في النهاية كان عليه اتخاذ قرار. عندما تناقضت النظرية مع الحقائق، أيًّا منهما سيختار؟

كان مبدأ إيجنور التوجيهي هو اتباع الدليل أينما قاده. لقد قرر أنَّ التفسير الأفضل لسبب عمل الكائنات الحية كما لو أنها مصممة هو أنَّها مصممة بالفعل. «وجدت أنَّ الداروينية انحياز فلسفي أكثر من كونها علمًا متماسكًا. يمكن أن تشرح العمليات الداروينية بعض النماذج والتغيرات في التكرار الجيني عند السكان، لكن لا يدعم الدليل حتى عن بعد الادعاء بأنَّ المصادفة والضرورة يمكنها أن تفسر تمامًا مظهر التصميم المعقد في الأشياء الحية.»

ماذا عن فرويد؟ يقول إيجنور: «فكرة فرويد بأنَّ الدين إشباع للرغبات يمكن أن تنقلب ضد نظريته نفسها.» «في الحقيقة من الأكثر منطقية أنَّ الإلحاد – وليس الدين – شكل من إشباع الرغبات. وذلك أنَّه لو لم يكن الله موجودًا فليس هنالك من رقيب، وليس هنالك من محاسبة أخلاقية، ويمكنك القيام بما تريد (طالَما أنَّك تستطيع الإفلات بفعلتك) «. وكما لاحظ الشاعر البولندي تشيسلاف ميلوش Czeslaw Milosz هنالك راحة كبيرة في «الاعتقاد بالعدم بعد الموت؛ عزاء كبير بالتفكير أنَّ خياناتنا وطمعنا وجبننا واغتيالاتنا لن نحاسب عليها»[٤].

أدرك إيجنور في النهاية أنَّه إذا كان عليه اتباع الحقائق أينما تقوده فعليه قبول الدين؛ وبمحافظته على احترامِ العالِمِ للحقائق كان ذلك ما فعله بالفعل. ومباشرةً اكتشف منطقًا جديدًا

للوحدة والتكامل. أثبت الله في الدين أنَّه نقطة تكامل كافية لتوحيد جميع مجالات حياته، المهنية منها والشخصية. إنَّ الدين رؤية كونية غنية فكريًّا بما يكفي لتفسير كامل التجربة الإنسانية.

وقد أخبرني: «أرى الآن العلم كطريقة أخرى لتقدير جمال خلق الله. لقد جلبت العلم معي للكنيسة، الحقيقة واحدة».

• اختبارات الحقيقة

توضح قصة إيجنور الطريقتين الأساسيتين لاختبار رؤية كونية أو فلسفة ما: هل تتناسب مع الحقائق؟ وهل هي متسقة منطقيًّا؟ تظهر الأسئلة ذواتها في اختبار أي فكرة؛ سواءً في مختبر العلم، أو في قاعة المحكمة، أو عند سؤال صديقة عن سبب قدومها متأخرة. أولاً: هل يتوافق التفسير مع ما نعرفه عن العالم؟ ذلك هو السؤال الذي سألناه في المبدأ الثالث. ثانيًا: هل التفسير متماسك منطقيًّا؟ هذا هو السؤال الذي سنتطرق إليه في المبدأ الرابع.

التناقضات الداخلية قاتلة لأي رؤية كونية، ذلك لأنَّ البيانات المتناقضة خاطئة بالضرورة. عبارة «الدائرة المربعة» متناقضة، ولذلك فهي خاطئة. يفترض الكتاب المقدس أنَّ التناقضات المنطقية لا يمكن أن تكون صحيحة، ومنه الآيات: «وَأَنَّ كُلَّ كَذِبٍ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ» [رسالة يوحنا الرسول الأولى ٢: ٢١] ، «اللهُ الْمُنَزَّهُ عَنِ الْكَذِبِ» [رسالة بولس إلى تيطس ١: ٢]، «لَنْ يَقْدِرَ أَنْ يُنْكِرَ نَفْسَهُ» [رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس: ٢ تي ٢: ١٣].

من الأشكال المدمرة جدًّا من التناقضات للمحال الناشئ عن المرجعية الذاتية، والتي تعني نظرية تبني تعريفًا للحقيقة، ثم تفشل هي نفسها في تحقيقه. وتقوم بذلك بدحض نفسها.

ربما قد سمعت من قبل حجة المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية self-referential absurdity في نقاش عادي، وإن لم تسمِّها كذلك. بالنسبة للنسبويين الذين يقولون لا يوجد شيء حتمي: فهل **حتمًا** لا يوجد شيء حتمي؟ وبالنسبة للمشككين الذين يقولون إنَّه لا يمكن التحقق من أي شيء: هل تعلمون **ذلك بالتأكيد**؟ في كل حالة يقلب الناقد الادعاء على نفسه، لإظهار أنَّ هذا الادعاء يقتل نفسه. هو ادعاء منهزم ذاتيًّا.

يحب المدافع الديني Apologist غريغ كوكل Greg Koukl القول بأنَّ هذه هي الطريقة التي تنتحر بها الفلسفة. وذلك عندما تطبق معاييرها على نفسها، فتقتل نفسها. إنها تشق حنجرتها.

يرفض الناس أحيانًا هذا النوع من الحجج باعتباره ليس إلا قمعًا للفكرة دون تفكير، لعبة داخلية. تخلى طالبٌ جامعي مؤخرًا عن نشأته الدينية، وأخبر والديه أنه أدرك الآن عدم وجود حقائق مطلقة. عندما سألاه ما إذا كانت هذه العبارة نفسها حقيقةً مطلقةً رفض ردهما باعتباره خدعة بلاغية، ورفض الانخراط في الموضوع أكثر من ذلك. سنستكشف في المبدأ الرابع لم ليست خدعة، وإنما شكلٌ صحيحٌ وقويٌّ من الحجج.

في الحقيقة سنستكشف أنَّه فعليًّا جميع الرؤى الكونية القائمة على الأصنام ترجع إلى المحال. لماذا؟ لأنَّها اختزالية. عندما تطبق الاختزالية على العقل البشري تختزل المنطق لشيء أقل من المنطق. هي تقول إنَّ الأفكار في عقولنا نتاج الانتقاء الطبيعي (الداروينية) أو الظروف الاقتصادية (الماركسية) أو الاستجابات الكيميائية الكهربائية في الدماغ (علم الأعصاب الحديث). لكن الطريقة الوحيدة التي يمكن للرؤية الكونية من خلالها بناء حالتها **الخاصة** هي عبر استخدام المنطق. وبذلك عندما تقصي المنطق، فهي تقتل نفسها. وتكون مدمرة ذاتيًّا.

بالطبع يعصف بمعظم الرؤى الكونية عدد متنوع من التناقضات والصعوبات المنطقية. ويبدو إحصاؤها جميعًا مهمة لا نهاية لها. ولكن جميع الرؤى الكونية المرتكزة على الأصنام اختزالية، ولذلك فإن هذا العيب الأساسي متوقع[1]. وإنَّ تعلم تحديدها سوف يعززك باستراتيجية مدمرة يمكنك تطبيقها على أي وعلى كل رؤية كونية تصادفها.

• المبدأ الرابع: اختبر الصنم: هل هو يناقض نفسه؟

لتبيان سبب كون حجة، المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية، ليست مجرد خدعة بلاغية، لنبدأ بمثال تاريخي. خلال معظم القرن العشرين سيطر على الأكاديمية الأمريكية شكلٌ متطرف من العلم التجريبي يدعى الفلسفة الوضعية المنطقية. وكما رأينا سابقًا فإنَّ العلم التجريبي التقليدي قد وضع كل شيء في صندوق المنطق. وأي عبارة لا يمكن تتبعها وصولاً للانطباعات المنطقية حولها تُرفض بكونها خاطئة. تقدمت الفلسفة الوضعية المنطقية بهذا الادعاء لخطوة أبعد: لقد أصرت على أنَّ أي عبارة لا يمكن اختزالها لانطباعات منطقية ليست فقط خاطئة، إنما هي بلا معنىً معرفي؛ أي أنها لا تخضع حتى لمعايير الصح والخطأ.

خذ على سبيل المثال العبارة الأخلاقية مثل: «العبودية ظلم». العدالة ليست شيئًا يمكنك حشوه في أنبوب اختبار أو دراسته تحت المجهر. جادل أتباع الفلسفة الوضعية المنطقية بأنَّه وطبقًا لذلك فإنَّ الجملة «العبودية ظلم» ليس لها محتوىً معرفي. هي مجرد تعبير عن تفضيلات أو مشاعر شخصية. هي تعني حقًّا «أنا لا أحب العبودية.» تدعى هذه أحيانًا النظرة العاطفية للأخلاق، وذلك أنَّها تختزل العبارات الأخلاقية لتعابير عاطفية، مثل قول «بووو!» أو «هوراه!». وإنَّ قول «هوراه!» ليس شيئًا يمكن أن يكون صحيحًا أو خاطئًا. العبارة الأخلاقية قد تكون مهمة للشخص الذي يقولها، لكن طبقًا للفلسفة المنطقية الوضعية، فهي معرفيًّا بلا معنىً، هي حرفيًّا مجرد هراء.

تخللت هذه النظرة للمبادئ الأخلاقية جميع مستويات المجتمع. في النهاية من الأسهل بكثير رفض وجهات نظر شخص ما بقول: «هذا مجرد حكم شخصي» ومعاملته كما لو أنه تفضيلٌ شخصي بدلاً من تفحصه بجدية كمرشح صحيح للحقيقة.

ومع ذلك، فماذا حدث عندما طبقت الفلسفة الواقعية المنطقية اختبارها على نفسها؟ لقد كان ادعاؤها المركزي أنَّ العبارات تكون ذات معنىً فقط إذا كانت قابلة للاختبار تجريبيًّا. لكن هل هذه العبارة يمكن اختبارها تجريبيًّا؟ بالطبع لا. إنَّها ليست ملاحظة تجريبية. إنَّها قاعدة غيبية؛ هي تعريف اعتباطي عن شيء يمكن عده مؤهلاً ليكون معرفة. وهكذا عندما طُبق معيار الفلسفة المنطقية الوضعية عليها، دُحضت. لقد وقفت بتهمة الإدانة الذاتية.

لقد كانت الفلسفة المنطقية الوضعية مؤثرة جدًّا لمدة طويلة من الزمن، لدرجة أنَّ انهيارها سبَّب زلزالاً في كافة أنحاء العالم الثقافي. قال في ذلك ويليام لان كريغ William Lane Craig: كان سقوطها «أهم حدث فلسفي في القرن العشرين»[٧].

أثبتت استراتيجية تطبيق معيار الحقيقة من فلسفة ما على نفسها أنَّها ليست مجرد خدعة بلاغية، بل هي أداة قوية لاختبار ادعاءات الحقيقة. ويمكن تطبيقها على كثير من الفلسفات الأخرى لإظهار أنَّها تدمر ذاتيًّا بالطريقة نفسها.

• الطعن في ماركس

إنَّ مفتاح تحديد نقطة انتحار الرؤية الكونية هو بكشف شكلها الخاص من الاختزالية. فأي نظرية تقول: «ادعاءات الحقيقة ليست إلا س» تكون معرضة للدحض الذاتي. فمثلاً: قال كارل ماركس إنَّ ادعاءات الحقيقة ليست إلا تبريرًا للمصالح الاقتصادية: لقد وضع الأغنياء القوانين لحماية أملاكهم. الدين هو «أفيون الشعوب» ليسترضي الفقراء بوعود كاذبة عن سعادة الآخرة.[٩] لكن ماذا حدث عندما طبقنا قاعدة ماركس على نظريته نفسها؟ هل أنشأها فقط لتبرير مصالحه الاقتصادية الخاصة؟ إذا كان الأمر كذلك، يمكننا رفض أن تكون ادعاءً حقيقيًّا جديًّا. لقد انتحرت تلك النظرية.

أو خذ مثلاً فريدرك نيتشه Friedrich Nietzsche. لقد تمسك بأنَّ كل الأفعال البشرية تسيرها الرغبة في الحصول على القوة، فذكر أنَّ: الضعفاء ابتكروا الأخلاق لتدعمهم أمام الأقوياء. وأنَّ الدين «كذبة مقدسة» استُخدمت للتحكم بالناس[١٠]. لكن ماذا عن نظرية نيتشه نفسها؟ هل كان سببها رغبته الخاصة في الحصول على القوة؟ إذًا لمَ على بقيتنا أن نهتم بها؟ لقد دحضت النظرية نفسها.

أصر سيغموند فرويد أنَّ أفكارنا تصوغها الحاجات العاطفية في اللاوعي، فمثلاً: الشخصية تصوغها أشياء بدءًا من التدريب على استخدام المرحاض. معظم السلوك الإنساني هو نتيجة القمع الجنسي. لكن إلى ماذا يشير هذا عن أصل نظرية فرويد؟

تمسك عالم السلوك بورهوس فريدرك سكينر B. F. Skinner بأنَّ البشر ليسوا إلا آلات استجابة تلقائية، تستجيب تجاه المكافآت والعقوبات: يمكن تفسير سلوكهم من ناحية التكيف الفعال، مثل طيور الحمام في تجاربه، حيث تنقر على العتلات للحصول على حبة الغذاء[١١]. لكن هل نظرية سكينر هي نتاج ظروفه الخاصة؟ لقد دحضت النظرية نفسها.

ما تتشارك به كل هذه الفلسفات هو رفض أخذ ادعاءات الحقيقة بالمعنى الظاهري لها. وبدلاً من ذلك شرعوا في ترجمتها كأستارٍ لدوافع مخفاة وأنَّها تخفي مصلحة شخصية. سمي هذا الميل لكشف الزيف «تأويل الشك» (hermeneutics هو علم التأويل). وأولئك الذين يزاولونه

يلقبون بـ «سادة الشك»[١١]. لكن ليكونوا متناسقين منطقيًا يجب عليهم مزاولة شك مماثل تجاه رؤاهم الخاصة، وهو أمر يندر أن يقوموا به، إن قاموا به أصلاً.

وكأداة للتفكير النقدي يمكن أن يكون تأويل الشك مفيدًا في إبراز المحاولات البشرية الفاشلة الشائعة؛ فقد تنحرف طرق تفكيرنا عند التشخيص بأشياءَ مثل المصالح الاقتصادية أو الاندفاعات النفسية. يعلمنا الدين أنَّنا نخدع أنفسنا دائمًا فيما يخص دوافعنا الحقيقية، فمما جاء فيه: «اَلْقَلْبُ أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ، مَنْ يَعْرِفُهُ؟» [سفر إرميا ١٧:٩]. لكن وباقتباس بعض مصطلحات علم تأويل الشك نراها اختزالية بطريقة جذرية. هي ببساطة تتجاهل السؤال المتعلق بالحقيقة، وتختصره لأسئلة عن القوة والرغبة.

• كشف زيف كاشفي الزيف

يجب أن يمتلك الجميع مبدأ المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية. لقد استخدمه علماء الدفاع عن الدين والفلاسفة أيضًا، لكن دون طريقة أو سبب جوهري منطقي يعتبر أساسًا له. الأمر الفريد في رسالة بولس إلى أهل رومية ١ هو أنَّها تشرح سبب عمل الحجج، وكيفية تطبيقها على أي رؤية كونية. اكشف الاختزالية: تلك هي النقطة التي ستنتحر الرؤية الكونية عندها. ستضمن أي نظرة دنيا عن البشرية نظرة دنيا عن العقل؛ عن المنطق والسببية والعقلانية. ستختزل العقلانية الإنسانية إلى عملية أو قوًى غير عقلية. لكن إذا كانت الأفكار نتاجًا غير عقلي لقوىً غير عقلية، فيجب تطبيق ذلك على جميع الأفكار، بما فيها النظرية نفسها. وينتهي الأمر بكاشفي زيف يكشفون زيف نظرياتهم أنفسها.

أو أنهم سيقومون بذلك إذا كانوا متسقين. لتجنب كشف زيف رؤاهم الشخصية، يعفي كاشفو الزيف أنفسهم ضمنيًا من النقد الذي يستخدمونه لتكذيب الآخرين. هم يتصرفون كما لو أنهم لم تحجبهم القوى اللاعقلانية نفسها التي حرفت وتحيز رؤى غيرهم؛ هم قادرون بغموض على الارتقاء على القوى التي تستعبد الآخرين؛ هم وحدهم قادرون على الوصول إلى البصيرة النقية للواقع. ورغم أنَّهم حشروا الكون كله في صندوق، فمن الغريب أنَّهم أنفسهم غير محجوزين في ذلك الصندوق. لديهم بطريقة ما القدرة على العوم فوق الصندوق، وإعادة جعل نظرياتهم حقيقة صالحة بموضوعية؛ لكن بالطبع بإزالة استثنائهم لأنفسهم فهم قد دخلوا في عدم اتساق منطقي مع

نظامهم. لقد صرحوا بوجود أمر واحد (تفكيرهم الخاص) لا يشمله نظامهم. وبكل الأحوال فعندها تكون الرؤى الكونية القائمة على الأصنام متناقضة منطقيًّا، فهذا يعني فشلها.

وعلى النقيض من ذلك فإنَّ الرؤية الكونية الدينية ليست اختزالية، فهي لا تختزل المنطق لما هو أدنى من المنطق، ولذلك فهي غير مدمرة ذاتيًّا. تبدأ نظرية المعرفة الدينية بخالقٍ سامٍ، خلقَ الكون بأكمله بكلمة منه: « وَقَالَ اللهُ» [سفر التكوين ١ : ٣] . « فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ» [إنجيل يوحنا ١ :١] . استخدم يوحنا الكلمة اليونانية Logos والتي لا تعني فقط «كلمة»، إنما تعني أيضًا المنطق والعقلانية، المبدأ الأساس الذي يوحد العالم في كونٍ منظم، كمقابل للعشوائية والفوضى. فهم اليونانيون الذين سمعوا إنجيل يوحنا أنَّه كان يدعي أنَّ الإله مصدر نظام وتماسك الكون.

للرؤية الدينية نتيجتان حاسمتان. أولاً: يعكس النظام الجلي للانعكاسات الكونية عقل الخالق. ثانيًا: ولأن الخالق خلق البشر على صورته، فإنَّ **عقولنا** تبعًا لذلك تتوافق مع ذلك النظام. هنالك تطابق بين بنية العالم وبنية الإدراك البشري؛ علاقة بين الفاعل والمفعول في فعل المعرفة. وكما كتب ألفين بلانتينغا Plantinga: «لقد خلقنا الله وخلق العالم بطريقة متناسبة جدًّا بين العالم وقدراتنا الإدراكية»[١٢].

استخدم الناس في القرون الوسطى عبارة (بما يتفق مع الفهم adaequatio intellectus ad rem) والتي تعني أنَّ الفكر مناسب للواقع. بالطبع فالبشر كائنات مُحطمة ساقطة[١]، ونتيجة لعملياتنا الفكرية فإنا منحرفون ومظلمون. ورغم هذا فحتى بعد السقوط نبقى بشرًا. سنبقى نحتفظ بصورة الله. ولقد ألهم الإنجيل عبر التاريخ الثقة في الموثوقية الأساسية للقدرات الإدراكية عند البشر.

---

(١) تشير الكاتبة هنا إلى عقيدة الخطيئة الأصلية في المسيحية، وهي أن البشر كلهم ورثوا خطيئة آدم عليه السلام عندما عصى الله وأكل من الشجرة، وأنه لتكفير هذه الخطيئة للبشر جميعهم كان يجب صلب المسيح الذي هو إله ثانٍ من الأقانيم الثلاثة عندهم، فكما نرى عقيدة الخطيئة الأصلية يترتب عليها باقي العقائد الأخرى من الصلب والفداء وربما التثليث لأن كبر الخطيئة لا يمحوه إلا التضحية بـ (إله) وليس بشراً عادياً، في حين نجد في الإسلام عكس ذلك تماماً، فالله خلق آدم عليه السلام لعمارة الأرض وخلافته فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠ ، ورغم معرفة الله المسبقة بعصيان آدم وزوجه فإن هذه المعصية مجرد سبب لنزولهما إلى الأرض، ولم يُحمِّل الله تعالى ذرية آدم ذنب هذه المعصية، إذ يقول عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الأنعام: ١٦٤. (المترجم)

يدعم الوحي العام نظرية المعرفة الدينية تجريبيًّا. وليمارس البشر حياتهم من يوم لآخر فعليهم افتراض أنَّنا نعتقد بكثير من الأمور؛ منها أنَّ العالم المادي حقيقي (الكرسي الذي أجلس عليه يمسكني أن أقع)، وأنَّ الكون يعمل على مبدأ السبب والنتيجة (إذا أسقطت الحاسب فسيسقط)، وأنَّ الحقائق الرياضية واحدة عالميًّا (سيكون ناتج جمع ٥ مع ٧ دائمًا ١٢)، وأنَّه يمكننا التعويل على ذاكرتنا (لقد تناولت على الغداء اليوم سندويشة) وأنَّ باقي الناس لديهم عقول (حتى لو لم أرها مباشرةً) وأنَّ قوانين المنطق صحيحة (عليَّ لتكذيب المنطق أن أطرح حجتي باستخدام المنطق). علينا افتراض الموثوقية الأساسية للإدراك البشري في حياتنا اليومية. لو كنا شكوكيين تمامًا، لأصبنا أنفسنا بالشلل، مما يمنعنا عن أي تصرف.

إنَّ أي شيء علينا افتراضه لنعيش حياتنا في العالم، جزء من الوحي الإلهي العام. تعكس حقائق التجربة التي لا يمكن نكرانها البنية المخلوقة للطبيعة المادية أو الطبيعة البشرية أو كلتيهما. وهي لافتات تشير إلى وجود الله المذكور دينيًّا. وإن رؤية الدين الكونية فقط هي ما يفسر سبب مقدرة البشر على الوصول إلى معرفةٍ جديرة بالثقة.

المغزى من كل ذلك هو أنَّ جميع الرؤى الكونية عليها استعارة نظرية المعرفة الدينية؛ على الأقل عندما تصوغ ادعاءاتها. عليهم الافتراض ضمنيًّا موثوقية المنطق والعقلانية، والتي لا يدعمها إلا الرؤية الكونية الدينية. عليهم التصرف كما لو أنَّ الدين صحيحٌ، وإن رفضوه.

• يكشف كليف ستيبلز لويس C. S. Lewis حقيقة المادية

لممارسة مهارة كشف المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية، دعنا نشرح بضعة أمثلة أخرى. ولأن مذهبيِ المادية والطبيعية افتراضاتٌ مؤكدة في معظم الوسط الأكاديمي، لنبدأ بهما. تدعي المادية أن أفكاري هي نتاج لأحداث مادية. ماذا يعني ذلك؟ يعني ذلك أنَّه عندما أحسب مجموع ٥ مع ٧ يساوي ١٢، أو عندما أدرك أنَّ وردة ما حمراء اللون، أو عندما أحكم على تعذيب الناس أنَّه شر، فالذي يحدث بالفعل هو أنَّ دماغي يقوم بأمور مادية، مثل إنتاج تفاعلات كيميائية وتفعيل بعض العصبونات.

ومن الأمثلة الجيدة على هذه الفكرة كتاب نُشر مؤخرًا يشرح ادعاءات المادية بأنَّ الأفكار هي: «حالات مادية للمادة ضمن أدمغتنا». وهكذا فإنَّ عملية التفكير هي «سلسلة من الحالات الدماغية؛ سلسلة من التهيؤات المادية للمادة؛ كلٌّ منها يسبب الذي يليه، بموجب القوانين الحتمية التي تحكم تفاعلات الأجسام المادية»[١٣]. بمعنىً آخر فإنَّ الفكرة الناتجة من أدمغتنا قريبة من العَرَق الناتج من غددنا العرقية، والعصارة الهضمية الناتجة من المعدة.

المشكلة هي أنَّ الهضم ليس شيئًا يمكن أن يكون صحيحًا أو خاطئًا؛ إنه مجرد حقيقة حيوية. إذا كانت أفكارنا أيضًا حقائق حيوية، تقررها القوانين الحيوية، فهي ليست نوعًا من الأشياء التي توصف بأنها صحيحة أو خاطئة.

لكن يجب أن يتضمن ذلك أفكارنا عن المادية؛ ما يصيب ادعاء المادية بأنَّها صحيحة في مقتل. تنتحر المادية عندما تطبق نتائجها على نفسها.

قام كليف ستيبلز لويس بصياغة حجة مشابهة في عددٍ من كتاباته. ومنها: «إذا كانت العقول معتمدة كليًّا على الأدمغة، والأدمغة معتمدة كليًّا على الكيمياء الحيوية، والكيمياء الحيوية معتمدة كليًّا – في نهاية الأمر – على تدفق الذرات العديمة المعنى، فلا يمكنني استيعاب كيف أنَّ تفكير هذه العقول أكثر أهمية من صوت الريح عندما تعصف بشجرة ما». ثم عرض لويس كيف أنَّ هذه النظرة تهزم نفسها: «لكن إذا لم أستطع الثقة بتفكيري الخاص، فبالطبع لا أستطع أن أثق بالحجج المؤدية للإلحاد، وبذلك ليس هنالك من سبب لأن أكون ملحدًا، أو أكون أي شيء آخر»[١٤].

كيف يتجنب الملحدون أو الماديون النتيجة التي تدحض نفسها ذاتيًّا؟ هم يقومون بما يدعوه لويس «الاستثناء الضمني» لنظريتهم الخاصة، على الأقل عندما يذكرون ادعاءاتهم. عليهم عند بناء حالتهم أن يثقوا ضمنيًّا بتفكيرهم الخاص، عليهم أن يعفوا أنفسهم من نماذج اختزاليتهم للتحليل. وكما يقول أحد الفلاسفة: يتصرف المفكر المادي كما لو أنَّه «مراقب ملائكي» قادر بطريقة ما على العلو فوق قفص الحتمية الذي أغلقه على كل من سواه[١٥].

جوهريًّا، يجب على الماديين عندما يناقشون ادعاءاتهم أن يأخذوا بعين الاعتبار ضمنيًّا الأبستمولوجية «نظرية المعرفة» الدينية.

في الحقيقة فإن الفعل **المطلق** لتأكيد المادية يناقض نفسه. لو قلت «كل شيء موجود هو مادي»، فهل هذه العبارة نفسها مادية؟ هل هي مجرد سلسلة من الأمواج الصوتية؟ إذا كتبت هذه العبارة، فهل هي مجرد علامات على قطعة من الورق؟ لا بالطبع. للعبارة معنىً لغوي، ولها خصائص منطقية. لها وظيفة اجتماعية (التواصل مع الآخرين)، وكل هذا يسمو على البعد المادي. من المثير للسخرية أنَّه لا يمكن إثبات المادية دون دحضها.

ولأن البشر كائنات كاملة ومتكاملة، فعلينا توقع أنَّ أفكارنا **يصاحبها** أحداث مادية في الدماغ. لكن لو **اختزلنا** العمليات الفكرية للعمليات الدماغية، فالنتيجة ستكون تناقضًا منطقيًّا.

• لا يمكن للتطور أن ينجو من نفسه

من الأمثلة الأخرى على المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية هي نظرية تدعى الأبستمولوجية التطورية «أي نظرية المعرفة التطورية»، منهج طبيعي يطبق التطور على عملية المعرفة. تفترض النظرية أنَّ العقل البشري نتاج الانتقاء الطبيعي. والنتيجة المترتبة على ذلك هي أن الأفكار في عقولنا **انتقيت** لقيمتها في البقاء، وليس بسبب قيمة صحتها.

لكن ماذا لو طبقنا تلك النظرية على نفسها؟ فهي أيضًا انتقيت من أجل البقاء وليس من أجل صحتها، ما يدحض ادعاءها **نفسها** للحقيقة. وبذلك تنتحر نظرية المعرفة التطورية.

من المثير للدهشة أنَّ عديدًا من المفكرين البارزين اعتنقوا النظرية دون كشف التناقض المنطقي فيها. كتب الفيلسوف جون جراي John Gray: «إذا كانت نظرية داروين عن الانتقاء الطبيعي صحيحة، فإنَّ العقل البشري يخدم نجاحًا تطوريًّا، لا الحقيقة نفسها»[١٦]. ما هو التناقض في هذه العبارة؟

ويقول جراي إنَّه إن كانت نظرية داروين صحيحة أساسًا، فهي «تخدم نجاحًا تطوريًّا، ولا تخدم الحقيقة.» بمعنىً آخر إن كانت نظرية داروين صحيحة فهي ليست صحيحة.

المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية قريبٌ للتناقض الكاذب المشهور: «هذه الجملة هي كذبة.» إذا كانت الجملة الصحيحة فهي (كما تقول هي نفسها) أنها ليست صحيحة، إنها هي كذبة.

من الأمثلة الأخرى هو ما كتبه فرنسيس كريك Francis Crick في كتابه **الفرضية المذهلة** *The Astonishing Hypothesis*، فمما جاء فيه: «في النهاية فإنَّ أدمغتنا الفائقة التطور لم تتطور تحت ضغط استكشاف الحقائق العلمية، إنما تطورت فقط لتسمح لنا بأن نكون أذكياء كفاية للنجاة»[١٧]. لكن ذلك يعني أن نظرية كريك نفسها ليست «حقيقة علمية». وبتطبيقها على نفسها تنتحر النظرية.

بالطبع من المرجح أن ينتج الضغط المطلق للنجاة **بعض** الأفكار الصحيحة. فالحمار الوحشي الذي يظن أن الأسود حيوانات ودود لن يعيش لوقت طويل. لكن قد تكون الأفكار الخاطئة مفيدة للنجاة. يعترف التطوريون بذلك أيضًا، حيث يقول إيريك بوم: «أحيانًا يكون من المرجح أكثر أن تنجو وتتكاثر إن كنت تعتقد بأمر خاطئ بدلاً من أمر صحيح». كتب ستيفن بينكر Steven Pinker: «صيغت أدمغتنا للتلاؤم وليس لمعرفة الحقيقة. تكون الحقيقة أحيانًا تكيفية، لكن أحيانًا لا تكون كذلك»[١٨]. والمغزى هو أن النجاة ليست ضمانًا للحقيقة. إذا كانت النجاة هي المعيار الوحيد، فلن نعرف أبدًا **أي** الأفكار صحيحة وأيها خاطئة إلا أنها تكيفية.

لجعل المعضلة محيرة أكثر، يخبرنا التطوريون أنَّ الانتقاء الطبيعي **قد** أنتج جميع أنواع المفاهيم الخاطئة في العقل البشري. وقد قرأنا في المبدأ الثالث كيف يزعم الماديون التطوريون أنَّ الإرادة الحرة مجرد وهم، وأنَّ الوعي وهم، وحتى أنَّ شعورنا بأنفسنا مجرد وهم؛ وأن كل تلك الأمور أفكار خاطئة انتقيت لقيمتها في النجاة.

إذًا كيف نعلم إن كانت نظرية التطور نفسها إحدى الأفكار الخاطئة؟ وبذلك نرى أنَّ النظرية تقتل نفسها.

يدرك بعض المفكرين المشكلة. فلقد كتب الناقد الأدبي ليون ويسلتير Leon Wieseltier: «إذا كان المنطق من نتاج الانتقاء الطبيعي، فكم من الثقة لدينا في الحجة المنطقية للانتقاء الطبيعي؟ ... لا يمكن لعلم الأحياء التطوري الاستناد على قوة المنطق وذلك أنه يدمره»[١٩].

وفي ملاحظة مشابهة سأل الفيلسوف توماس ناغل Thomas Nagel : «هل تتوافق الفرضية [التطورية] بالفعل مع الثقة المستمرة بالمنطق كمصدر للمعرفة؟" وقد كانت إجابته لا:

«عليَّ أن أكون قادرًا على التصديق... أنني أتبع قواعد المنطق لأنها صحيحة؛ وليس لمجرد أنني مبرمج حيويًا للقيام بذلك.» ولهذا «طالما أنَّ الفرضية التطورية نفسها تعتمد على المنطق، فهي تقوض نفسها ذاتيًا»[٢٠].

• شكوكية داروين الانتقائية

يأخذ الناس في بعض الأحيان انطباعًا أن داروين نفسه قد أدرك المشكلة. ويستشهدون نموذجيًا بالمقطع المشهور له «الشك المروع» عندما سأل ما إذا كان العقل البشري يمكن الوثوق به فيما لو كان نتاجًا للتطور، وهو: «بالنسبة لي دائمًا ما يواجهني شك مروع فيما إذا كانت اعتقادات العقل البشري والتي تطورت من عقل حيوانات أدنى، لها أي قيمة أو جديرة بالثقة».

لكن بالطبع فإنَّ نظرية داروين نفسها كانت «اعتقادًا ناتجًا عن عقل الإنسان». فلمَ يجب «الوثوق بها»؟

لكن من المدهش أنَّ داروين لم يشمل هذا التناقض الداخلي في نظريته. لم لا؟ لأنَّه عبر عنه بـ «الشك المروع» انتقائيًا؛ فقط عندما يأخذ حالة الخالق بعين الاعتبار.

يعترف داروين من وقت لآخر أنَّه ما يزال يجد فكرة الله مقنعة. وقد اعترف مرة أنَّ «لديه قناعة داخلية... أنَّ الكون ليس نتيجة مصادفة». ولقد كان ذلك في الجملة التالية للتي عبر عنها بـ «الشك المروع». إذًا «الاعتقاد» الذي ارتاب منه كان اعتقاده الطويل بأنَّ الكون ليس نتيجة مصادفة.

وفي مقطع آخر اعترف داروين: «أشعر أني مجبر على النظر إلى السبب الأول بأنَّه يمتلك عقلاً مناظرًا لذلك الذي للإنسان بطريقة ما.» لكنه ينحرف مرة أخرى للشكوكية: «هل يمكن لعقل الإنسان الذي – كما أني واثق تمامًا – أنَّه تطور من حيوانات أدنى منه، هل يمكن الثقة به عندما يتعلق الأمر بمثل هذه الاستنتاجات الكبيرة؟»

ذلك هو المقصود، هل يمكن الوثوق به عندما يصل لمثل هذه «الاستنتاجات الكبيرة» عن السبب الأول؟ يضيف داروين: ربما مفهوم الله هو مجرد غريزة برمجها فينا الانتقاء الطبيعي، تمامًا مثل «غريزة الخوف لدى القرود والكره عند الأفاعي».

بالمختصر، حدثت حالات نادرة قاد فيها عقل داروين لخلاصات إيمانية، وحينها رفض فيها العقل باعتباره غير جدير بالثقة[٢١]. لقد فشل في إدراك أنَّه ليكون متسقًا منطقيًّا عليه أن يطبق الشكوكية ذاتها على نظريته.

بقي الأتباع الحديثون للداروينية يطبقون النظرية بانتقائية. فكتب ستيفن جاي جولد أستاذ علم الحفريات في جامعة هارفارد: «طبق داروين فلسفةً مادية متسقة مع تفسيره للطبيعة» يكون فيها «العقل والروح والله أيضًا، مجرد كلمات تعبر عن نتائج عجيبة للتعقيد العصبي»[٢٢]. بمعنى أنَّ الله مجرد فكرة ظهرت في العقل البشري عندما تطورت الدارات الكهربائية في الدماغ لمستوىً ما من التعقيد.

لكن ليكون جولد متسقًا منطقيًّا عليه أن يقلب الشكوكية نفسها على أفكار داروين. وهو الأمر الذي لم يفعله. طبق جولد شكوكيته التطورية بطريقة انتقائية لتكذيب فكرة وجود الله.

تقوم الداروينية عند تطبيقها باتساق ليس فقط بقتل نفسها فحسب، إنما أيضًا بقتل المشروع العلمي كله. كتب الكاتب المتدرب في علم الأعصاب الحيوي كنان مالك Kenan Malik: «إذا كانت قدراتنا الإدراكية قد تطورت ببساطة حصول بعض الترتيبات dispositions فليس ثمة من طريقة لمعرفة أي من هذه القدرات تؤدي لمعرفة المعتقدات الصحيحة وأيها تؤدي لمعتقدات خاطئة». وهكذا فإنَّ «بيان أنَّ البشر ليسوا إلا مجرد حيوانات معقدة... يدحض الثقة بالطريقة العلمية»[٢٣].

وهذا فقط يجعل العلم نفسه مهددًا بالضياع. كتب أستاذ الرياضيات في جامعة أوكسفورد جون لينكس John Lennox أنَّه وتبعًا للإلحاد «فإنَّ العقل الذي يمارس العلم... هو النتاج النهائي لعملية عشوائية غير عقلية. والآن، إذا عرفت أنَّ حاسوبك كان نتاج عملية عشوائية غير عقلية فلن تستطيع الوثوق به. إذًا بالنسبة لي فإن الإلحاد يقوض العقلانية التي أحتاجها لممارسة العلم»[٢٤].

بالطبع ليس لدى الملحد الذي يتابع أبحاثه خيارٌ إلا أن يعتمد على العقلانية، تمامًا كما يفعل أي شخص آخر. والفكرة هنا أنَّه ليس لديه أساس فلسفي للقيام بذلك. وفقط أولئك الذين يؤكدون وجود خالقٍ عاقل لديهم أساس للثقة بالعقلانية البشرية.

السبب في وجود عددٍ قليل جدًّا من الملحدين والماديين مدركين للمشكلة أنَّهم – تمامًا مثل داروين – يطبقون شكوكيتهم بانتقائية. هم يطبقونها فقط لدحض الأفكار التي يرفضونها، خصوصًا الأفكار المتعلقة بالله[٢٥]. يقومون باستثناء ضمني لمقتضيات رؤاهم الخاصة.

• لماذا العلم «معجزة»؟

من الواضح الآن لم يقوم الدين بدور هام في إطلاق الثورة العلمية في المقام الأول. إذ فقط الرؤية الكونية للدين هي ما يزودنا بنظرية معرفة مناسبة للعلم. أولاً: خلقَ إلهٌ عاقل العالم ببنية واضحة، وثانيًا: خلق البشر على صورته. ولقد ذكر المؤرخ ريتشارد كوهين Richard Cohen أنَّ العلم يحتاج مفهوم «خالقٍ عاقل لكل الأشياء of all things» بالترافق مع بدهية «أنَّنا الكائنات – الأقل عقلانية – قادرون باستخدام عقلانية شبيهة بتلك التي لذلك الإله على فك شيفرة قوانين الطبيعة». ذكر عالم الدين كريستوفر قيصر Christopher Kaiser الفكرة ذاتها باختصار مفيد حيث قال: «افترض العلماء الأوائل أنَّ الكلمة نفسها Logos المسؤولة عن نظامه تنعكس أيضًا على السبب البشري»[٢٦].

بالنسبة للعلماء الأوائل لم تكن صورة الله مذهبًا جافًّا ليتعاملوا معها بالموافقة المعرفية فقط. ولم تكن أيضًا «إيمانًا» خاصًّا صرفًا. لقد عاملوها كحقيقة عامة، كنظرية معرفة أساسية لكامل المشروع العلمي. وذكروا أنَّ غايتهم كانت للتفكير بأفكار الله من بعده.[٢٧] وفي وقت الثورة العلمية كانت نظرية المعرفة الدينية الضمان لأن يكون العقل البشري مجهزًا للحصول على معرفة أصيلة عن العالم.

وما يزال الأمر لليوم. ففي المقال المقتبس بشكل واسع لإيوجين ويغنر Eugene Wigner تحت عنوان «التأثير غير المنطقي للرياضيات في العلوم الطبيعية» سأل ويغنر لمَ تعمل الصيغ الرياضية التي نبتكرها في رؤوسنا بطريقة جيدة في الكون الخارجي. الصلة بينها «هي شيء قريب من الغموض». في الحقيقة ليس ثمة من تفسيرٍ منطقي لذلك». ليس هنالك تفسير لذلك ضمن المادية العلمية.

يفكر ويغنر: «من الصعب تجنب انطباع وجود معجزة تقابل وجودنا». على أقل تقدير «بالتأكيد من الصعب التصديق أنَّ قوانا المنطقية وصلت للكمال الذي يبدو أنَّها تمتلكه الآن نتيجة عملية داروين للانتقاء الطبيعي»[٢٨].

وعلى النقيض من ذلك تعرض الرؤى الكونية الدينية تفسيرًا منطقيًا مثاليًا لتأثير الرياضيات؛ وهو أنَّ إلهًا عاقلاً خلق البشر على صورته للتفكير بأفكاره بعده.

والواقع أنه مع مرور التاريخ نجد أنَّ الثقة الملهمة الدينية في البنية الرياضية للكون أتت **أولاً** قبل أي اكتشافات علمية. كتب عالم الرياضيات موريس كلين Morris Kline: «كان علماء الرياضيات الأوائل متيقنين من وجود قوانين رياضية تحكم الظواهر الطبيعية واستمروا في البحث عنها لأنَّهم كانوا مقتنعين مسبقًا بأنَّ الله دمجها في بنية الكون»[٢١].

يجب على الناس بدايةً أن يقتنعوا بوجود نظام رياضي في الطبيعة. وإلا فلن يبحثوا عنه؛ ولن يحرز العلم أي إنجاز. وهذا يعني أنَّه إلى اليوم فإنَّ أي شخص يرغب في متابعة العلم عليه تبني نظرية معرفة مشتقة من الرؤية الكونية للدين؛ من الناحية العملية على الأقل. ولممارسة العلم فحتى أعتى الملحدين عليه أن يعمل **كما لو** كان الدين حقيقيًا.

• سجن ما بعد الحداثة

ماذا عما بعد الحداثة؟ ماذا يحدث لها إذا طبقنا عليها اختبار المحال الناشئ عن المرجعية الذاتية؟

كما رأينا سابقًا تؤكد ما بعد الحداثة بشدة على وضع مطلق absolutizes للمجموعة الاجتماعية. فهي تدعي أنَّ الأفراد مشكلون بشكل كبير بعضويتهم في المجتمع. وأنه عندما نتشرب لغة مجتمعنا نتشرب رؤيته الكونية؛ وهذا هو محور القصة التي تستند إليها في تفسير المجتمع. وهكذا عندما نتكلم فإننا نجسد فقط محور القصة الذي استوعبناه من قبل.

يعبر مفكرو ما بعد الحداثة عن هذه الفكرة باستخدام عبارات متناقضة، مثل: «اللغة تتحدثنا، بدلاً من أن نتحدثها نحن»[٢٠]. فكرتهم أنَّه لا يمكننا حتى التفكير بمعزل عن اللغة التي استوعبناها assimilate من مجتمعنا. كتب نيتشه – بذوقه النموذجي – أنَّنا عالقون في «سجن بيت اللغة».

ولأنَّ الرؤى الكونية تنتقل من خلال اللغة، استخدم مفكرو ما بعد الحداثة تعبير «ألعاب اللغة». تمامًا كما لو أنَّ كرة المضرب وكرة القدم ألعاب لا توجد قواعد مشتركة لها عمليًا، لذلك قيل عن الرؤى الكونية إنَّها ألعاب اللغة، كل منها له نظام فريد من القواعد. لكل مجتمع لعبته

الخاصة في اللغة لفهم العالم منطقيًا؛ الأمر الذي دعاه جان فرانسوا ليوتار Jean-Francois Lyotard قصصًا صغيرة. لكن لا توجد قصة عالمية، لا توجد «سرديات كبرى» صالحة لكل الكائنات البشرية على مر العصور. وقال: «ليس هنالك إمكانية لتوحيد ألعاب اللغة أو إجمالها في أي خطاب متعدد الأطراف metadiscourse »[٣١].

لكن ما الأسباب التي يمكن لجان فرانسوا ليوتار أن يقدمها لنا لقبول نظريته؟ أليست نظرته الخاصة لعبة لغة أخرى، مثل كل الألعاب الأخرى؟ ألا يعلق هو في سجن منزل لغته الخاصة، تمامًا كالجميع؟ إذًا لم علينا أن نعير ذلك اهتمامًا؟

ما بعد الحداثة هي مثال لما يدعى بـ «تناقض الأداء performative contradiction»، والذي يعني أنَّ موقفًا ما يناقض ما يؤكد وجوده[٣٢]. تتضمن الأمثلة اليومية عن تناقض الأداء قولك: «أنا لا أستطيع التحدث بالعربية.» أو «أنا غير موجود» (فلتتمكن من قول هذه الجملة عليك أن تكون موجودًا). عندما يصر متبع ما بعد الحداثة على أنَّه لا توجد حقيقة صحيحة عالميًا، فهو يدعي ضمنيًا أنَّ ادعاءه الخاص حقيقي وصحيح عالميًا. ولقول هذه العبارة عليه أن يشغل موقفًاساميًا يقول عنه مذهب ما بعد الحداثة إنه موقفٌ غير موجود أساسًا ليشغله أحد. وهكذا في كل مرة يصرح بها متبع ما بعد الحداثة بموقفه فإنه يناقض نفسه، فهو موقفٌ يدحض نفسه ذاتيًا.

• تعطل بارثيل Barthel Busted

بعد تطبيق أفكار ما بعد الحداثة على النظرية الأدبية، نتج لدينا فرع جديد للنقد يدعى مذهب التفكيكية deconstructionism. تذكر أنَّه بالنسبة لما بعد الحداثة فإنَّ الأفراد قد شكلتهم بشكل كبير عضويتهم في المجتمع. وناتج هذا هو أنَّ الأفراد ليس لديهم بالفعل أفكار أصلية أو إبداعية، إنما مجرد انعكاس لأفكار مجتمعاتهم. فمثلاً يقول الناقد رولان بارت Roland Barthes إنَّ فقرات الكتابة هي مجرد «نسيج من الاقتباسات» ممتص من الثقافة المحيطة.

ويشتهر رولان بارت بشعاره «موت المؤلف»، والذي قصد به موت مفهوم الإبداع الفردي. وفي نظره فإنَّ الكُتَّاب قريبون للشعراء أو للمحاربين القدامى، الذين لم يخترعوا قصصهم

الخاصة، إنما كانوا ناقلين لقصص عشيرتهم أو قبيلتهم أو مجتمعهم. يقصد جاك دريدا Jacques Derrida المعنى ذاته في جملته المتناقضة «النصوص ليس لها مؤلفون»[٣٣].

علاوة على ذلك ننتمي جميعنا لتشكيلة من المجتمعات قائمة على بعض الخواص كالعرق والطبقة الاجتماعية والجنس والانتماء العرقي والهوية الجنسية؛ كلٌّ منها له اهتمامات ووجهات نظر متضاربة. ونتيجة لذلك سيعكس كل كاتب عفويًّا رسائل اجتماعية. بالنسبة لرولان بارت Roland Barthes فإنَّ النص خليط «فيه تنوع في الكتابات لكن ليس أيٌّ منها أصليًّا، كتابات تمتزج وتتضارب»[٣٤] هدف النقد الأدبي هو الحفر تحت سطح النص للتنقيب وفك هذه المعاني المتضاربة.

يدعى هذا **تفكيك** *deconstructing* النص؛ والذي أُخذ من مصطلح **التفكيكية** *deconstructionism*.

ما هو السبب الذي دفع رولان بارت لقبول مثل هذه النظرية؟ كما كتب ألان جاكوبس Alan Jacobs: «حالما يبدأ الناقد الأدبي التفكيكي عمله في طرح الأسباب، يبدأ بالضرورة في وضع ادعاءات، وبذلك يخضعون لنقدهم الخاص»[٣٥]. ماذا يحدث إذا طبقنا رؤى رولان بارت على نقده الخاص؟ سنخلص أيضًا إلى أنَّه مجرد لسان حال قوى المجتمع، مثل العرق والطبقة الاجتماعية والجنس. لا تعرض كتاباته «الخاصة» بصائر أصلية أو إبداعية، إنما مجرد فنٍّ تصويري للاقتباسات المتناقضة المتشربة عفويًّا من المجتمعات التي ينتمي إليها. وتتضمن جملة «موت المؤلف» رولان بارت نفسه.

عمليًّا فإنَّ الطريقة الوحيدة التي يمكن للناقد الأدبي التفكيكي أن يتصرف من خلالها هي أن يعفي نفسه ضمنيًّا من النقد الذي يطبقه على **الآخرين**. يفترض الناقد الأدبي التفكيكي أنَّه يقف فوق الشجار، مع بصيرة فريدة على نقد عبارة أي شخص باعتبارها نتاج الصراع على القوة والمصالح الدفينة، في حين أنَّه يعامل كتاباته **الخاصة** كما لو أنها محصنة من عملية التحليل النقدي التفكيكي. يكتب كما لو أنهم وحدهم هم القادرون على السمو فوق القوى الاجتماعية للعرف والطبقة الاجتماعية والجنس التي تجعل كل ما سواهم ضحية وعيٍ خاطئ[٣٦].

ولذلك فما يثير السخرية أنَّ أتباع ما بعد الحداثة يناقضون رؤاهم الخاصة في كل مرة يكتبون كتابًا أو مقالاً. يأمل النقاد الأدبيون التفكيكيون أن تعامل أعمالهم الخاصة كمساهمة جدية من عقل مبدع، وليس مجرد ردٍّ على الرسائل الثقافية. هم يواصلون تأليف كتب يجادلون فيها عدم وجود مؤلفين.

يشرح عالم الدين مارك تايلور Mark C. Taylor والذي هو نفسه من أتباع ما بعد الحداثة أنَّ موت الكُتَّاب كان نتيجةً حتمية لموت الله: «كان موت الله اختفاءً للمؤلف الذي خط الحقيقة المطلقة والمعنى الواحد في التأريخ العالمي». ولأن البشر مصنوعون في صورة الله فقد خلص تايلور إلى أنَّ «موت الله يشير ضمنيًّا لاختفاء الكاتب»[٣٧]. فإذا لم يكن هنالك خالق، فإن البشر يفقدون كرامة كونهم خالقين ثانويين. إنهم مجرد نتاج القوى الاجتماعية والتاريخية.

• ما بعد الحداثة والإرهاب

لفهم مصدر ما بعد الحداثة علينا الإحاطة بالسياق التاريخي لمؤسسيها. لمَ كانوا معارضين جدًّا للسرديات الكبرى؟ الإجابة هي أنَّهم أظهروها كمصدر للنظم السياسية المستبدة الوحشية. كان معظم مؤسسي ما بعد الحداثة أوروبيين عايشوا أكثر الأنظمة السياسية دموية وقمعًا على مر التاريخ؛ وهي النازية والشيوعية. وكما رأينا في المبدأ الثاني يرتكز كلا النظامين على مبدأ واحد: العِرق (النظام النازي) والطبقة الاقتصادية (الشيوعي). واعتنق كلٌّ منهما رؤية كبيرة لانتقال التاريخ بعناد تجاه مجتمع مثالي ما. وأصبح كلٌّ منهما استبداديًّا، يستخدم رؤاه حول يوتوبيا المدينة الفاضلة utopian لتبرير إيجاده للشرطة العسكرية ومعسكرات الموت.

قرر كثير من المفكرين بعد الحرب العالمية الثانية ممن عانوا تحت حكم هذه الأنظمة القمعية أنَّ مصدر حكم الحزب الواحد المجمل يكمن في السرديات الكبرى «الإجمالية». وقصدوا بكلمة «الإجمالية» رؤية كونية تركز على بعدٍ واحد للتجربة البشرية، رافعةً إياها لأمر مطلقٍ خاطئ، وتجعل كل ما سواها تابعًا لتصنيفاتها. عندما تستحوذ رؤية كونية إجمالية ذات بعدٍ واحد على السلطة السياسية ستقوم بتهميش واضطهاد وترك وإسكات وإكراه والسيطرة على كل من يخالفها. سيوصمون كمختلفين، يُنظر لهم بأنَّهم «آخرون»، يقفل عليهم في معسكرات الاعتقال. يجب أن ينحني الجميع للصنم المفروض رسميًّا، أو سيحرقون في نار فرن الاضطهاد.

بصيرة أتباع ما بعد الحداثة لديناميكيات المطلق الخاطئ تبدو مألوفة. كنا نقوم بنقد مشابه بيّنّا فيه كيف صُنعت الأصنام عندما عُدَّ جزءٌ من الخلق مطلقًا. الخطأ الذي قام به متبعو ما بعد الحداثة كان الظن بأنَّ مصدر المشكلة هو الالتزام بأي حقيقة شاملة. يقول جان فرانسوا ليوتار في كتابه **الوضع ما بعد الحداثي** *The Postmodern Condition* إنَّ الاعتقاد بوجود حقيقة واحدة (الحقيقة الكاملة) يؤدي حتمًا إلى «الإرهاب»: قدم لنا القرنان التاسع عشر والعشرون من الإرهاب أكثر مما نستطيع تحمله. لقد دفعنا ثمنًا باهظًا لقاء التوق nostalgia للـ[حقيقة] الوحيدة الكاملة»[١].

استنتج أتباع ما بعد الحداثة أنَّ الطريق الصحيح لتحدي ادعاءات **السلطة** المطلقة كان بتحدي ادعاءات **الحقيقة** المطلقة. وكما ذكر تيري إيغلتون Eagleton: تخطئ ما بعد الحداثة في افتراض أنَّ كل اعتقاد يكون عاطفيًّا دوغمائيًّا في الأساس» و«سينتهي معه الأمر بمعتقلات غولاغ Gulag »[٣٨].

لِمَاذا يكون هذا خطأ؟ لأنَّه يدحض نفسه ذاتيًّا. فبرفض أي حقيقة عالمية تقتل ما بعد الحداثة ادعاءها **الخاص** عن الحقيقة.

علاوة على ذلك، دون معيار عالمي ما للعدالة لن يكون هنالك طريقة للوقوف بوجه الظلم والقمع؛ وهي الأمور الأساسية التي ركز عليها أتباع ما بعد الحداثة. وكما كتب أحد الفلاسفة: «يبدو أنَّه دون مبادئ أخلاقية عالمية وخالدة لا يمكننا نقد قيم الثقافات المختلفة على مر الأزمنة، مهما بدت بغيضة»[٣٩].

فكر في الأمر بهذه الطريقة: إذا أمكن نقد جميع الادعاءات نقدًا تفكيكيًّا، فماذا عن ادعاء أنَّ الغني يجب ألا يقمع الفقير؟ أو أنَّه علينا مقاومة التعصب والتمييز العنصري؟ يمكن أيضًا نقد

---

(١) على الرغم من نظر أهل الإسلام إلى أنفسهم كأهل الحق، إلا أنهم مأمورون من الله ورسوله بعدم جبر غيرهم على الدخول في دين الإسلام: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ البقرة: ٢٥٦. بل وهم مأمورون كذلك بإحسان المعاملة والعدل والمسالمة مع من سالمهم طالما لم يحاربهم ولم يطردهم من بيوتهم حتى لو كان على غير دينهم: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ الممتحنة: ٨. ومن هنا ظهرت مصطلحات مثل حقوق الذمي (أي غير المسلم الذي يعيش بين المسلمين) وحقوق المعاهد وحقوق المستأمَن، وأي تعدٍّ عليهم بغير حق يعد تطرفاً وغلواً ويعاقب صاحبه في الإسلام. (المترجم)

هذه الادعاءات نقدًا تفكيكيًّا. وهكذا يبدو أنَّ ما بعد الحداثة متطرفة. ولكن، كتب ألان جاكوبس: «في الحقيقة لا يمكن إبداء مقاومة للوضع السياسي الراهن»[٤٠]. تؤدي ما بعد الحداثة عند العيش متسقة مع مبادئها إلى التواطؤ مع الشر والظلم.

• استبداد التنوع

أدت النظرية عند العيش متسقة مع مبادئها إلى قمع قسريٍّ للتنوع. قد يبدو هذا ساخرًا في بادئ الأمر، لأنَّ ما بعد الحداثة هي من جعلت من التنوع الطنان قويًّا أساسًا. قرر أتباع ما بعد الحداثة أنَّه إذا نتج حكم الحزب الواحد الإجمالي من السرديات الكبرى الإجمالية فإنَّ طريقة منع حصول تجمعات القوى هي المحافظة على تنوع السرديات الكبرى. وبالاحتفال بتنوع المجتمعات ولغتهم المتلاعبة أمل أتباع ما بعد الحداثة تفادي إجبار نشأة مجتمع ينظمه صنف مطلق واحد.

لكن عمليًّا اختيرت مجموعات محددة لتمثل «التنوع»؛ مجموعات شهد بأنها ضحايا أمور مثل العِرق والطبقة الاجتماعية والجنس والمجموعة العِرقية والهوية الجنسية. ونادرًا ما كان هنالك دفع للتنوع الثقافي أو السياسي أو الديني عندما كانت هذه الرؤى معاكسة لما بعد الحداثة. وإنَّ تحليل المشكلة مشتق نموذجيًّا من الماركسية: قيل عن مجموعة ما بأنَّها ضحية ومضطهدة، وإنَّ الطريق للتحرر هو بالثورة على المضطهِدين، والذي يكون غالبًا من خلال النشاط السياسي.

يوضح هذا لِمَاذا أصبح الحرم الجامعي النموذجي مسيسًا كليًّا. ففي كثير من الأقسام الإنجليزية لا يتعامل النقد الأدبي مع قضايا الجماليات aesthetics مثل الأسلوب والتركيب والبنية. إنما بدلاً من ذلك تجد ميلاً لتطبيق النقد الماركسي أو النقد النسوي أو أي نظرية يفضلها الناقد. وقد ذكر أحد أساتذة اللغة الإنكليزية في سجل التعليم العالي أنَّ هدف دراسة الأدب هو مساعدة الطلاب على أن يقرروا «أخذ أي جانب من الصراع الطبقي العالمي التاريخي: جانب مُلاك وسائل الإنتاج، أو جانب العُمال. هذا – وهذا فقط – هو السؤال الحقيقي في محو الأمية النصية textual literacy[٤١]».

الناقد الراديكالي فرانك لينتريشيا Frank Lentricchia والذي لقب مرة بـ «هاري القذر في النظرية الأدبية»، صحا أخيرًا عندما لاحظ أنَّ طلابه طوروا حِسًّا خانقًا بالتعالي الأخلاقي. قد يطلقون حكمًا على بعض الكتاب بأنَّهم عنصريون أو جنسيون أو رأسماليون أو إمبرياليون أو

عندهم رهاب المثلية **حتى قبل أن يقرؤوا أعمالهم**. يقول فرانك لينتريشيا بفزع: «أخبرني عن نظريتك [الأدبية]، وسأخبرك مسبقًا عمَّا ستقوله عن أي عمل أدبي، خصوصًا تلك الأعمال التي لم تقرأها»[٤٢].

لا تحرر المساقات الجامعية السياسة الصحيحة للطلاب لتمكينهم من التفكير بأنفسهم. بل تحولهم إلى كادر انفعالي مقوقع على ذاته ومستعدين لاستلام الأوامر من العالِم النظري الابتداعي المتوافر حاليًّا[١].

نشأ عالم اجتماع العلوم برونو لاتور Bruno Latour قلقًا بطريقة ما بشأن التأثير القمعي للنظرية النقدية التي ساعد هو نفسه على إنشائها. وكتب أنَّ جاذبية نقد ما بعد الحداثة هي أنَّها تسمح لك بالظهور بمظهر المفكر المتفوق الذي يذل «المؤمنين السُّذَّج» من خلال تفكيك معتقداتهم. يقول برونو لاتور « أنت دائمًا على حق!» «إنَّ تصرفهم محدد كليًّا بفعل السببية القوية الآتية من الواقع الموضوعي الذي لا يرونه، إنما أنت – نعم أنت – فقط من يمكنه رؤيته»[٤٣].

بدأت ما بعد الحداثة بهدف نبيل لكشف زيف الإمبريالية الضمنية في الرؤى الكونية الحديثة. لكن ومما يثير السخرية أنَّها نفسها أصبحت إمبريالية، تصر على أنَّ ما بعد الحداثة وحدها لها القدرة على كشف زيف الدوافع والمصالح المبطنة للجميع؛ لتنتقدهم وتفضحهم. وهي بذلك جوهريًّا تسكت كل منظور آخر.

الأسوأ من ذلك أنك إذا لم تشارك التعريف المحدد لما بعد الحداثة عن التنوع فمن المرجح أن تُجبر على ذلك بالقوة. وقد أدرك مقال في مجلة **أتلانتيك** *Atlantic* أنَّ «الكياسة السياسية قد نُسخت إلى شيفرات خطاب سياسي، وتدريبٍ على التحسس، وحظر الكتب»[٤٤]. أصبح الدافع للتنويع والذي كان من المفترض أن يكون حارس الحرية، أصبح هو نفسه للإكراه وتوحيد النوع. أصبح التنوع كلمة السر لشكل جديد من الاستبداد.

---

(١) للأسف الشديد معظم كليات الآداب في جامعاتنا العربية تمتلئ بتدريس فلسفات التشكيك والنسبية تلقيناً لا نقداً، فهم يعرضونها على الشباب اليافع الذي لم تتكون لديه خبرة النقد ولا خبرة الحياة، ولا يعرضون معها النقد الذي يهدمها ويبين للشباب المسلم والعربي عوارها وتناقضاتها وهدمها الذاتي وإلى الله المشتكى. (المترجم)

• خسروا أنفسهم

قابلت مؤخرًا صديقةً كانت تنتحب أنَّ ابنتها رفضت نشأتها المسيحية؛ لكن ما يثير الدهشة أنَّها كانت في كلية مسيحية محافظة. كان اختصاصها الأساسي اللغة الإنكليزية، وهو اختصاص يعُدُّه معظم الآباء «آمنًا» نسبيًّا، حيث يقرأ الطلاب لشكسبير وديكينز. لكن وحتى في الكليات الإنجيلية يعتنق كثير من أفراد الكلية عناصر ما بعد الحداثة والتفكيكية. وخلال وقت قصير بدأت تسأل ابنة صديقتي ما إذا كان هنالك أي حقيقة مطلقة، بما فيها حقيقة الكتاب المقدس الذي تعلمته في بيتها وفي الكنيسة.

كيف نهيئ الشباب لنظريات ما بعد الحداثة التي سيواجهونها في قاعة الدروس؟

تقدم ما بعد الحداثة – مثل كل الرؤى الكونية الأخرى – بصائر أصيلة، خصوصًا في نقدها للحداثة. حمل التنوير وجهة نظر سامية عند الأفراد المستقلين ذاتيًّا في امتلاك منطقٍ منفصل (رأسماليين في أغلب الأحيان)، والذي يفترض أنه يرفعهم عن مكانهم الصغير للغاية في أبعاد الزمان والمكان ليصلوا إلى الحقيقة الموضوعية الخالدة. وعلى النقيض من ذلك تصر ما بعد الحداثة أنَّ المعرفة محكومة بالسياق دائمًا. فالأشخاص ليسوا وعيًا مفصولاً عن جسدهم. إنهم كائنات مادية تقع ضمن مجتمعات، ورؤاهم الكونية تلونها العادات الثقافية والمصالح الاقتصادية وعلاقات السلطة.

لكن عند الرد على التنوير تسقط ما بعد الحداثة عن مبادئها لتستخدم غيرها. حيث تختزل الأفراد إلى مرقعات من القوى التاريخية والاجتماعية، دون وجود هوية شخصية مستقرة. يعود السبب إلى تاريخية جورج هيغل Hegel's historicism، إلى فكرة أنَّ الإنسانية تنغمس في الجريان المستمر للتطور. والنتيجة المترتبة على ذلك هي أنَّه لا يوجد شيءٌ يدعى بالطبيعة البشرية، ليس ثمة مخطط مثالي مستقر لما يعنيه أن تكون إنسانًا، ليس ثمة معيار عالمي يخبرنا ما نحن عليه، وكيف نمثل طبيعتنا الحقيقية.

وكما قال جان بول سارتر Jean-Paul Sartre عن الوجودية: «لا توجد أي طبيعة بشرية، لأنه لا يوجد إله ليضع مفهومًا حولها»[١٥]. وتمامًا كما تتغير الأنواع وتتطور باستمرار، كذلك على البشر أن يتخلوا عن كل المعايير الثابتة وأن يغمروا أنفسهم في الجريان المستمر للحياة، ينشئون ويعيدون إنشاء أنفسهم باستمرار.

وباستخدام مصطلحات ما بعد الحداثة فإنَّ النفس سائلة وممزقة. يقول ميشال فوكو Michel Foucault إنَّ هدفه هو «تمييز النفس» من خلال إظهار أنَّ إحساسنا بأننا نفوس متماسكة هو في حقيقته «اصطناعٌ فارغ» للأحداث الماضية. ماذا يعني هذا بالضبط؟ يفسر أحد الفلاسفة ذلك بأنَّه بالنسبة لميشال فوكو فإنَّ «هوياتنا مجرد خيال بكل الأحوال؛ كلٌّ منا هو جمع، هو كتلة من القوى التي تسحبنا في كثير من الاتجاهات»[١١].

لكن إذا كانت هوياتنا مجرد «خيال» فمن هو ميشال فوكو؟ ومن يتكلم حقًّا في هذه الكتابات؟ عندما تقر ما بعد الحداثة أنَّه من المستحيل تحقيق الموضوعية، هل **تلك** عبارة موضوعية؟ فالنظرية تقتل ادعاءاتها.

علاوة على ذلك يسري الأمر مناقضًا للتجربة الإنسانية. فكل منا واجه شعورًا حتميًّا لا يمكن مقاومته بأنه نفسٌ متماسكة، مركزٌ نشطٌ للوعي، وليس مجرد مكان تموضع locus عفوي لصدامات القوى الاجتماعية. حتى عندما نخوض تحديات الحياة، ندرك هوية شخصية مركزية ثابتة. وإنَّ عموم وعي «الشخص الأول» – حتى بين أولئك الذين تنكر رؤاهم الكونية ذلك – هو فكرة جوهرية للتجربة الإنسانية. نحن مشكلون بعمقٍ بعدم قدرتنا على العيش باتساق على أساس الاختزالية الراديكالية لأتباع ما بعد الحداثة. بل إنهم لا يستطيعون ذلك أنفسهم. لا يمكن قمع حقائق الوحي العام قمعًا نهائيًّا.

• الهروب من الاختزالية

يجهزنا فهم الاختزالية بوسائل قوية لـ «هَادِمِينَ ظُنُونًا وَكُلَّ عُلْوٍ يَرْتَفِعُ ضِدَّ مَعْرِفَةِ اللهِ" [رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١٠ : ٥]. فلقد كان تمييز الاختزالية في المبدأ الثالث أساسيًّا لعرض كيفية تناقض الرؤى الكونية القائمة على الأصنام الواقع. وفي المبدأ الرابع كان تمييز الاختزالية سببًا في إظهار كيف تدمر الرؤى الكونية نفسها ذاتيًّا.

ومن الضروري بعد إسقاطنا للأصنام أن نستبدل بها شيئًا أفضل. وبما أنَّ العيب الرئيس كان الاختزالية، فإنَّ الطريقة الصحيحة لبناء حالة إيجابية للدين هي إظهار أنَّه ليس اختزاليًّا. وذلك لأنه لا يؤله أي جزءٍ من الخلق، وليس عليه حشرُ كل شيء في مجموعة واحدة من التصنيفات.

النتيجة هي أنَّ الدين له أنطولوجية «علم وجودٍ» غنية جدًّا (نظرية عن ما هو موجود). فهو يقدم احترامًا أكبر للخلق مقارنة بأي رؤية كونية منافسة. انظر إلى مدى إيجابيته بمقارنتها مع:

المادية: لمواجهة المادية يمكننا إظهار أنَّ الرؤية الكونية الدينية تُعلم أتباعها تقديرًا أكبر للعالم المادي حتى من المادية. فالكون المادي ليس نتاج مصادفة ما. والأرض ليست صخرة تدور في فضاء فارغ دون معنىً أو غاية سامية. بدلاً من ذلك أتى الكون المادي للوجود من خلال إله محبةٍ وجمال. هو نتاج خطة وتصميم.

ما يثير الدهشة أنَّه كان على الدين أيضًا الدفاع مبكرًا عن النظرة السامية عن العالم المادي، رغم أنَّ الأمر كان لأسباب مختلفة. فكان يتخلل ثقافة اليونان القديمة بعض الفلسفات مثل الغنوصية Gnosticism والأفلاطونية الجديدة، ولقد اعتبرت العالم المادي عالم موت وتآكل ودمار. ما تُعلمه الغنوصية هو أنَّ العالم كان شريرًا للغاية لدرجة أنَّه لا يمكن أن يكون نتيجة خَلقِ إلهٍ عليٍّ متعال، إنما يجب أن يكون عمل إلهٍ ثانويٍّ شرير. لن يذل الله الأعلى نفسه بالتسلي بالمادة. شوهت الغنوصية الجسم المادي بكونه «سجن الروح». كان هدف الخلاص **الهروب** من العالم المادي وتركه.

وفي هذا السياق كانت المسيحية ثورة حقيقية. لقد علَّمت أتباعها أنَّه يوجد إلهٌ واحد فقط، وهو من خلق المادة. لذلك فالمادة جيدة جوهريًّا. لكن فضيحة المسيحية الأعظم كانت التجسيد؛ الادعاء أنَّ الله نفسه اتخذ جسدًا ماديًّا. لم يكن صورة رمزية avatar **بدت** فقط كإنسان (كما تُعلم الغنوصية Gnostics). لقد **أصبح** بالفعل بشرًا. يمنح التجسيد للعالم المادي كرامة رفيعة.

بل وقد كانت ثورية أكثر، فبعد أن «هرب» عيسى من العالم المادي (بعد موته) **عاد**[1]. وفي إحياء جسماني. بالنسبة لليونان فهذا لم يكن تقدمًا روحيًّا؛ لكنَّه في الحقيقة قد كان كذلك. لم قد يرغب أي شخص بالعودة للعالم المادي، عالم الشر والفساد؟ كانت الفكرة الكاملة غباوة مطلقة بالنسبة لليونانيين [١ كو ١ : ٢٣][2].

---

(١) وضحنا من قبل الرؤية الإسلامية في ادعاء تعذيب وصلب المسيح وموته وعودته. (المترجم)

(٢) تقصد الكاتبة هنا أن عودة المسيح إلى عالم المادة يناقض الرؤية المهينة لعالم المادة، ولذلك ستذكر بعد قليل مسألة بعث الأجساد المادية بعد الموت للبشر، فهي في السياق ذاته كذلك. (المترجم)

في النهاية ما الذي سيحدث في نهاية الزمان طبقًا للدين؟ لن يلغي الله فكرة الكون المادي ويستبدل به مستوىً أثيريًا ethereal (لا ماديًا) صرفًا للوجود كما لو أنَّه أخطأ في بادئ الأمر. إنما سيستبدل به «أَرْضًا جَدِيدَةً» [رؤ ٢١: ١]. وأنا وأنت سنعيش على تلك الأرض الجديدة بأجسام مادية جديدة[1]. في مذهب الحواريين يؤكد الدين «إحياء الجسد». وتلك نظرة سامية لدرجة مذهلة عن العالم المادي. يمنح الدين قيمة أعظم عن العالم المادي من أي نسخة عن المادية»[52].

• **التجريبية**: يمكن للمؤمنين لمواجهة التجريبية إظهار أنَّ رؤية الدين تقدم أساسًا أفضل للثقة بأحاسيسنا. وكما رأينا سابقًا فإنَّ العيب في التجريبية هو أنَّها لا تستطيع تقديم أي ضمانٍ أنَّ ما ندركه من خلال حواسنا صحيح. لا يمكننا الخروج من رؤوسنا لنكون في موقع ممتاز مستقل لاختبار بيانات أحاسيسنا في مقابل العالم الخارجي. الأساس الوحيد الملائم للثقة في المعرفة الحسية هو تعاليم الدين بأنَّ الخالق صمم أجهزة أحاسيسنا لتعمل على نحو موثوق في العالم الذي خلقه هو.

إنَّ مذهب الخلق هو الضمان المعرفي على توافق تكوين قدراتنا البشرية مع بنية العالم الخارجي. وقد كتب ألفين بلانتينغا Plantinga أنَّه جزء من «خطة التصميم البشري» لنثق بتصورات أحاسيسنا. فعندما تكون وسائل فهمنا ذات نظام عمل جيد، وتعمل في البيئة التي صُممت لأجلها نثق طبيعيًا أنَّ الألوان والأشكال التي ندركها هي أجسام حقيقية في العالم الحقيقي[53].

كانت القيمة العالية التي لحقت بالمعرفة التجريبية أحد الشروط المسبقة الحاسمة لنهوض العلم الحديث. على المؤمنين الوقوف في وجه التقليد القديم العائد لليونان القدماء الذي شوه سمعة العالَم التجريبي كعالَمٍ منزاح نحو الظلال. بالنسبة لأفلاطون كان من المستحيل اكتساب معرفة أصيلة من العالم المحسوس، لأنَّه كان عالم «الظاهر»، وليس الواقع. واقترح كثير من المؤرخين أنَّ هذه النظرة الدنيا عن العالم التجريبي هي أحد أسباب عدم تطوير اليونان القدامى لأي علمٍ حديث، وهي سبب كون الدين ضروريًا لوضع أساس المنهج التجريبي للعلم"[54].

---

(١) هذا المفهوم موافقٌ لما أشار إليه الله عز وجل في القرآن: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ إبراهيم: ٤٨. (المترجم)

• **العقلانية**: يمكن مواجهة العقلانية بإظهار أنَّ الدين يمدح العقلانية البشرية كجزء من صورة الله. فهي لم تكن نتيجة حادث تاريخي؛ حيث كانت العصور الوسطى (عصور ازدهار المسيحية) عصر بُناة النظام العقلاني العظيم مثل أنسلم أسقف كانتربري Anselm وتوما الأكويني[1] Thomas Aquinas. لقد كانت ثقتهم في المنطق لا نظير لها، ذلك أنَّهم عَدوها هبة من الله. كانوا متيقنين أنَّ العالم خَلقٌ إله منطقي، ولذلك له بنية واضحة يمكن معرفتها بالمنطق. وحتى اليوم وكما رأينا يؤيد الدين حقيقة موحدة متماسكة منطقيًّا في مقابل حالة تقسيم الطابقين الأعلى والأسفل التي تمزق الرؤى الكونية الحديثة.

كما يحارب الدين «سادة الشك» الذين يدَّعون أنَّ العقلانية البشرية غارقة في قوىً لا عقلانية. يدعونا الله في الدين للتفكير معًا «هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ» [إش ١: ١٨]. يأتي التقديس من خلال « تَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ» [رسالة بولس إلى أهل رومية ١٢: ٢]. والغاية هي تعلم حب الله «مِنْ كُلِّ فِكْرِكَ» [متى ٢٢: ٣٧][2].

• **ما بعد الحداثة**: يمكن للمؤمنين لمواجهة ما بعد العلمانية تقديم بصيرة أكثر راديكالية في إمكانية وجود المعرفة البشرية. تختزل ما بعد الحداثة الادعاءات المعرفية إلى تعابيرَ عن المصالح والقوة؛ والتي تستند إلى العرق والدرجة الاجتماعية والجنس والانتماء العرقي والهوية الجنسية. بالمقابل تغوص تعاليم الدين حول الأصنام أكثر إلى نهايات الالتزامات الروحية في مركز الدافعية البشرية. يُعلِّمنا الدين أنَّ العامل الأهم في اختياراتنا هو التزامنا بمفهوم الألوهية. فحياتنا مَصوغة بالله الذي نعبده، سواءً كان اللهَ المذكور في الكتاب المقدس أو أي آلهة بديلة أخرى.

---

(١) الحقيقة أن أنسلم (توفي ١١٠٩م) وتوما الأكويني (توفي ١٢٢٥م) جاءا في أواخر العصور المظلمة في أوروبا والمعروفة تاريخيًا بـ Dark Ages (وهي نفسها فترة العصور الوسطى في أوروبا)، حيث يعود المؤرخون بها إلى بداية القرن الخامس الميلادي لتستمر إلى القرن العاشر أو الرابع عشر على اختلاف بينهم، وقد تميزت هذه العصور بسطوة الكنيسة الرومانية والظلم والتخلف الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والحضاري، في مقابل ازدهار الحضارة الإسلامية في كل ذلك في المقابل. (المترجم)

(٢) هذه سمة دين الله تعالى وهي الدعوة إلى التفكر في كل شيء، وهي مكررة عشرات المرات في القرآن من أول التفكر في جسم الإنسان وأحواله إلى التفكر في عظمة خلق السماوات والأرض: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ آل عمران: ١٩٠ - ١٩١. (المترجم)

يحيط الدين في كل المجالات ببصائر صحيحة لكل الرؤى الكونية الأخرى، مع تجنب نقاط ضعفها. ويدمج أفضل بصائر الفلسفات المرتكزة على الأصنام، دون أن ينحشر في أي اختزالية محدودة منكرة للحياة. وهذه أخبار جيدة بصدق.

في الحقيقة إنَّ الدين جذاب جدًّا لدرجة أنَّ الملحدين يستمرون في التطرق إليه والاستعارة منه. وسنكتشف في الفصل القادم ما يجعل الحقيقة الدينية جذابةً للغاية، ولِمَاذا يستمر الناس حتى الملحدون بادعاء أجزاء منها أنَّها لهم.

المبدأ الخامس: الملحدون الطفيليون

زرتُ قبل سنوات قليلة كنيسةً حضريةً كبيرة كانت قد جذبت طلاب الجامعات من أنحاء المدينة. أخبرني قائد الرحلة الجامعية أنَّه كان يعمل للحصول على درجة الدكتوراه في الكيمياء.

فقلت: «ممتاز!» هل أخذت بعين الاعتبار الطرق التي تعلقت فيها الكيمياء بفهمك للدين؟ مثلاً: هل درست نظريات التطور الكيميائي وأصل الحياة.

أجاب: «أوه، لا». «لذلك توجهت للكيمياء **الاصطناعية**، بحيث لا أتعامل مع هذه القضايا».

ثم قابلت في المساء بينما كنت أختلط بباقي الطلاب شابةً متخصصة في علم الأحياء، فقلت: «عظيم». «هل اطلعت على بعض القضايا الجدلية المتعلقة بمجالك، مثل التطور والتصميم الذكي؟»

وما أثار دهشتي أنَّ ردها كان مطابقًا تقريبًا لرد الكيميائي الشاب: «أوه، لا. لذلك توجهت لدراسة الطب pre-med، بحيث لا أتعامل مع هذه القضايا»[1]. كان هؤلاء شبابًا لامعين ذوي تعليمٍ عالٍ، وكان بإمكانهم استخدام هباتهم لتعليم الدين في كيفية الانخراط في الأحاديث العامة بصوت المُطلع. لكنهم كانوا يرفضون الخطو باتجاه ذلك.

بدا أنَّ كثيرًا من المؤمنين مرتبكون من حيث بناء رؤية كونية للدين تكون مناسبة للمجال العام. نموذجيًّا هم يعيدون ببساطة صياغة **علم اللاهوت** الديني. فمثلاً أجرى جورج بارنا George Barna استطلاعات لقياس كم من المسيحيين يتمسكون برؤية الكتاب المقدس الكونية. لكن

---

(١) يقصدون أنهم في تخصصاتهم الكيميائية والأحيائية كانوا يبتعدون بحكم تدينهم وإيمانهم عن الموضوعات الجدلية التي يسيطر عليها التعليم الجامعي المادي ويبث فيها أساتذة المادية الإلحاد العلمي والتطوري اليوم. (المترجم)

تعريفه تضمن العبارات الدينية التالية: أنَّ الكتاب المقدس «دقيق تمامًا»، وأنَّ عيسى «عاش حياته دون خطيئة» وأن الشيطان «حقيقي» وأنَّ «الناس لا يمكنهم الوصول للجنة بمحاولتهم أن يكونوا خيرين» وهكذا.[1] لكنَّ الرؤية الكونية ليست مطابقة لعلم اللاهوت. فالرؤية الكونية **تطبق** الحقائق الدينية في مجالات شتى، كالفلسفة والعلوم والتعليم والتسلية والسياسة.

• المبدأ الخامس: استبدل الصنم: صياغة قضية لمصلحة الدين

إحدى أفضل الطرق للوصول لأجوبة الدين هي الاستماع بإنصات أكبر للأسئلة. ستظهر علاقة الرسالة الدينية أفضل ما يمكن عندما تنعكس في مواضع محددة، مواضع يميز الناس فيها عيوب وحالات فشل رؤاهم الكونية. فمثلاً قابلنا في المبدأ الثالث مفكرين أدركوا أنَّ رؤاهم الكونية الاختزالية خلصت إلى أنهم هم أنفسهم يعدون «غرباء» و«كريهين.» وهي نتيجةٌ «لا يمكنهم أنفسهم التعايش» معها. وقابلنا في المبدأ الرابع أناسًا يعتمدون ضمنيًّا على رؤية الدين للمنطق البشري. ما يمكننا من القول إنَّه لا يمكن للاختزاليين العيش ضمن حدود صندوق رؤيتهم الكونية الخاصة، فهم يهربون سلالم من الرؤية الكونية المسيحية ليتسلقوا إلى خارج الصندوق. هم جياع لرؤية كونية أكمل وأكثر بشرية مما تعطيهم أصنامهم.

وما يبدو مفاجئًا أنَّ الرؤية الكونية الدينية جذابةٌ جدًّا، حتى إنَّ أولئك الذين رفضوها غالبًا ما كانوا يستعيرون منها، سواءً كانوا مدركين لذلك أم لا.

قد تحتاج صياغة قضية للدين في كل ميدان كتابًا آخر. لكن يمكننا البدء بتحديد العناصر التي يأخذها الناس من الرؤية الدينية الكونية. هم يظهرون لنا أين تتحطم رؤاهم الكونية، وبالوقت نفسه يظهرون دون وعيٍ أكثر ما يجدونه جذابًا في الدين. فيزود ما سبق بنقاط بداية استراتيجية لتأطير توافق الرؤية الكونية للدين مع أسئلة حاضرنا.

• هل يمكن للنسبوي معارضة التمييز العنصري؟

لنبدأ بأمثلة واسعة الانتشار. يدَّعي كثيرٌ من الناس اليوم أنَّهم نسبويون أخلاقيًّا، ويجادلون بعدم وجود قانونٍ أخلاقي عالمي خالد. لكن من المرجح أنَّهم سيغيرون موقفهم عندما يكون الحديث مثلاً عن أفعال التمييز العنصري أو الاستغلال، ويصرون حينها على أنَّها خاطئة، وأنَّها

ليست مجرد أفعال مزعجة أو مهينة شخصيًّا، إنما أفعال خاطئة من أساسها. وسيستنكرون بشدة في حال خُدعوا أو احتيل عليهم بأي طريقة. في الحقيقة لا يمكن للناس ممارسة حياتهم حتى لبضع ساعات دون القيام بتقديرات أخلاقية: **كان يجب عليه ألا يقول ذلك. هي بخيلة للغاية.**

من المثير للسخرية أنَّك ترى النسبويين الأخلاقيين يفتخرون بأنهم أنفسهم أسمى أخلاقيًّا من الآخرين. ففي النهاية هم متسامحون ولا يطلقون أحكامًا. وليسوا كالآخرين من المتزمتين والمنغلقين لدرجةٍ لا تطاق، الذين يستحقون أشد الإدانة.

يرسم الجميع تهيؤات ليشعروا أنهم أسمى أخلاقيًّا، مثلهم مثل الفريسي في مثال السيد المسيح الذي شكر الله أنَّه لم يكن كالآخرين [لوقا ١٨: ١١].

قد تدعي النسبوية الأخلاقية أنَّها تهتم بتحمل الغير والتواضع، لكن الحقيقة أنَّها غالبًا ما تتبنى موقف إدانة فيه حكم شديد على الآخرين.

المغزى مما سبق أنَّ كثيرًا من الناس يتشربون **لغة** النسبوية الأخلاقية، إلا أنَّ كلماتهم لا تتوافق مع حقيقتهم ككائنات بشرية وظيفية في كل النواحي. وبدلاً من ذلك فإنَّ الرؤية الكونية الدينية هي ما تناسب حقيقتهم. ذلك أنَّ البشر مخلوقون في صورة الله فهم متصلون اتصالاً شديدًا مع حسٍّ أخلاقيٍّ داخلي. يقول بولس في الإصحاح الثاني من رسالته إلى أهل رومية إنَّ أولئك الذين ليس لديهم القانون الإلهي (الناموس) بشكله المكتوب يظهرون عمل الناموس «مكتوبًا في قلوبهم» [روم ٢: ١٥]. لا ينفعهم البوح بادعاءات أخلاقية؛ ادعاءات ليس لها أساسٌ في رؤيتهم الكونية النسبية، ادعاءات تكون منطقية فقط على أساس الرؤية الكونية للدين التي يرفضونها.

قد تقول إنَّهم يمارسون حياتهم **كما لو** أنَّ الدين صحيحٌ. فالاعتراف بالحقائق الأخلاقية هو سمة الوحي العام. لا يهم مدى قمع الناس لتلك المعرفة، ستظل تطفو على سطح الأفعال.

ومن الأمثلة الأخرى هي الناس الذين يدعون أنَّهم شكاكون فيما يخص المعرفة. فمن ناحية يدَّعون أنَّنا لا نستطيع أنَّ نكون متيقنين من أي شيء. ومن ناحية أخرى تراهم في الغالب يصرون على أنَّ العلم قد أثبت نظرياتهم المفضلة. أما في الحياة العملية فتجدهم يتفحصون بياناتهم المصرفية للتحقق من صحة الأرقام. بالمختصر هم يعيشون ويتصرفون كما لو أنَّ لديهم وصولاً للمعرفة الأصيلة.

لا يهم مقدار شكوكية أي شخص، فبعض الأشياء من المستحيل فعليًا الشك بها، على الأقل عمليًا. فمثلاً لا يشك أحدٌ حقًا أنَّ العالم المادي حقيقي. (نحن جميعًا ننظر إلى طرفي الطريق قبل عبور الشارع) ولا يشك أحدٌ في التجارب الداخلية كالسعادة أو الألم (إذا قلت إنّي مصاب بصداع فلن تسأل «كيف عرفت؟») ولا نشك بحقيقة السبب والأثر (ننحن نثق أنَّ النار ترفع حرارة الأشياء، والجليد يخفضها) ولا يشك أحد في وجوده الشخصي، فدائمًا ما نستخدم كلمة «أنا». وإذا أنكر أي شخص هذه الحقائق الأساسية ننعته بالمعتوه، أو قد ننعته فيلسوفًا.

وحتى الفلاسفة لا ينكرون مثل هذه الحقائق العنصرية إلا مؤقتًا فقط. وكما رأينا سابقًا كان ديفيد هيوم David Hume رمز التجريبية المتطرفة، والذي قادته لشكوكية شديدة. لكن وجد هيوم أنَّه من المستحيل الحفاظ على شكوكيته عندما ترك دراسته (عندما انضم لأصدقائه في لعبة الطاولة كما ذكر). وكتب: تختفي شكوك الشكوكية في «الأمور الحياتية اليومية كما يختفي الدخان، وتترك أكثر الشكاكين صرامة في حالة جميع الفانين نفسها»[٢].

قد تقول إنَّه لا يوجد شكاكون في الحياة العملية. فعندما يكون عليهم ممارسة حياتهم العادية «تختفي شكوكيتهم كالدخان". يجبرون على التصرف **كما لو** أنَّ لديهم منفذًا للمعرفة الأصلية بطريقة تُنكر رؤيتهم الكونية إمكانيتها.

بالمختصر: يجب عليهم التصرف **كما لو** أنَّ الأبستمولجية «نظرية المعرفة» الدينية صحيحة. يُعلم الدين أنَّ البشر مخلوقون على صورة الله. و**أنَّ** عقولنا وأحاسيسنا مصممة للعمل في عالم الله. وحتى أولئك المتمسكون بالشكوكية الشديدة تجبرهم ظروف الحياة المجردة على التصرف **كما لو** أنَّ رؤية الدين للإدراك البشري صحيحة.

لكن، لِمَاذا يتمسك الناس بأفكار لا تدعمها رؤاهم الكونية؟ يقول الدين إنَّ جميع الناس مخلوقون على صورة الله، ويعيشون في عالم الله، وينعمون بنعم الله العامة. ونتيجةً لذلك فعمليًا هم يواجهون الحقائق الحية للوحي العام، حتى لو قمعوا تلك المعرفة قمعًا انتقائيًا. وكما يخبرنا علماء النفس تشق المعرفة المقموعة طريقها في النهاية إلى السطح. وفي تلك الأوقات كان توماس جونسون Thomas Johnson يقول: «يتصرف الناس ويتكلمون طبقًا لمعرفتهم المكبوتة، والتي يتلقونها من الوحي الإلهي العام، بدلاً من التصرف طبقًا لمعتقدات يدَّعون قبولها»[٣].

حقيقة أنَّ على الجميع ممارسة حياته كما لو أنَّ المسيحية حقيقةٌ صحيحة، تصنع فرصة خلاقة لعنونة العالم العلماني. تزود المسيحية بأساس لطريقة لا غنى للناس عن التصرف وفقها بكل الأحوال. ولذلك فإنَّ أحد المنطلقات الاستراتيجية في صياغة حالة الرؤية الكونية للدين، هو إظهار أنَّه وحده يعطي أساسًا لجميع الطرق التي علينا جميعًا التصرف من خلالها، مهما كانت الرؤية الكونية التي نعتنقها.

• اعتراف ريتشارد رورتي

إنَّ أحد تحديات بناء حالة خاصة بالدين، هو أنَّ مبادئها موجودة في أساس كثير من الثقافات المشتركة، فلم نعد نعترف بها على أنَّها تابعة للدين بحق. فمثلاً يفتخر الغربيون بأنفسهم غالبًا لتمسكهم بقِيَم نبيلة مثل المساواة وحقوق الإنسان العالمية. لكن ما يثير السخرية، أنَّه وكما رأينا في الفصول السابقة تنكر الرؤى الدينية السائدة في يومنا حقيقة الحرية البشرية، ولا تقدم أساسًا للقيم الأخلاقية كحقوق الإنسان.

إذًا من أين ظهرت فكرة حقوق المساواة؟

قال مفكر القرن التاسع عشر السياسي ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville إنَّ الفكرة أتت من الدين. وكتب: لم يأتِ «أبرز عباقرة روما واليونان» بفكرة حقوق المساواة. «كان لا بد أن يأتي السيد المسيح للأرض لإيضاح أنَّ جميع أفراد الأنواع البشرية متساوون ومتشابهون طبيعيًّا[1]»[4].

ووافقه على ذلك ملحد القرن التاسع عشر فريدرك نيتشه حيث قال: «لقد غاص مفهومٌ مسيحيٌّ آخر... بعمق أكبر في أنسجة الحداثة: مفهوم «مساواة الأرواح أمام الله.» وصقل هذا المفهوم النموذج المبدئي لجميع نظريات مساواة الحقوق»[5].

---

(١) كل رسالات الله جاءت لتقر هذا المعنى من المساواة الإنسانية، وفي الإسلام مثل ذلك، حيث فيه الإقرار بأن البشر جميعاً من الرجل والمرأة أنفسهما ولا تفاضل بينهم إلا بتقوى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات: ١٣. وحتى التعامل مع العبودية التي كانت سائدة في تلك العصور كان تعاملاً مع شيء قائم كناتج أساسي للحروب، ليس على سبيل تقسيم البشر، يشذ عن ذلك اليهود في ادعاء خصوصية الدين لهم، ولذلك لا يقبلون في دينهم إلا من كان من نسل يهودية أبًا عن جَدٍّ. (المترجم)

وقال الملحد المعاصر لوك فيري Luc Ferry الشيء ذاته. صحيح أنَنا نميل لاستحسان مفهوم المساواة؛ إلا أنَّ المسيحية هي ما أسقط التدرجات الاجتماعية القديمة بين الأغنياء والفقراء، بين السادة والعبيد. وكتب لوك فيري: «طبقًا للمسيحية قد كنا جميعًا 'إخوة'، لأننا مخلوقات لله». «المسيحية هي الأخلاقية العالمية الأولى»[١].

يعترف قلة من الملحدين الجريئين بصراحة أنَّ عليهم استعارة قيم الحقوق الإنسانية من الدين. فمثلاً يلتزم ريتشارد رورتي الداروينية؛ وفي الصراع الداروينى من أجل البقاء يسود القوي، ويُخلف الضعيف. لذلك لا يمكن للتطور أن يكون مصدر الحقوق الإنسانية العالمية. لذلك قال رورتي إنَّ المفهوم أتى من «الادعاءات الدينية التي صاغتها الكائنات البشرية على صورة إله»[٢]. فيعترف مبتهجًا أنَّه أخذ واستعار مفهوم الحقوق العالمي من الدين. حتى إنَّه يدعو نفسه مُلحدًا «طفيليًا» «free-loading" atheist» وذلك في قوله: «يشهد الملحدون الطفيليون من أمثالي بامتنان على فضل هذا العنصر اليهودي المسيحي في تقليدنا»[٣].

وعند ولادة الأمة الأمريكية عدَّ المؤسسون الأمريكان أنَّه من البدهي وجوب تأصل حقوق الإنسان في الله. وتَقَدم بيان الاستقلال بهذه الكلمات اللامعة البراقة: «لقد تمسكنا بتلك الحقائق أنَّه من البدهي أن جميع البشر قد خُلقوا متساوين، بأنَّ خالقهم وهبهم حقوقًا غير قابلة للانتزاع».

وفي صيف ٢٠١٣ قامت شركة بيرة بإثارة خلاف عندما أصدرت إعلانًا ليوم الاستقلال حذفت منه كلمة «خالقهم» الحاسمة، فقالوا: «بأنَّهم وهِبوا حقوقًا غير قابلة للانتزاع». (من وهبهم؟) كان الإعلان رمزًا لما يفعله كثيرٌ من العلمانيين: هم يستعيرون قيمًا مثل المساواة والحقوق من الرؤية الكونية للدين، لكنهم يقتطعون منها مصدرها، أي الخالق، فهم طفيليون. ويجب على المؤمنين استرداد تلك القيم النبيلة، وصياغة القضية التي يدعمونها منطقيًا فقط من خلال الرؤية الكونية للدين.

يشجب الملحدون الدين في أغلب الأحيان بأنه قاسٍ وسلبي. لكنه في الواقع يقدم نظرة أكثر إيجابية للشخص البشري مما يفعله أي دين منافس أو أي رؤية كونية أخرى. فهو جذاب جدًا لدرجة أنَّ أتباع باقي الرؤى الكونية يستمرون بالتطفل على الأجزاء التي تعجبهم.

• ما الذي يجعل من العلم ممكنًا؟

من العناصر الأخرى الواسعة الانتشار للثقافة الغربية حتى إنَّنا لم نعد نميزها بأنَّها دينية بامتياز هو المشروع العلمي في حد ذاته. إنَّ الصورة النمطية السائدة هي أنَّ الدين والعلم في حرب بعضهما مع بعض. لكنّ المؤرخين قلبوا هذه الصورة النمطية رأسًا على عقب.

خذ مثلاً فكرة «قوانين» الطبيعة، إنَّ هذه الفكرة اليوم مألوفة جدًّا لدرجة أنَّنا نراها مفهومًا عامًّا. لكنّ المؤرخين يخبروننا أنَّه لم تقم ثقافة أخرى في الشرق أو في الغرب، قديمةً كانت أو حديثة بالإتيان بمفهوم وجود قوانين في الطبيعة. إنما ظهرت فقط في أوروبا في القرون الوسطى، في تلك الفترة كانت الثقافة الغربية تتخللها الافتراضات المسيحية بالكامل[1]. وكما ذكر المؤرخ القدير ألفريد روبرت هول A. R. Hall فإنَّ استخدام كلمة **القانون** في سياق الأحداث الطبيعية «قد يكون غريبًا في العصر القديم، لكن الاعتقاد المسيحي والعبري بإله خلق القوانين ووضعها من قبل جعل هذه الكلمة متاحةً».

---

(١) يمتلئ القرآن في الإسلام بإشارات إلى ضبط ميزان السماوات والأرض وأن كل شيء مخلوق بحكمة ومقدار وقدر، فكلام المؤلفة هنا فيه تحيز واضح للأسف، فمرحلة ظهور القوانين بشكلها الرياضي الحالي كانت متأخرة عن القرون الوسطى، أما العلم قبل القرون الوسطى فكان توصيفاً مكتوباً للظواهر الطبيعية وعلاقاتها بعضها مع بعض وكيفية استغلالها أو استخدامها أو توقعها، وهذا ما فعله علماء مصريون ويونانيون وصينيون وغيرهم وصولاً إلى المسلمين الذين نقحوا كل ما سبقهم من شوائب المنهج العقلي ليعلوا من شأن المنهج التجريبي (المنهج العقلي كما عند أرسطو كان يمكنه الحكم على بعض الأشياء بمجرد الاجتهاد العقلي دون فحص أو تجربة، مثل قوله بأن أسنان الرجل أكثر من أسنان المرأة!)، يكفي أن الفلكي البولندي يوحنا هيفل Johannes Hevelius عندما نشر كتابه الشهير Selenographia عام ١٦٤٧م رمز على غلافه لظهور الطريقة العلمية التجريبية في العصور الوسطى برسمة تمثل على اليسار الحسن بن الهيثم Alhazen وهو ممسك برسم هندسي ممثلاً للشق العقلي الرياضياتي Rationality وعلى اليمين جاليليو جاليلي Galileo Galilei وهو ممسك بتليسكوب ممثلاً للشق الحسي- Sensation، وعلى هذا انتشرت كتب علماء الإسلام في أوروبا وقامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة بما فيها قوانين نيوتن نفسه في الحركة والجاذبية في أوائل القرن ١٨ والتي سبقه في توصيفها بقرون علماء مسلمون مثل الهمداني وأبي جعفر الخازن والبيروني وهبة الله بن ملكا البغدادي وابن سينا والرازي، لكن تميز نيوتن في صياغتها بأرقام وقيم محددة وقوانين، وهكذا نرى سبقاً للمسلمين خصوصاً في فترة القرون الوسطى وما تركوه من كتابات في كل المجالات العلمية تقريباً مثل الهندسة والطب والفلك والجغرافيا وعلم التعمية (أي التشفير) والصيدلة والأدوية والكيمياء والفيزياء والبصريات وعلم الحيل (أي الميكانيكا والتسيير الذاتي)، ويمكن مطالعة نبذة عن الكثير من ذلك خاصة في العصور الوسطى أو المظلمة في أوروبا من خلال موقع ألف واحد اختراع (وهو متوفر باللغتين العربية والإنجليزية ومطبوع كذلك) /http://1001inventions.com:

بالطبع أدركت جميع المجتمعات نماذج السبب والنتيجة في الطبيعة مما خولها بناء الأبنية والجسور. والاختلاف أنهم عدوا تلك النماذج مجرد قواعد عملية أساسية. فكان يُعتقد أنَّ النظام الداخلي للطبيعة نفسه غامضٌ بالنسبة للعقل البشري. وعندما لا يفكر الناس في **وجود** قوانين منطقية تقف خلف الظواهر الطبيعية فلن يبحثوا عنها، ولن تبدأ المسيرة العلمية أبدًا.

وتصف الفيلسوفة ماري ميدجلي Mary Midgley المسيحية بأنَّها «الرؤية الكونية الخاصة» للعلم. وكتبت: «لا يمتلك العلم رؤيته الكونية الخاصة التي تتضمن توجيه الافتراضات عن طبيعة العالم. ولقد عبَّر مؤسسو العلم الحديث عن هذا بوضوح في زمانهم. وقالوا إنَّ النظام الكوني يأتي كله من الله، لذلك يعزز العلم من جلال الله»[١٠].

وطرح بول ديفيز Paul Davies النقطة ذاتها لكن بقوة أكبر حين كتب: «كان جميع العلماء الأوائل – مثل نيوتن – متدينين بطريقة أو بأخرى. لقد رأوا علمهم كأداة لكشف أثر صنع الله في الكون». وما ندعوها الآن قوانين الطبيعة عدوها أفكارًا في عقل الله[١]. «لذلك فهم يفترضون أنَّه بمزاولة أحدهم للعلم قد يكون قادرًا على لمح عقل الله؛ إنَّه ادعاء مبهج وجريء».

ربما كان ادعاءً جريئًا، لكنَّه ادعاء يبقى دعامةً مركزية لصحة المشروع العلمي حتى يومنا هذا. ما يزال على العلم افتراض أنَّ العالَم يحكمه نظامٌ واضح. لكن لا يمكن للرؤية الكونية المادية أو الطبيعية تفسير ذلك النظام. إذا كان الكون نتاج عمليات غير عقلانية، فلِمَاذا يملك نظامًا عقلانيًّا؟ إذا لم يكن الكون نتاج عقل، فلِمَاذا يكون مفهومًا للعقل البشري؟ كتب بول ديفيز أنَّه من بين معظم علماء اليوم فإنَّ «النظام الأساسي في الطبيعة (قوانين الفيزياء) مقبولة ببساطة كما هي، كحقائق أولية مسيطرة. فلا يستفسر أحد من أين أتت؛ أو على الأقل لا يستفسرون عن ذلك مع جلساء محترمين. فحتى أكثر العلماء إلحادًا يقبل كشيء من أفعال الإيمان أنَّ ... هنالك أساسًا عقلانيًّا للوجود المادي يظهر في نظام يشبه القوانين في الطبيعة».

هل يحتاج العلم «فعل الإيمان»؟ ما هو ذلك «الإيمان» الذي يقوم عليه؟ يخط بول ديفيز استنتاجه المذهل: «إذًا لا يمكن للعلم المضي إلا إذا تبنى العالم رؤية كونية دينية أساسًا»[١١].

---

(١) يستخدم بعض المسيحيين مصطلح (عقل الله) بصورة تقابل (علم الله) عندنا في الإسلام، إذ لا يوصف الله في الإسلام بالعقل والمعرفة وإنما بالعلم والإحاطة والتقدير. (المترجم)

بالمختصر على كل ملحد تبني رؤية كونية دينية ليتابع ممارسته للعلم مهما يكن[١١]. يجب على المؤمنين أن يستردوا بثقة مبادئ الدين التي تجعل العلم ممكنًا في المقام الأول، وأن يستمروا في ذلك ليزودوا العلم بدعاماته الفلسفية اليوم.

• ملحدٌ ينتقص من مذهب الإنسانية

يمكننا لتعقب حالات إضافية من التطفل الإنصات لنقاش الملحدين الخاص. فمثلاً يوبخ جون جراي John Gray بانتظام زملاءه الملحدين والماديين لعادتهم بالتطفل. هو يشير منطقيًا إلى أنَّ المادية تؤدي إلى الاختزالية، إلى الخلاصة بأنَّ البشر مجرد حيوانات. وكتب جون جراي لكن لا يرغب معظم الماديين بقبول تلك الخلاصة الكئيبة. فيرغبون أن يمنحوا الإنسانية كرامة ومنزلةً أرقى؛ ويرغبون بالتصديق بأنَّ البشر لديهم «وعيٌ وشخصية ذاتية وإرادة حرة». تلك نظرة سامية عن الإنسانية يصنفها بـ **المذهب الإنساني**؛ ويتهمها بكونها مثالاً أساسيًّا على التطفل.

ويشتكي جون جراي بقوله: «لا يدخر أتباع المذهب الإنساني جُهدًا بالتبشير» بإنجيل الحرية الإنسانية. لكن «أظهر لنا داروين أنَّنا حيوانات»! ولذلك فإنَّ «فكرة حرية الإرادة لم تأتِ من العلم.» إنما «تعود بدايتها للدين، وليس لأي دين، تعود للإيمان المسيحي الذي يدينه الإنسانيون بشدة». وهكذا فإنَّ الإنسانية مجرد نسخة علمانية للمبادئ المسيحية[١٢].

يمكننا القول إن الإنسانيين لا يرغبون في العيش ضمن حدود صندوقهم المادي. ولذلك فيُهربون سلالم من الرؤية الكونية الدينية للخروج من الصندوق.

• توماس ناغل: « يكاد يكون داروين مخطئًا قطعاً »

دعنا الآن ننصت للجانب الآخر من النقاش، إلى الأشخاص الذين يدعوهم جون جراي الإنسانيين، إلى الذين لا يرغبون بقبول النتائج اللاإنسانية للاختزالية. توماس ناغل مؤلف كتاب **العقل والكون** *Mind and cosmos*، والذي يحمل العنوان الثانوي **لِمَاذا المفهوم المادي للداروينية الحديثة عن الطبيعة يكاد يكون خاطئًا بالتأكيد** *Why the Materialist NeoDarwinian conception of Nature Is Almost Certainly False*. حيث

ناقش أنَّ النظرية الداروينية «تكاد تكون خاطئةً قطعًا» وذلك بالضبط لأنَّها تؤدي إلى الاختزالية. وتفشل النظريات الاختزالية في تفسير ما نعرفه عن العالم.

خذ حاسبة الجيب المتواضعة. اضغط فيها على ٥+٣ سيظهر لك الرقم «٨» على الشاشة. ربما يمكن شرح نمط بكسلات الرقم ٨ من ناحية مادية صرفة، بتدفق الإلكترونات عبر بوابات الرقاقات الإلكترونية الميكروية. لكن يناقش ناغل أنَّه لا يوجد تفسير اختزالي عن كيفية برمجة الحاسبة لإنتاج الرقم «٨» في الأساس. يتطلب **ذلك** «نية المصمم».

إنَّ ناغل ملحد، لذلك لم يُلَمح لوجود مصممٍ إلهي. هو يناقش أنَّه لا يمكن للنظرية الداروينية تفسير حتى التصميمات البشرية، حيث ذكر: «هنالك شيء إضافي آخر ضروريٌّ لشرح سبب وجود كائنات مفكرة واعية»[١٤]. يظهر البشر اختلافًا في النوع، وليس فقط في الدرجة.

وهنالك شيء آخر ضروريٌّ لشرح المعرفة الأخلاقية والعلمية. يناقش ناغل أنَّ المفهوم التطوري للعقل يقتل «ثقتنا في الحقيقة الموضوعية لمعتقداتنا الأخلاقية» إضافةً إلى قتل «الحقيقة الموضوعية لتفكيرنا الرياضي أو العلمي». (ولتتذكر لمَ تقتل نظرية المعرفة التطورية المعرفة البشرية فارجع إلى المبدأ الرابع). لكن ناغل يقول بأنَّنا لا نستطيع التخلي عن معرفتنا في هذه المجالات. لمَ لا؟ لأنَّ تلك المعرفة «قائمة نهائيًّا على المنطق العام، وعلى ما لا يمكن إنكاره بوضوح»[١٥].

هل لاحظت العبارات الواضحة التي تشير إلى الوحي العام؟ إذ تناقض الداروينية الجديدة «ما يقوم على المنطق العام» و«ما لا يمكن نكرانه بوضوح».

وقع ناغل في فخ التنافر المعرفي. فمن ناحية لا يرغب في قبول مفهوم الاختزالية، الذي ينتقده كنصرٍ للنظرية الدينية على المنطق العام». ويمدح نقاد الداروينية، بمن فيهم مُنظرو التصميم الذكي، وهو تصرفٌ هوجم بسببه بشدة[١٦].

حتى إنَّ ناغل أثنى على قدرة الرؤية الكونية الإيمانية على حل مشكلاته، لأنَّ وجود الله قد يفسر الأشياء التي لم تستطع الداروينية تفسيرها، مثل العقل والأخلاق. وذلك بغض النظر عن رفضه

الجواب الإيماني. لماذا؟ السبب ليس عقليًّا بقدر ما هو عاطفي، حيث ذكر: «أرغب أن يكون الإلحاد صحيحًا... أنا لا أرغب في وجود إله؛ أنا لا أرغب أن يكون الكون كذلك.» وقد اعترف أنَّ دافعه الخفي هو «الخوف من الدين نفسه» أن يكون متجذرًا للنهاية في «مشكلة السلطة الكونية»[١٧].

لكن برفض ناغل لله، على ماذا حصد كبديل؟ لا شيء على الإطلاق. فذكر: «هدفي هو تقديم المشكلة وليس تقديم الحل»[١٨].

يُعد ناغل مثالاً على شخص منفتح البصيرة، لملحد يحاول بيأس الحفاظ على كلا الجانبين من التنافر المعرفي الشديد. فمن ناحية يحافظ على إلحاده. ومن ناحية أخرى يرفض الاستسلام للحقائق «غير القابلة للإنكار» عن «المنطق العام» الذي لا يمكن أن يفسره إلا الإيمان.

يحاول ناغل الاحتفاظ **بمعتقدات** الرؤية الكونية الدينية، في الوقت الذي يرفض فيه أسسها الدينية. إنه يقوم بالتطفل.

• مشكلة «الملحد الفخور»

يعاني متبع آخر للإنسانية من تنافر إدراكيٍّ شديد، ألا وهو ريموند تاليس Raymond Tallis، وهو طبيب بشري ومؤلف كتاب **تقريد البشرية** Aping Mankind. يفتخر ريموند تاليس أنَّه «ملحد فخور» وتطوري. وفي الوقت ذاته يناقش أنَّ هنالك «أمرًا أكثر أهمية عن البشر تُرك دون أن تفسره النظرية التطورية.» في الحقيقة لقد أدرج قائمة بعدد من الأمور الهامة التي تركت دون تفسير:

- «ألا يوجد مشكلة في تفسير كيف قامت القوى العمياء للفيزياء بإنشاء (بطريقة إدراكية) بشرٍ مبصرين قادرين على الرؤية والتمييز والتعليق على القوى 'العمياء' للفيزياء؟» كيف خلقت قوى الفيزياء كائنات أسمى من تلك القوى؟
- ألا توجد مشكلة في توضيح كيف خلقت القوى الطبيعية بشرًا قادرين على الالتفات واستخدام هذه القوى «للانخراط في الطبيعة كما لو أنهم من خارجها»؟ لم البشر قادرون على الرقي فوق القوى التي يفترض أنها خلقتهم؟ هل يمكن لدمية السيطرة على محركها؟
- ألا توجد مشكلة في توضيح كيف أنَّ الكون «جلبنا للوجود عبر عمليات لا عقلية ليس لها أي هدف على الإطلاق»؟ كيف أمكن لعملية لا عقلانية إنشاء كائنات ذوات عقول؟ كيف أمكن لعملية عشوائية بلا غاية، إنشاء كائنات لها غايات؟

○ ألا توجد مشكلة في تفسير كيف لعملية غير مصممة إنتاج «نوع حيوي هو في الواقع مُصمِّمٌ؟ **كيف أصبحنا – نحن البشر – مختلفين؟**» كيف أمكن للبشر أن يكونوا «مختلفين للغاية» عن القوى التي من المفترض أنها أنتجتهم؟ كيف يمكن أن يعلو الماء على مصدره؟[١٩].

يمكن للاختزالي حل المعضلة ببساطة بأنْ يؤمن أن البشر ليسوا مختلفين في نهاية المطاف؛ كل ما يبدو أنَّه اختلافات في النوع هو في الواقع مجرد اختلافات في الدرجة. لكن ريموند تاليس رفض الاختزالية. في الحقيقة لديه قلقٌ عاطفي من اكتساب شكلٍ من الاختزالية العصبية الحيوية الصدارةَ في كل مجال عمليًا.

في الفنون نرى ادعاءات علم الجماليات العصبي التي تجذبنا للقطعة الفنية لأنَّ بعض الأنماط البصرية تحفز مراكز المكافأة في الدماغ. وفي الأدب يحاول نُقَّاد علم الأعصاب الأدبي شرح سبب حُبنا للأدب من خلال مسح أدمغة الناس عندما يقرؤون لشكسبير. وفي النظرية القانونية يبحث علم الحقوق العصبي لإثبات الإدانة أو البراءة باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي (MRI). وفي الفلسفة يدعي علماء الأخلاق العصبية أنَّ «السياسات والممارسات والمعايير الأخلاقية مستقرة في علم الأعصاب الحيوي لدينا.» ويستخدم علم الاقتصاد العصبي طرق التصوير الدماغي لتحديد كيف تستجيب أدمغة العملاء للمنتجات والعلامات التجارية[٢٠]. ويأمل علم السياسة العصبي استخدام علم الدماغ لإرشاد الناس في اتخاذ القرارات السياسية. ويستخدم علم الدين العصبي التصوير بالرنين المغناطيسي لإيجاد «بقعة الإيمان بالله» من الدماغ الذي يفترض أنه يقود الناس للإيمان بفكرة الله والمرور بالتجارب الروحانية.

يشتكي ريموند تاليس من أنَّ هذه النظريات العصبية أقرب للابتداع منها للواقعية. مركزًا على محاولة شرح الدين من خلال علم الأعصاب الحيوي: «ما هو نوع النبضات العصبية القادر على تجاوز حالتها العابرة الموضعية المحدودة لفهم شيءٍ لا نهائي وأبديٍّ وموجود في كل مكان؟» حتى إنَّ ريموند تاليس يدعو المؤمنين للوصول إلى «كلمة سواء» مع الملحدين من أمثاله ضد «العدو المشترك» في «الاختزالية التطورية العصبية».

لكن رغم أنَّ ريموند تاليس يبحث عن حلفاء من المؤمنين إلا أنَّه يرفض الدين نفسه. إذًا ما هو السؤال الذي يفترضه للاختزالية التي يعارضها عاطفيًّا؟ لا، أبدًا. «الحقيقة أنَّني لا أعلم»[٢١].

ما الذي تعلمناه من خلال إنصاتنا لكلام الملحدين؟ أولاً: يدرك كثير منهم محدودية وفشل رؤيتهم الكونية. في الحقيقة يمكن إيجاد حالة دامغة ضد الإلحاد **باستخدام حججهم وكلماتهم هم أنفسهم**. ثانيًا: يجد كثير من الملحدين عناصر من الرؤى الكونية الدينية جذابة للغاية لدرجة أنهم يستمرون في استعارتها. إنَّهم متطفلون.

عندما ندرك الكم الكبير للتطفل يزداد تقديرنا لمدى جاذبية الرؤية الكونية للدين. وإلا فلمَ يحاول الجميع كسب الأجزاء التي يحبونها أكثر؟

• أعطني تلك الفلسفة القديمة

ربما أكثر الأمثلة شناعة حول التطفل، هو حركة اختطاف الأبعاد الدينية بوضوح. فمثلاً يوجد مجال جديد يستخدم الفلسفة لمعالجة المشكلات النفسية. يسمى الاستشارة الفلسفية، وهو مرغوبٌ كبديل عن العناية التي يقدمها المعالجون والكهنة والقساوسة.

يرغب بعض الملحدين في الراحة النفسية التي يوفرها الدين، في حين أنهم يرفضون مضمونها.

ومن الكتب التي تحدثت في هذا الموضوع كتاب عنوانه **أفلاطون وليس بروزاك**[1]! *Plato, Not Prozac!* الذي حظي بنجاح عالمي. يمكن حتى أن يُصرح لك أن تكون مرشدًا فلسفيًّا. ذكر مقال في صحيفة **واشنطن بوست** *Washington Post* أنَّ المرشدين «مثل مدربي الحياة الثقافية. هم مثقفون للغاية. لديهم معرفة معمقة بالنظريات الوجودية لجان بول سارتر حول طبيعة الحياة، ويمكن أن يتلوا مقاطع من استكشافات الظواهر لمارتن هايدغر حول سؤال الوجود. وهم يستخدمونها لمساعدة العملاء على تجاوز قضاياهم الأساسية»[٢٢].

ربما تكون الاستشارة الفلسفية مجالاً جديدًا، لكنَّ مفهومها ليس أصيلاً. فلم تكن الفلسفات أبدًا مجرد مشاريع أكاديمية. لقد بدأت باستبدال الله، وطورت رؤية كونية كاملة، تحث الناس على فهم الحياة والتحضر للموت. والاختلاف هو سعي بضعة ملحدين اليوم بجد لـ «اختطاف الروح الدينية» كما ذكر تيري إيغلتون .Terry Eagleton[٣] هم يدَّعون قدرة العلمانية على تغذية الروح.

---

(١) بروزاك هو دواء شهير مضاد للاكتئاب. (المترجم)

شخّص لوك فيري عددًا من «الأديان البديلة» في كتابه **تاريخٌ مختصر للفكر** *A Brief History of Thought*. عرض فيه للعلمانيين كثيرًا من العقائد الإلحادية عن الروح، ومما جاء فيه: «إن أمكن تعريف الأديان على أنَّها 'مذاهب للخلاص' فيمكن للفلسفات الكبرى أيضًا أن تُعرف كمذاهب للخلاص (لكن دون مساعدة الله)»[٢١].

ومن الأمثلة على ذلك هو كتاب **الفلسفة كطريقة للحياة** *Philosophy as a Way of Life* لبيير أدوت Pierre Hadot. يقول بيير إنَّ قبول فلسفة ما، أشبه بالتحول الديني: فهي تتضمن «تحولاً كاملاً لرؤية الشخص ولنمط حياته وسلوكه.» وهي «تقلب حياتنا رأسًا على عقب»[٢٢]. ستراهن حرفيًّا بحياتك (وخلودك أيضًا) على صحة مجموعة من الأفكار.

في العالم القديم في وقت لم تنضج الفلسفة فيه بعد، كانت قوتها المغيرة للحياة واضحة على نطاق واسع. لم يكن الفيلسوف مجرد خبيرٍ في مجالٍ أكاديمي، إنما كان له احترامه كـ «مرشد روحي» حسب قول بيير. «لقد كان يحض على التحول، ثم يوجه المتحولين الجدد عن طريقه... لسبل الحكمة»[٢٦]. يسعى بيير إلى إعادة ذلك الدور الروحي للفلسفة العلمانية.

وكذلك كان الفيلسوف آلان دو بوتون Alain de Botton مؤلف كتاب **دين الملحدين** *Religion for Atheists*. إنَّ آلان دو بوتون هو مؤسس مدرسة في لندن يدرس فيها الطلاب الفلسفة لا لكسب درجة أكاديمية، إنما لتأمل «أهم الأسئلة عن الروح». إن إحدى المواد تحت عنوان ملء **الفراغ المخصص لله** Filling the God-Shaped Hole تساعد الناسَ على ملء الفراغ في حياتهم عندما يتركون الأديان التقليدية[٢٧].

الأمر المشترك في كل هذه الأمثلة أنَّهم جميعًا يحاولون ملء الفراغ المخصص لله بشيء غير الله. يُظهر أحد الكتب الادعاء بصراحة في عنوانه: **الكتاب الصغير لروحانية الملحد** *The Little Book of Atheist Spirituality*.[٢٨] حتى إنَّ الملحدين أسسوا كنائسهم الخاصة. ولقد أُسست بالفعل في بريطانيا أولى كنائس الملحدين. وطبقًا للتقارير: «تظهر عشرات التجمعات المسماة 'كنائس الإلحاد الكبرى'... حول الولايات المتحدة الأمريكية»[٢٩].

يقوم الملحدون بتطفلٍ على مراسم العبادة الدينية. هم يرغبون بطقوس دينية، في حين يرفضون حقيقتها.

• كتلة لتشارلز داروين

لا يدرك جميع الملحدين مقدار ما يسرقون من الدين. النموذج الأكثر شيوعًا هو الادعاء بأنَّ الإلحاد يلتزم بقوة بالحقائق والعلم فقط.

لكن حتى الالتزام بالعلم يمكن أن يعمل كصنم، كالتزامٍ مطلق. عندما يُعامل العلم كمصدر وحيد للحقيقة يصبح مذهبًا علميًّا. يعبر الفيلسوف ولفريد سيلارز Wilfrid Sellars عن الالتزام بالمذهب العلمي عندما قال: «العلم مقياس لجميع الأمور». وكشف ذلك بيرتراند راسل Bertrand Russell في ملاحظته: «ما لا يمكن للعلم اكتشافه لا يمكن للبشرية معرفته»[٣٠].

يقول الافتراض إنَّ كل ما لا يمكن معرفته بالعلم – مهما يكن – فهو غير صحيح. لكن خذ مثلاً: هل تلك العبارة نفسها حقيقة اكتشفها العلم؟ من الواضح أن الإجابة هي: لا. هذا افتراضٌ يتخطى أي شيء يمكن للعلم تأسيسه، إنه افتراض غيبي، تعريفٌ اعتباطي لما يمكن عده معرفة أصيلة.

يبقى المذهب العلمي أحد أكثر الأصنام شعبية اليوم. وأي ادعاء يبدأ بـ «يَعلم العلماء الآن» من المرجح أن يعلو على كل الادعاءات المنافسة. وكما كتب جون جراي: «لا يُمكنُنا العلم من الاستغناء عن الأساطير. وبدلاً من ذلك أصبح عربة لها؛ رئيسًا عليها، أسطورة الخلاص عن طريق العلم. كثيرون ممن يسخرون من الدين واثقون بدرجة عالية أنَّه باستخدام العلم يمكن للبشرية أن تزحف تجاه عالم أفضل»[٣١].

حتى ظهر أنَّ للالتزام بالعلم تأثيراتٍ نفسية مشابهة لتلك التي للالتزام الديني. ذكرت مجلة الـ **نيو ساينتيست (العالِم الجديد)** *New Scientist* دراسة أظهرت أنَّه تحت الضغط يستجيب الملحدون بالتزام شديد لـ «معتقد العلم.» خلص المقال إلى أنَّه: «من المعروف جيدًا أنَّ الإيمان الديني يمكن أن يساعد المؤمنين على تحمل الضغوطات والتوتر، وذلك عبر تزويدهم بشعور المعنى والسيطرة في أوقات القلق. يبدو الآن أنَّ هنالك 'معتقدًا' في العلم، ووجهة نظر عقلانية ربما تقوم بالأمر نفسه بالنسبة للادينيين»[٣٢].

حتى إنَّ نظرية التطور – والتي غالبًا ما يُستشهد بها كداعم للإلحاد – يمكن أن تعمل كدينٍ بديل. ففي مقدمة كتاب داروين **أصل الأنواع** من عام ١٩٦٥ لاحظ وليام ثومبسون W. R. Thompson أنَّه بالنسبة لكثير من علماء الأحياء فإنَّ مفهوم التطور العضوي هو «تجسيدٌ للولاء الديني الأصيل، وذلك أنهم يعدونه مبدَأ تكامليًّا ساميًا»[٣٣].

ومؤخرًا صدم مايكل روس Michael Ruse زملاءه الملحدين بالإشارة إلى أنَّ التطور يعمل في كثير من الأحيان كدين، فذكر: «يُعلن عن التطور كعقيدة، دينٍ للعلمانيين، بديلٍ تام عن المسيحية، بديلٍ يحمل معنًى وأخلاقًا»[٣٤].

وقد نضيف مع العبادة: أنه تم تأليف موسيقى قداس منذ بضع سنوات تحت عنوان «**قداس تشارلز داروين**» *Missa Charles Darwin* (يُقصد بكلمة Missa هنا mass أي قداس). تقوم القطعة الموسيقية على بنية القداس التقليدي ذات الخمسة الانتقالات، تبدو أشبه كثيرًا بموسيقى كنيسة عصر النهضة، لكن مع استبدال مقتطفات من كتابات داروين بنصوص الكتاب المقدس، منها كتاب **أصل الأنواع**، وكتاب **تطور الإنسان Descent of Man**[٣٥].

• دين التطور

لا تُعد الداروينية النسخة الوحيدة المتوافرة عن التطور. إلا أنَّ معظم النظريات البديلة دينية بصورة أكثر ظهورًا. اشتهر عالم الأحياء ستيوارت كوفمن Stuart Kauffman بنظريته عن التنظيم الذاتي، لكنه لا يعتبرها مجرد نظرية علمية أخرى: هي «رؤية كونية جديدة» مع «رؤية جديدة لله، ليس باعتباره ساميًا، ولا فاعلاً، إنما باعتباره إبداع الكون نفسه.» بكلمات أخرى يعامل ستيوارت كوفمن اللهَ ككلمة للتدفق اللامتناهي للكون. وقد قال: إنه «إله كافٍ بالنسبة لي».

لِمَاذا يحتفظ بكلمة الله أساسًا – والتي تعني شخصًا ساميًا عطوفًا ذكيًّا[(١)] – عندما تتضمن نظريتك عملية عَرَضية وخالية من الذكاء والعطف؟ وما ذلك بالضبط إلا تهريب للقوى العاطفية المرتبطة بهذا المصطلح. وقد صرَّح كوفمان عن نواياه بقوله: «ماذا نكسب باستخدام كلمة الله؟ أنا أتوقع مكسبًا عظيمًا، فهذه الكلمة تحمل الرهبة والوقار. إذا أمكننا نقل تلك الرهبة والوقار، لا للإله

---

(١) لا نصف الله تعالى في الإسلام بما لم يصف به نفسه وخاصة في الأسماء، فلا نسميه أو نصفه بالذكاء ولكن بالحكمة والتقدير. (المترجم)

الإبراهيمي السامي في قبيلتي الإبراهيمية منذ زمنٍ طويل، إنما للواقع المُذهل الذي يصادفنا، فسنأذن بروحانيةٍ متجددة ووقارٍ ورهبة ومسؤولية لكل ما هو حي، لهذا الكوكب»[٣٦].

بالمختصر يأمل كوفمان أن يلهم الناس استجابةً عاطفية لكونٍ مادي صرف **كما لو** أنَّ هذا الكون هو الله الشخصي في الدين. إنه مجرد متطفل[٣٧].

وأخيرًا، تجد عالم الاقتصاد والمستقبليات Futurist جيريمي ريفكين Jeremy Rifkin يروج لنسخة شبه حلولية quasi-pantheistic عن التطور. لقد تصور التطور كعملية يتطور فيها «عقل» جوهري صاعدًا على سلالم الحياة، على السلسلة العظيمة للوجود: «لم يعد يظهر التطور كأمر لا عقلي، بل العكس تمامًا. إنَّه عقلٌ يتسع مجاله بتقدم سلسلة الأنواع.» وبهذه الكلمات نسمع صدى مفهوم هيغل عن العقل المطلق الذي يتطور صعودًا عبر التاريخ. وتابع جيريمي ريفكين: «تلمع في النهاية فكرة عن الكون بأنَّه عقلٌ يشرف وينظم ويعطي الأوامر والتركيب لكل الأشياء».

ما هي تداعيات هذا النموذج الوجودي؟ من الواضح جدًّا أنه ينفي وجود إلهٍ أعلى، والذي عده جيريمي ريفكين أمرًا جيدًا. فهذا النموذج يعني «أنَّنا لم نعد نشعر بأنفسنا أننا ضيوف في منزل شخص آخر». لذلك لم نعد نشعر «أننا مجبرون على جعل تصرفنا يتوافق مع مجموعة من القواعد الكونية السابقة للوجود». إنما نحن أحرارٌ في وضع قواعدنا الخاصة:

إنَّه الآن خلقنا، نحن من يضع القواعد، نحن من يؤسس مقاييس الواقع. نحن من يخلق العالم، لأننا نفعل، لأنَّنا لم نعد نشعر أننا ممتنون لقوىً خارجية. لم نعد مجبرين على تبرير تصرفاتنا، فنحن الآن مصممو الكون.

نحن من يخلق العالم؟ نحن مصممو الكون؟ من الواضح أنَّ جيريمي ريفكين يقول إنَّه إذا لم يكن هنالك إلهٌ سامٍ فالبشر سيأخذون مكانه حينئذ. أصبح البشر آلهة صغيرة. ينهي جيريمي ريفكين كلامه بترتيلة للإنسانية المتطورة: «نحن لسنا مسؤولين عن شيء خارج أنفسنا، فنحن المملكة، ونحن القوة، ونحن المجد إلى الأبد وأبدًا»[٣٨].

إذا لم تكن هذه نسخة دينية عن التطور، فأنا لا أعلم ماذا يمكن أن تكون.

يخلق التعرف على الطبيعة الدينية للرؤى الكونية العلمانية ساحة لعبٍ مستوية. تقوض ذرائع العلمانية عن الحياد الديني، والتي يستخدمونها لادعاء الفوقية على الدين. هم يدعون أنهم موضوعيون ويستندون إلى الحقائق، بينما يكذبون الأديان باتهامها بأنها متحيزة و«مستندة على الإيمان». لكن ليس هنالك من رؤية كونية محايدة، ولا حتى الإلحاد أو العلمانية.

ربما يدعي العلمانيون في علاقتهم مع الله الديني أنَّهم شكوكيون. لكن تراهم في علاقتهم مع بدائلهم الإلهية الخاصة مؤمنين صادقين. وبتبني ملاحظة كليف ستيبلز لويس فإنَّ شكوكيتهم خارجية فقط. لا تستخدم إلا على معتقدات **الآخرين**. هم ليسوا شكوكيين تقريبًا بما فيه الكفاية «حول معتقداتهم **الخاصة**»[٣٩].

ما يقود المتغيرات الدينية للتطور هو شعور بأنَّه لا بد أن يوجد في الواقع شيء أكثر من مجرد النسخة المسطحة ذات البعد الواحد التي تقدمها المادية. لكن يصل التطوريون لأبعادٍ أعلى من ذلك البعد بغرض الإجابة على اندفاع الإنسان لمعنىً أعظم عن الحياة. تلك الاندفاعات هي تعبير إضافي عن الوحي العام. هي إشاراتٌ إلى الله الموجود في الدين.

***

ملاحظات

القسم الأول

1. كتب ديفيد كينامان David Kinnaman: "التغيرات الروحية والتقنية التي حدثت في الخمسين سنة الماضية جعلت مشكلة الانسلاخ من الدين أخطر؛ فالشباب ينخلعون من الدين في سن مبكر أكثر، ويظلون كذلك لفترة أطول، ولو حدث وعادوا إلى الدين مرة أخرى فقليلاً ما يعتبرون الكنيسة جزءًا هامًّا على المدى الطويل في خطة حياتهم. من مقال Five Myths about Young Adult Church Dropouts في نوفمبر 2011 على موقع Barna.org.

2. من فصل "The Return of the Will" في كتاب Edwards in Our Time: Jonathan Edwards and the Shaping of American Religion لآلين سي. غويلزو Allen C. Guelzo.

3. انظر كتاب الحجة الغائية: استكشاف الضبط الدقيق للكون The Teleological Argument: An Exploration of the Fine-Tuning of the Universe لروبين كولنز Robin Collins.

4. من مقال Zillions of Universes? Or Did Ours Get Lucky? المنشور في نيويورك تايمز عدد 28 أكتوبر 2003 لدينيس أوفرباي Dennis Overbye. ردًّا على المقتضيات والتوابع الفكرية للضبط الدقيق للكون يرى بعض علماء الكونيات نن هناك أكوانًا عديدة بجانب كوننا (فرضية العوالم المتعددة Many Worlds hypothesis). وأغلب هذه الأكوان مظلمة وخالية من الحياة، إلا أن بعضها قد يُحتمل أن يحمل الظروف الدقيقة المناسبة للحياة، وقد تصادف أن كوننا واحد من تلك الأكوان المناسبة. إن هذا محض تخبط بالطبع لأنه من المستحيل معرفة ما إذا كانت هناك أكوان أخرى أم لا. "إن نظرية الأكوان المتعددة تتطلب تسليمًا لا يقل عن التسليم

اللازم للإيمان بأي دين. عليك أن تنضم للكنيسة التي تؤمن بوجود أشياء غير مرئية تحمل 50 مليار مجرة!" كما يقول غريغ إيستربروك Gregg Easterbrook. إن السبب الوحيد لطرح فكرة عسيرة على التصديق كهذه هو جعل كوننا يبدو على درجة أقل بكثير من عدم الاحتمالية الهائلة. من مقال The New Convergence غريغ إيستربروك في مجلة Wired عدد ديسمبر 2002.

5. من The Symbiotic Universe: Life and Mind in the Cosmos لجورج غرينستاين ص 85-90. وكذلك مقال A Brief History of the Multiverse لبول ديفيز المنشور في نيويورك تايمز بتاريخ 12 أبريل 2003. في كتاب God and the New Physics يكتب ديفيز: "إن التوافق المُعجِز للقيم الرقمية" للثوابت الكونية "هو أقوى دليل قاطع على تصميم الكون." لقراءة المزيد عن الضبط الدقيق يمكن مراجعة كتاب الكوكب المميز The Privileged Planet: How Our Place in the Cosmos Is Designed for Discovery لغويليرمو غونزاليز Guillermo Gonzalez وجاي ريتشاردز Jay Richards، وكذلك كتابي الحقيقة الكاملة To-tal Truth: Liberating Christianity from Its Cultural Captivity ص 188-191.

6. The Secret of Life Won't Be Cooked Up in a Chemis-try Lab لبول ديفيز في الجارديان بتاريخ 13 يناير 2013. وقبل ذلك كتب ديفيز: "محاولة خلق الحياة عن طريق خلط الكيماويات في أنبوب اختبار هي أشبه بلحام الأزرار والأسلاك في محاولة لصنع ويندوز 98: ستفشل لأنها تتعامل مع القضية في مستوى مفاهيمي خطأ." وذلك في مقال How We Could Create Life: The Key to Existence Will Be Found Not in Primordial Sludge, but in the Nanotechnology of the Living Cell في الجارديان في 11 ديسمبر 2002.

7. انظر كتاب ستيفن ماير Stephen C. Meyer توقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design.

8 On the Nature of the Gods لشيشرون، و The Tusculan Dis-putations بترجمة سي. دي. يونغ Yonge.

9. راجع معالجتي للقضية في كتاب The Soul of Science بالاشتراك مع تشارلز ثاكستون Charles Thaxton وخصوصًا الفصل العاشر، وكذلك كتابي الحقيقة الكاملة Total Truth وخصوصًا الفصلين 5 و6 وكذلك How Now Shall We Live? مشتركةً فيه مع تشاك كولسون Chuck Colson وهارولد فيكيت Harold Fickett الفصول من 6 إلى 10. ولقراءة المزيد عن مقتضيات الفكر الداروينى في الفلسفة والثقافة انظر كتاب الحقيقة الكاملة Total Truth الفصلين 7 و8 وكذلك Saving Leonardo الفصلين 3 و6.

10. بالدين اليهودي المسيحي "طُرحَت طريقة تفكير جديدة في ساحة العالم الغربي"؛ فإله هذا الدين "يختلف تمامًا عن الآلهة الموجودة في الفلسفات القديمة: إنه إله له ذات شخصية وليس مبدًا مطلقًا." من كتاب سي. إتش. بيرلمان C.H. Perlman بعنوان A Historical Introduction to Philosophical Thinking بترجمة كينيث براون Kenneth Brown ص 97-96. "بالنسبة للفكر الإغريقي الشرقي كانت الحقيقة المطلقة هي قوة بدائية غير ذاتية، سواءً أكانت باطنية أم فلسفية ... إنها مادة إلهية ما، راسخة، جامدة، عَصيّة على الوصف، تتخلل الكون، أو بالأحرى هي نفسها الكون." على النقيض نظرة الدين ترى "أن الله ليس مبدأ ميتافيزيقيًّا ولا قوة غير ذي ذات شخصية... إن الدين العبري يؤكد فكرة الله الذي هو ذات بائنة علوية." من كتاب Judaism and Modern Man: An Interpretation of Jew-ish Religion لويل هيربرغ Will Herberg.

11. God and Philosophy لإتيان جيلسون ص 20-19 و37 و42.

12. Religion Is Natural لبول بلوم مجلة Developmental Science 10 رقم 1 عام 2007 ص 151-147.

13. مذكور في مقال Children Are Born Believers in God, Academic Claims لمارتن بيكفورد Martin Beckford في جريدة تيلغراف عدد 24 نوفمبر 2008.

14. من Miracles لسي. إس. لويس ص 150.

15. في ثلاثينيات القرن الماضي بدأ تخصص جديد اسمه علم اجتماع المعرفة يبحث في أسباب عدم تحقيق العلماء لقيمة الحياد المثالية، وأسباب تأثرهم (في أغلب الأحيان بلا وعي) بافتراضاتهم وتوقعاتهم المسبقة. تأسس هذا المجال على يدي الفيلسوف ماكس شيلر Max Scheler وعالم الاجتماع Karl Mannheim.

16. انظر ص 24-23 من كتاب The First Step in Missions Training: How Our Neighbors Are Wrestling With God's General Revelation لتوماس ك. جونسون Thomas K. Johnson.

17. انظر كتاب Willful Blindness: Why We Ignore the Obvious at Our Peril لمارغريت هيفرنان Margret Heffernan.

18. كتاب جونسون السابق، ص 23.

19. مقال 'Idols of the Heart and 'Vanity Fair في Journal of Biblical Counseling لديفيد باولسون بتاريخ 16 أكتوبر 2009.

20. وكذلك في رسالة بولس إلى أهل كولوسي حذرهم من "الزِّنَى، النَّجَاسَةَ، الْهَوَى، الشَّهْوَةَ الرَّدِيَّةَ، الطَّمَعَ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ." (كولوسي 3: 5) مجددًا نرى أن الوثنية هي الخطيئة الكامنة وراء كل الخطايا الأخرى.

21. The Larger Catechism of Martin Luther ترجمة روبرت إتش. فيشر Robert H. Fisher ص 9.

22. مذكور في كتاب Religious Experience and the Modernist Novel لبيريكلس لويس Pericles Lewis ص 36. للمزيد عن النزعة إلى معاملة الفن كدين -وهو ما بدأ مع تيار الرومانسية Romanticism- يمكن قراءة Saving Leonardo الفصلين 7 و8.

23. Institutes of the Christian Religion لجون كالفن.

24. "في العالم القديم لم يكن هناك نظام بنكي كالذي لدينا اليوم ولا أموال ورقية. كان كل المال يُصنع من المعدن الذي يُسخَّن حتى يسيل ويُصَب في قوالب ويُترك ليبرد،

وعندما تبرد العملات يلزم أن يتم تنعيم الحواف غير المتساوية، وكانت العملات ناعمة نسبيًّا، وبالطبع كان الكثيرون يكشطون منها قدرًا كبيرًا. في قرن واحد صدر أكثر من ثمانين قانونًا في أثينا لمنع كشط العملات الجاري تداولها." تلك العملات التي كانت أقل من الوزن التام كانت توصف بـ debased. من Romans: God's Glory لدونالد جراي بارنهاوس Donald Gray Barnhouse ص 18.

25. استخدام بولس لمصطلح "أبدلوا" فيه تأثر بآية من العهد القديم: "صَنَعُوا عِجْلًا فِي حُورِيبَ، وَسَجَدُوا لِتِمْثَال مَسْبُوكٍ، وَأَبْدَلُوا بِمَجْدِهِمْ مِثَالَ ثَوْرٍ آكِلِ عُشْبٍ." (مزامير 106: 20-19). وهو تأثر يرجع إلى ما قبل ذلك، إلى سفر التكوين 1: 26، حيث أعطت مهمة الخلافة في الأرض للإنسان القوامة على باقي الخلائق. "لقد خلق الله البشر "للسيادة" على تلك المخلوقات، ولكن الوثنيين الضالين يركعون الآن بين يدي صور الحيوانات". Echoes of Scripture in the Letters of Paul لريتشارد بي. هايز Richard B. Hays ص 211.

26. The Moral Vision of the New Testament: A Contemporary Introduction to New Testament Ethics لريتشارد بي. هايز ص 387. تقول سارة رودين Sarah Ruden -وهي عالمة الحضارة اليونانية الرومانية- إن أكثر صورة يغلب على الظن أن بولس رآها في عصره للسلوك اللوطي هي اللواط بالغلمان، وفي أكثر الأحيان كان ذلك اعتداءً جنسيًّا من السادة على عبيدهم الذكور الصغار، إلا أن الغلمان الأحرار كانوا يتعرضون للاغتصاب كذلك. كان اليونانيون والرومانيون يمدحون الطرف الفاعل باعتباره فحلاً شديدًا، حتى لو كان عنيفًا، بينما كانوا يرون الطرف المفعول به (الضحية) ضعيفًا وقذرًا. لكن بولس تعامل مع الطرف الفاعل على أنه لا يقل إثمًا وانحطاطًا، بل في الحقيقة ذمّ اللواط باعتباره صورة من الظلم (كلمة "الإثم" في رومية 1: 18 كثيرًا ما تترجم "الظلم"). لما كان اللواط بالغلمان مقبولاً في الثقافة الرومانية، بل والجناة ممدوحين كذلك، "كان الجمهور الروماني المستمع لبولس ... سيتفاجأ بسماع أن العدل سوف يُطبق على اللواط من بين باقي الذنوب." من كتاب Paul Among the People: The Apostle Reinterpreted and Reimagined الفصل الثالث "No Closet? No Monsters? Paul and Homosexuality."

27. مذكور في Soul of Science ص 184-185

28. The Myth of Religious Neutrality: An Essay on the Hidden Role of Religious Belief in Theories ص 104.

29. ليست كل صور الاختزالية تمثل مشكلة؛ ففي بعض الأحيان الفهم الصحيح لأجزاء نظام ما، يمكّن المرء من التنبؤ بكل الخصائص الهامة في النظام ككل، أي إن بعض الأشياء هي في الحقيقة مجموع أجزاء فقط، مثل النظرية الحركية للغازات. يقول جون بولكينغ هورن John Polkinghorne إننا نستطيع أن نستخدم "النظرية الحركية للغازات في اختزال مفهوم درجة الحرارة (الناشئة في الديناميكا الحرارية لجِرْم المادة) في قيمة متوسط الطاقة الحرارية لجزيء الغاز." Interdisciplinary Encyclopedia of Religion and Science تحت عنوان Reductionism.

30. يشرح هيرمان دويفيرد Herman Dooyeweerd كيف تقود الإطلاقية absolutization إلى الاختزالية: إن أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة المطلقة في الخليقة "سوف يظهرون جانبًا واحدًا من الحقيقة... على أنها الحقيقة الكاملة، ثم سيختزلون باقي الجوانب إلى أن تصبح كلها أوجهًا مختلفة للجانب الذي جعلوه مطلقًا... مثل المادية الحديثة التي تختزل كل الحقيقة الدنيوية إلى جزيئات مادية تتحرك، وكذلك الفلسفة الطبيعية naturalistic الحديثة التي ترى كل شيء من جانب واحد فيما يتعلق بنماء الحياة العضوية... [إن البشر يميلون] إلى جعل النسبي مطلقًا وتأليه للمخلوق." Roots of Western Culture: Pagan, Secular, and Christian Options ص 42.

31. مقال More Than Good Intentions: Holding Fast to Faith in Free Will لجون هورغان في نيويورك تايمز، عدد 31 ديسمبر 2002. ذكر فرانسيس شيفر هذا التشبيه: عندما تكون نظرة المرء الكونية "صغيرة" جدًّا، فسيصبح الأمر أشبه بمحاولة حشر إنسان ما في صندوق قمامة، إذ ستبرز دومًا ساق أو ذراع. من كتاب True Spirituality من مجلدات The Complete Works of Francis A. Shaeffer مجلد 3 ص 172-173.

32. مقابلة جون سيرل مع جيفري ميشلوف Jeffrey Mishlove بعنوان Thinking Allowed: Conversations on the Leading Edge of Knowledge and Discovery عام 1998.

33. هو كتاب جين إدوارد فايث Postmodern Times: A Christian Guide to Contemporary Thought and Culture.

القسم الثاني

المبدأ الأول: أفول الآلهة

1 . Albert M. Wolters, Creation Regained: Biblical Basics for a Reformational Worldview (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1985), 4

2 . Christian Smith and Melinda Lundquist Denton, Soul Searching: The Religious and Spiritual Lives of American Teenagers (Oxford: Oxford University Press, 2005), 89

3 . David Kinnaman, You Lost Me: Why Young Christians Are Leaving Church... and Rethinking Faith (Grand Rapids, MI: Baker Books, 2011), 190.

دراسة أجراها معهد فولر اللاهوتي Fuller Seminary واستنتجت أنّ العامل الوحيد الأكثر أهمية لتمسّك المراهقين بإيمانهم الديني في الجامعة هو إذا ما عثروا على إجابات عن أسئلتهم خلال بقائهم في الثانوية: "كلّما شعر طلاب الجامعة أنّ لديهم الفرصة للتعبير عن شكوكهم أثناء وجودهم في الثانوية، ارتفعت مستويات نضج إيمانهم ونضجهم الروحي". Lillian Kwon, "Survey: High School Seniors 'Graduating from God,'" Christian Post, August 10, 2006.

4 . Bradley Wright, "If People Leave the Faith, When Do They Do It?," Patheos, January 28, 2012,

www.patheos.com/blogs/blackwhiteandgray/2012/01/if-people-leave-the-faith-when-do-they-do-it/.

يشير رايت لدراسة تعرض أنّ هؤلاء الأكثر احتمالاً لترك الدين هم بأعمار سبعة عشر إلى عشرين. ثاني أكثر احتمالاً للترك هم الأصغر عمرًا بسنة أو سنتين (الأعمار خمسة عشر إلى ستّة عشر). تتراجع الأعداد إلى حدّ ما بعد عمر العشرين، وبعدها تهبط بعد عمر الستة والعشرين.

5. يُخبر كريستيان سميث Christian Smith، مدير مركز دراسة الشباب والدين the Center for the Study of Youth and Religion في جامعة نوتردام، عن أنّ المراهقين اليوم غالبًا ما يعرّفون الإيمان بناء على "استيفاء الحاجات العاطفية". إنّ فهمهم الأحادي البُعد ناتج عن "مناخ ثقافي نسبوي ومبالغ في جعل الدين ظاهرة فردية خاصة". اقتبس في Chris Norton, "Apologetics Makes a Comeback among Youth," Christianity Today, August 31, 2011.

6. Norton, "Apologetics". انظر أيضًا Troy Anderson, "A New Day for Apologetics: People Young and Old Are Flocking to Hear – and Be Changed by – Winsome Arguments for the Christian Faith," Christianity Today, July 2, 2008.

7. قد يكون الصنم أيضًا شيئًا اعتقد خطأً أنّه من الخلق – شيء غير حقيقي أو تخيّلي، مثل الفضائيين. تكمن الفكرة في أنّه إن كان حقيقيًّا، فسيكون شيئًا أقلّ من الله، شيئًا ضمن النظام الكوني.

8. Terry Eagleton, Culture and the Death of God (New Haven, CT: Yale University Press, 2014), 119.

ننظر أيضًا Andrew Brown, "Religion without a Church? Humanism Almost Qualifies," Guardian, August 12, 2014. يذكر هيرمان دويويرد Herman Dooyeweerd أنّ الأصنام ناتجة عن "تأليه المخلوق" و"جعل ما هو نسبي مطلقًا" New Critique of Theoretical Thought (Ontario, Canada: Paideia, 1984), 1:58, 61, 176 and 11:322, 572. مثلاً نتجت المادية الآلية لعصر التنوير عن "جعل الظواهر الآلية مطلقة". Roots, 172-73. عرّف راينهولد نيبور Reinhold Niebuhr عبادة الأصنام idolatry بالميل لرفع "عنصر محدود ومشروط ما في الوجود إلى مكانة الإله"، والتعامل معه "كالجوهر النهائي للترابط والمغزى". The Nature and Destiny of Man, vol. 1 (Louisville: Westminster John Knox, 1996), 164-65. حذّر ريتشارد نيبور Richard Niebuhr أيضًا من "جعل ما هو نسبي مطلقًا". Christ and Culture (New York: HarperCollins, 1951), 145.

يذكر جورج ستاينر George Steiner أنّ كثيرًا من الفلسفات الحديثة تعمل "كديانات بديلة"، وقد اقترحت "كمسيا ما هذه الكلمة؟؟؟ علمانية" وتعبّر عن "شوق للمُطلق". Nostalgia for the Absolute (Toronto: House of Anansi, 1974), 49. الفصل الأول بعنوان "المخلصون العلمانيون The Secular Messiahs".

9 . Timothy Keller, "Talking about Idolatry in a Postmodern Age," Gospel Coalition, April 2007,

http://old.westerfunk.net/archives/theology/Talking%20About%20Idolatry%20in%20a%20Postmodern%20Age/.

10 . لذلك يصف الفيلسوف ديفيد ناغل David Naugle الرؤى الكونية بأنّها "رؤى للقلب". Worldview: The History of a Concept (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2002), 268ff.

11 . "الأديان الإلحادية ... تتضمّن الأديان الشرقية مثل البوذية التيرافادية Theravedic Buddhism، والجانية Jainism، والطاوية Taoism، والكونفوشية Confucianism". Eric Steinhart, "On Atheistic Religion," Patheos, January 8, 2012,

www.patheos.com/blogs/camelswithhammers/2012/01/on-atheistic-religion-2/.

لكنّ الديانات العديمة الإله يُحافظ عليها فقط نخبة صغيرة من المُفكّرين، والأشكال الشائعة من البوذية والكونفوشية والطاوية زاخرة بالآلهة". Rodney Stark, "Why Gods Should Matter in Social Science," Chronicle of Higher Education 49, no. 39 (June 6, 2003). في حكم المحكمة العليا في قضية توركاسو ضدّ واتكنز Torcaso v. Watkins (1961)، صرّح القاضي هوغو بلاك Hugo Black بأنّ "من بين الأديان في هذه الدولة والتي لا تعلّم ما يعدّ عمومًا إيمانًا بوجود الله هي البوذية، والطاوية، والثقافة الأخلاقية، والإنسانية العلمانية وغيرها"؛ وAndré Comte-Sponville, The Little Book of Atheist Spirituality (New York: Penguin, 2006), 2.

12. هيرمان هيسي Hermann Hesse، سيدهارتا Siddhartha، ترجمة Hilda Rosner (نيويورك: Bantam، 1951 ، 144). تتضمّن كثير من هذه الأديان تعاليمَ أخلاقية في الوقت نفسه، رغم صعوبة توافق ذلك مع مبادئها الميتافيزيقية. يقتضي مفهوم الكارما karma في الهندوسية وجود مفهوم العدل – الأفعال الخيّرة تسبّب كارما خيّرة والأفعال السيّئة تسبّب كارما سيّئة؛ "كما تزرع تحصد". هو قريب من قانون ميكانيكي، وتقريبًا مثل قانون في الفيزياء (مثل قانون؛ لكل فعل ردّ فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه).

13. يلاحظ الصحفي آرثر كوستلر Arthur Koestler أنّ الرؤية الشرقية تؤدّي "لإنكار قانون الأخلاق الشامل" وأخيرًا "لاشتراك مستسلم" في الشر. يمكننا تفسير الرؤية الشرقية بسطور من إحدى أقدم قصائد زِن( ) Zen: "لا تقلق بشأن الحق والباطل / الصراع بين الحق والباطل / هو مرض العقل". The Lotus and the Robot (New York: Macmillan, 1960), 272, 270.

14. مقتبس في ستارك Stark، "لماذا الآلهة مهمة Why Gods Should Matter". يقدّم ستارك قدرًا كبيرًا من الأدلة الإضافية: "مؤسّس علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) البريطاني، إدوارد بورنيت تايلور Edward Burnett Tylor، ومؤسّس علم الاجتماع البريطاني، هربرت سبنسر Herbert Spencer، كلاهما بذل جهدًا ليستدل أنّ بعض أنواع الأديان فقط لديها مقتضيات أخلاقية. يقول تايلور: "الإحيائية الوحشية Savage animism [ديانة] مجرّدة تقريبًا من ذلك العنصر الأخلاقي الذي بالنسبة للعقل الحديث المُتعلّم هو المنبع الرئيس للدين المُمارس". كذلك "immoral، بل هي غير أخلاقية un-moral"( ). لاحظ سبنسر أيضًا أنّ كثيرًا من الأديان تتجاهل الأخلاق، وخاض أكثر باقتراحه أنّ بعض الأديان تشجع جدًّا على الجريمة وعدم الالتزام الأخلاقي: "في الوقت الحالي في الهند، لدينا قطّاع طرق مثل الدومراس Domras، السارق الناجح فيما بينهم يُحتفل به دائمًا بتضحية لإلههم الرئيس غانداك Gandak". ... في دراسته المميّزة لمانوس Manus في غينيا الجديدة، قارن ريو فرانكلين فورشون Reo Franklin Fortune الملامح الأخلاقية لدينهم مع دين القبيلة

النمطية، ووافق على أنّ "تايلور محقّ تمامًا في قوله إنّه في معظم المناطق البدائية من العالم، يحافظ الدين والأخلاق على وجودهما باستقلالية بعضهما عن بعض". ناقشت روث بندكت Ruth Benedict أيضًا أنّ تعميم الرابط بين الدين والأخلاق "هو خطأ في فهم ... تاريخ الأديان". قد اقترحت أنّ الرابط من المُحتمل أنّه نموذجي فقط في "الأديان الأخلاقية العليا". أشار رالف بارتون Ralph Barton إلى أنّ سكان إيفوغايو Ifugao يعزون ممارساتهم التبادلية العديمة المبادئ إلى آلهتهم ويستغلون كلّ فرصة لخداعها. وجد بيتر لورانس Peter Lawrence أنّ شعب غاريا Garia في غينيا الجديدة ليس لديهم مفهوم "الخطيئة" و"ليس لديهم فكرة عن الجزاء في العالم الآخر عن أعمال الخير".

15. زينوفان Xenophanes، مقتبس في - Adam Drozdek, Greek Philos phers as Theologians: The Divine Arche (Burlington, VT: Ashgate, 2007), 15، وفي Augustine, City of God, bk, 3, chap. 3.

16. كانت دولة مدينة قرطاج مستعمرة فينيقية تقع فيما يعرف الآن بتونس. مارست المستعمرات الفينيقية في صقلية وسردينيا ومالطا أيضًا التضحية بالأطفال، وكذلك قامت به إسرائيل القديمة، وهنالك استنكر كثير من رسل العهد القديم ذلك بشدّة (اللاويين، 20: الآيات 2 – 5؛ التثنية، 12: الآية 31؛ 18: الآية 10؛ أرمياء، 7: الآية 31؛ 19: الآيتان 4 – 5؛ 32: الآية 35؛ حزقيال، 16: الآيتان: 20 – 21؛ 20: الآيتان 26، و31؛ 23: الآية 37).

أنكر أتباع تيار المراجعات Revisionists (معظمهم من تونس) أنّ قرطاج قد مورس فيها التضحية بالأطفال، لكن يبدو أنّ دراسة جديدة قد أنهت النقاش في هذه النظرية. Sarah Griffiths, "Ancient Greek Stories of Ritual Child Sacrifice in Carthage Are True, Study Claims," Daily Mail, January 23, 2014؛ و-Maev Kennedy, "Carthaginians Sacrificed Own Children, Archaeologists Say," Guardian, January 21, 2014.

17. Clouser, Myth, chap. 2. نقرأ هذه العبارة الوثنية: حتّى الإله الخالق قد لا يكون هو

الحقيقة الجوهرية. من تعاليم الغنوصية( ) Gnosticism، حيث يرون أنّه ضمن النظام الكوني يوجد عدّة مستويات من الكائنات الروحية من الألوهية العليا نزولاً إلى الألوهية الدنيا أو الآلهة الثانوية (تترجم غالبًا إلى demiurge أي خالق الكون المادي). كان هناك الإله المرؤوس الذي خلق العالم المادي حيث يعيش البشر، ولأنّ هذا العالم هو مجال الموت، والاضمحلال، والفناء، فقد قيل حتّى إنّ خالق الكون المادي demiurge شرير. وللدقة، لم يكن خالق الكون المادي خالقًا حقيقيًّا بل مجرّد بنّاء لأنّ المادة قد اعتقد أنّها أبديّة، وهو بالكاد يعطي شكلاً للمادة العديمة الشكل.

18. هنالك دليل على أنّ كثيرًا من الثقافات القديمة آمنت بتوحيد الإله monothe-ism قبل أن تصبح مشركة، متعدّدة الآلهة polytheistic، مما يدعم مقولة بولس في سفر رومية 1 بأنّ الناس ترفض عبادة الخالق واستبدلت بذلك عبادة الخلق( ). للاطلاع على دراسة حديثة، انظر: Winfried Corduan, In the Beginning: A Fresh Look at the Case for Original Monotheism (Nashville: B&H, 2013). يعتقد بعض العلماء أنّ الصينيين القدامى عبدوا إلهًا واحدًا قبل نشأة الكونفوشية والطاوية والبوذية. اطلع على Chan Kei Thong and Charlene L. Fu, Finding God in Ancient China: How the Ancient Chinese Worshiped the God of the Bible (Grand Rapids, MI: Zonder-van, 2009). درس John S. Mbiti حوالي ثلاثمئة شخص من أفريقيا، وتوصّل إلى النتيجة، "في جميع هذه المجتمعات، ودون أيّ استثناء، أن لدى الناس معرفة بالله"( ) على أنّه الوُجود الأسمى والخالق. African Religions and Philoso-phy, 2nd ed. (New York: Praeger, 1969), 29. ناقش Geoffrey Par-rinder أيضًا أنّ الثقافة الأفريقية الأهلية كانت توحيدية. African Mythology (New York: Peter Bedrick Books, 1991)). لكن حتّى عند تدريس وجود ذلك الإله الأسمى، تدرّس معظم الأديان التقليدية أنّ هنالك أرواحًا أو آلهة بمستوى أخفض. وغالبًا ما تدرّس هذه الأديان أنّ الإله الأسمى قد انفصل عن جماعته وانسحب منهم، ولذلك هم الآن يسترضون الأرواح ذات المستوى الأخفض.

الاكتشاف بأنّ كثيرًا من الثقافات قد آمنت بتوحيد الإله في الأصل قد أضعف الفكرة

المستوحاة من هيغل Hegel في القرن التاسع عشر بأنّ الأديان تتطوّر من الأبسط إلى الأعقد ممن الإحيائية animism عبر تعدّد الآلهة polytheism، إلى الهينوثية( ) henothe-ism، إلى توحيد الإله monotheism). اطلع على Gleason L. Archer, A Survey of Old Testament Introduction (Chicago, IL: Moody Press, 1975). حول مقتضيات البعثات، اطلع على Don Richardson, Eternity in Their Hearts: Startling Evidence of Belief in the One True God in Hundreds of Cultures throughout the World, 2nd ed. (Venture, CA: Regal, 1984).

19 . Jonathan Petre, "And after Double Maths It Will Be ... Paganism: Schools Told to Put Witchcraft and Druids on RE Syllabus," Daily Mail, April 14, 2012 .

20 . "A Definition of Wicca," Church and School of Wicca, www.wicca.org/Church/define.html

تنصّ موقع ويب آخر، "يعتقد أتباع الوايكا أنّ روح الواحد the One، وإلاهة God-dess والإله God توجد في جميع الأشياء . . . [و] أنّ علينا أن نعامل جميع الأشياء في الأرض كملامح للألوهية". Herne, "What Is Wicca?," Celtic Connection, http: / /wicca.com /celtic /wicca /wicca.htm

يوجد أناس اليوم يعدّون أنفسهم وثنيّين ولكنّهم علمانيّون كليًّا، ويتعاملون مع الآلهة كرموز سيكولوجية أو أنماط بدائية جونغية( ). قد تكون نظرتهم للإلاهة goddess مثلاً كرمز لتمكين النساء.

21. G. S. Kirk, J. E. Raven, M. Schofield, The Presocratic Philosophers: A Critical History, 2nd ed. (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1983), 150ff. ؛ وأيضًا Eric Temple Bell, The Magic of Numbers (New York: Dover, 1946), 85.

22 . انظر كتاب الحقيقة الكاملة Total Truth، الملحق 3، "الحرب الطويلة بين المادية والمسيحية The Long War between Materialism and Christianity".

23. Plato, Republic, bks. VI و Aristotle, Metaphysics, bk. XI, pt. 7 and VII. في الطيماوس Timaeus، يعزو أفلاطون نشأة العالم المادي إلى إله شخصي، لكنّه إله منخفض الدرجة أو إله ثانوي أو demiurge (كما في الغنوصية Gnosticism). وهذا الإله منخفض الدرجة لم يَخلُق من العدم؛ لكنه أدخل المنطق reason فقط (المثل المنطقية rational forms) في المادة العديمة المنطق. وقد كتب Reijer Hooykaas أنّ هذا خالق يداه مقيّدتان بمسألتين: "عليه ألّا يتّبع تصميمه الخاص بل نموذج الأفكار الأبدية [الأشكال]؛ وثانيًا عليه وضع ختم الأفكار على المادة الفوضوية والعصيّة التي لم يخلقها بنفسه". Religion and the Rise of Modern Science (Grand Rapids. MI: Eerdmans, 1972) 3–4.

24. Brian J. Shanley في توما الأكويني Thomas Aquinas، مقال في الطبيعة الإلهية The Treatise on the Divine Nature، ترجمة Brian J. Shanley (Indian-apolis: Hackett, 2006)، 244 (الخط السميك مُضاف). يقول Irving Singer، "يبدأ سلّم أرسطو للوُجود بالمادة النقية pure matter ويبلغ ذروته في المثال النقي pure form". The Nature of Love: Plato to Luther, 2nd ed. (Chicago: University of Chicago Press, 2009), 108 (الخط السميك من الأصل). يقول Romano Guardini إنّ القدماء لم يتوصّلوا أبدًا للفهم المسيحي للسمو transcendence: "لكن بالنسبة للإنسان في العالم القديم، كان الكون بذاته كامل الحقيقة". حتّى الفلاسفة "لم يسموا فوق الكون". "الجواهر المطلقة [المثل] في الفلسفة القديمة قد وقعت للأبد في شرك كلّية الكائن الذي أعطوه الثبات والخلود". مثلاً مفهوم أفلاطون للفضيلة "لم يكن منفصلاً عن العالم؛ بل بقي ملازمًا له كخلوده تمامًا، و"متجاوزًا له" ضمن الكليّة النهائية". كذلك "المحرك الذي لا يتحرك Unmoved Mover لدى أرسطو، وهو غير متحرّك immobile بذاته، أحدث كامل التغييرات في العالم. في التحليل الأخير، يكون ذا أهمية عندما يتعلّق بكامل الكون المتبدّل أبديًّا". The End of the Modern World (Wilmington DE: ISI Books, 1998), 1–3, 8. يدعو دويويرد Dooyeweerd إله أرسطو "بالصنم". New Critique, I:122.

25. E. O. Wilson, Consilience: The Unity of Knowledge (New York:

كتب ويلسون أيضًا في الصفحة 60، "انتظمت Vintage Books, 1998), 291. الطبيعة بقوانين فيزيائية كونية بسيطة والتي يمكن لجميع القوانين والمبادئ الأخرى أن تختزل بها بالنهاية"؛ و Jerry Coyne, "Philosopher Thomas Nagel Goes the Way of Alvin Plantinga, Disses Evolution," Why Evolution Is True (blog), October 13,2012,

http://whyevolutionistrue.wordpress.com/2012/10/13/philosopher-thomas-nagel-goes-the-way-of-alvin-plantinga-disses-evolution/

26 . John R. Searle, Mind: A Brief Introduction (Oxford: Oxford University Press, 2004), 48و Gordy Slack, "What Neo-Creationists Get Right," The Scientist, June 20, 2008, 26. Dallas Willard, "What Significance Has 'Postmodernism' for Christian Faith?,"

www.dwillard.org/articles/artview.asp?artID=70

27 . "Tysonism," Facebook,

https://www.facebook.com/Tysonism.

28. وفق مصطلحات ماركس، تشكّل العلاقات الاقتصادية الأساس، بينما جميع الأبعاد الأخرى في المجتمع هي مجرّد بنية فوقية. اطلع على فصلي في كتاب الماركسية، "هل تقدم الحريّة؟" في How Now Shall We Live? "?Marxism, "Does It Liberate (Wheaton, IL: Tyndale, 1999), chap. 24.

29 . David Hume, Inquiry Concerning Human Understanding, ed. Charles Hendel (Pearson, 1995), 80.

30. يمكن العثور على تقرير عن الاستقصاء في Anthony Gottlieb, "What Do Philosophers Believe?," Intelligent Life, Spring 2010.

31. اطلع على Donald T. Williams, "Kahless and Christ: On Faith, Fictional and Factual," While We're Paused (blog), June 11, 2012. يُعبّر وورف Worf عن الانقسام بين الحقيقة والقيمة fact /value split، وهو فكرة رئيسة عرضت في كل كتاب الحقيقة الكاملة Total Truth.

32. "لا يوجد ببساطة طريقة لتوضيح أنّ البشر بمقدورهم كسب معرفة الحقائق خارج عقولهم extra-mental realities إن كان وعينا فقط موجّهًا مباشرة نحو الحقائق العقلية. سواءً المنطق أو الخبرة لا يسمحان لنا بتجسير الفجوة بين عقولنا والعالم الخارجي الذي سيظهر كما نعرفه إن كان التمثيل صحيحًا".

C. Stephen Evans, Natural Signs and Knowledge of God: A New Look at Theistic Arguments (Oxford: Oxford University Press, 2010), 28.

33 .The Collected Works of John Stuart Mill, ed. John M. Robson, vol. 9 (Toronto: University of Toronto Press, 1963-91), 183 .

اطلع على Clouser, Myth, 144, 336.

34. يُسمّى هذا غالبًا في الفلسفة مشكلة الدماغ في وعاء brain-in-a-vat problem: كيف يمكنك أن تعرف إن كنت لست حقًّا عبارة عن دماغ في وعاء يتمّ تحريضه بنبضات كهربائية يطبّقها عالِم مجنون ليجعلك تعتقد أنّ لديك جسدًا وأنّك تعيش في عالم حقيقي فيه ناس وأشياء؟

35 . David Hume, A Treatise of Human Nature (CreateSpace Independent Publishing Platform, 2012), 37.

36 . Ernst Mach, The Analysis of Sensations. في John T. Blackmore, Ernst Mach: His Life, Work, and Influence (Berkeley, CA: University of California Press, 1972), 327n14.

اطلع على مناقشة ماخ في Clouser, Myth, 149-50.

37. للقراءة عن أثر التجريبية والعقلانية على الفن والأدب، اطلع على كتاب Saving Leonardo الفصلين 5 و6.

38. اطلع على Richard H. Popkin, History of Skepticism: From Erasmus to Spinoza (Los Angeles: University of California Press, 1979)؛ Harris Harbison, "The Struggle for Power", الفصل 3 في The Age of Reformation (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1955).

39. كتب Jeffrey Stout، "إن أزمة المرجعية التي أحدثت انفصالاً جذريًا وكليًا عن الماضي، تبدو ضرورية. لذلك سعى الشك المنهجي لتجاوز كلّي للوضع. وحاول جعل وراثة التقاليد أمرًا غير ذي صلة، للبدء مرة أخرى من الأساسات، والهروب من التاريخ". The Flight from Authority: Religion, Morality, and the Quest for Autonomy (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1981), 67. اطلع على كتاب الحقيقة الكاملة Total Truth، للملحق 1، "كيف أصبحت السياسات الأمريكية علمانية How American Politics Became Secularized"؛ Saving Leonardo, 137–40؛ ومحاضرتي "أسطورة الخلق في الفلسفة السياسية المعاصرة The Creation Myth of Modern Political Philosophy" (باستجابة لمحاضرة كويبر السنوية السادسة Sixth Annual Kuyper Lecture، واشنطن العاصمة، 2000).

40. اقتبس في Michael Oakeshott, Rationalism in Politics and Other Essays (Indianapolis: Liberty, 1991), 15. اطلع أيضًا على A. W. Ward and A. R. Waller, ed., The Cambridge History of English Literature (New York: G. P. Putnam's Sons, 1919), 329.

41. عرف بيكون Bacon بكلماته الحادة بأنّ قليلاً من الفلسفة يحرف الإنسان نحو الإلحاد، ولكنّ "التعمّق في الفلسفة" يقود الإنسان نحو الدين. The Essays of Lord Bacon (London: London and Green, 1875), 64. كان ديكارت، الكاثوليكي الملتزم، على يقين بأنّ الله قد كشف له منطق الكوجيتو( ) الذي لا يقبل الجدل، ولذلك نذر أن يحُجّ إلى مقام سيّدتنا في لوريتو Our Lady of Loreto في إيطاليا، وهو ما قام به. اطلع على كتاب الحقيقة الكاملة 39، Total Truth.

42. Robert C. Solomon, Continental Philosophy Since 1750: The Rise and Fall of the Self (Oxford: Oxford University Press, 1988), 5-6.

وفق تقديرنا على الجميع بالطبع أن يبدؤوا بالخبرة الواعية – أي بما نعرفه. لكنّ هنالك اختلافًا بين نقطة البداية التجريبية ونقطة البداية المنطقية، فجميعنا يبدأ البحث عن المعرفة من

ضمن خبرتنا الخاصة، ولكنّ نقطة البداية المنطقية تشير إلى ما نعدّه الأكثر جوهرية وأساسية – أساس تفسير كل الحقيقة.

43. Karl Popper, Conjectures and Refutations: The Growth of Scientific Knowledge (New York: Routledge, 1963, 2002), 20-21 (الخط السميك من الأصل).

44. يُضيف Randall، "فكرتهم كانت لا تزال نظامًا للوحي system of revelation"، رغم هجرهم لطريقة الوحي". John Herman Randall, The Making of the Modern Mind (New York: Columbia University Press, 1940), 267 (الخط السميك من الأصل). بالمثل، كتب Stout أنّ الفلاسفة المعاصرين الأوائل الذين تخلوا عن المرجعية التقليدية "بالكاد استبدلوا بفئة واحدة من الادعاءات المميزة أخرى.... لم يشكّكوا في الضرورة المعرفية epistemological لشيء مثل المرجعية المقدّسة". Stout, Flight, 75 (الخط المائل من الأصل).

45. مقتبس من ص 95 Saving Leonardo, لخلفية إضافية عن ذلك، اطلع على Soul of Science, 139–40.

46 . Alvin Plantinga, “How to Be an Anti-Realist,” Proceedings and Addresses of the American Philosophical Association 56, no. 1. (September 1982): 48.

لمزيد عن ثورة كانْط الكوبرنيكية، اطلع على Saving Leonardo, 181–83.

47 . Immanuel Kant, Philosophical Correspondence 1759-1799, ed. and trans. Arnulf Zweig (Chicago: University of Chicago Press, 1967), 254.

48 . Anthony Kenny, An Illustrated Brief History of Western Philosophy (Malden, MA: Blackwell, 2006), 377. مثل قول دوويرد Dooyeweerd،

تؤدّي التجريبية إلى "عدمية معرفية epistemological nihilism". New Critique, II: 332.

49 . Alan Jacobs, "Psychological Criticism: From the Imagination to Freud and Beyond," Contemporary Literary Theory: A Christian Appraisal, ed. Clarence Walhout and Leland Ryken (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1991), 99, 119, 98.

50 . Ernest Lee Tuveson, The Imagination as a Means of Grace (Los Angeles: University of California Press, 1960). لمصادر عن اقتباسات في Saving Leonardo, 183. اطلع على Yeats. وWordsworth. وHerder. وColeridge. هذا القسم من

51 . Herman Dooyeweerd, A New Critique of Theoretical Thought (Ontario: Paideia, 1984), I: 46.

52. B. R. Hergenhahn and Tracy B. Henley, An Introduction to the History of Psychology (Belmont, CA: Wadsworth, 2014). كلّ نظرية تعليمية هي كذلك تطبيق لفلسفة: اطلع على George R. Knight, Philosophy and Education: An Introduction in Christian Perspective, 4th ed. (Berrien Springs, MI: Andrews University Press, 2006). حتّى الرياضيّات التي من المفترض أنها تعدّ المجال الأكثر موضوعية على الإطلاق قد تأثرت بشدّة بالفلسفة: اطلع على Soul of Science، الفصلين 6 و7؛ و Clouser, الفصل 7، و"Is There a Christian View of Everything, from Soup to Nuts?," Pro Rege, June 2003.

53 . C. S. Lewis, The Screwtape Letters (New York: HarperCollins, 1996), 2.

54. من نسخة عام 1984.

55. اطلع على Richard Bauckham, Jesus and the Eyewitnesses: The Gospels as Eyewitness Testimony (Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans, 2008). يحتوي العهد القديم Old Testament كذلك على أحداث كانت علنية ومتاحة للاستقصاء التجريبي. عند مواجهة موسى [عليه السلام] للسحرة المصريين، كانت قدرته على إحداث المعجزات إثباتًا على أنّه يتكلّم باسم الله الحق. عند مواجهة إيليا [إلياس] لرسل بعل( ) Baal على جبل الكرمِل Mount Carmel، مثّلت معجزة واضحة الرؤية دليلاً لله الحق. اطلع أيضًا على رسالة بطرس الثانية، الإصحاح 1: الآيتين 16 – 17؛ وأعمال الرسل، الإصحاح 1: الآيتين 22–21؛ الإصحاح 3: الآية 15؛ الإصحاح 4: الآية 20.

في زمننا الحاضر لا يزال الدليل التجريبي يقدّم بعض أكثر الحجج إقناعًا على وجود الله، مثل حجّة التصميم design.

56. جاء الاقتباس الأول من Justin Martyr, Second Apology الفصل 13. كانت الصياغة الفعلية "مهما كانت الأشياء قد قيلت بحق [أو بصدق] بين جميع الرجال، فهي ملك لنا المسيحيين Whatever things were rightly [or truly] said among all men, are the property of us Christians". لكنّ الحقيقة الكاملة كما قال يعثر عليها في المسيح. صيغ الاقتباس الثاني من قبل Jerome. اطلع على E. K. Rand, The Founders of the Middle Ages (New York: Dover, 1928), 64.

المبدأ الثاني: كيف انتصر نيتشه

1 John R. Erick-\$son، بالإضافة إلى مقالة لإيريكسون بعنوان "تعرّض لي نيتشه وسلبني" (غير منشورة) ومذكراته، كاتب من بلدة صغيرة (غير منشورة).

2. ليل لوندز Leil Lowndes، "كيف يمكن لعلم الأعصاب أن يساعدنا في إيجاد الحب،" وول ستريت جورنال، 14 فبراير (شباط)، 2013. انظر أيضًا هيلين فيشر، لماذا نحب: طبيعة وكيميائية الحب الرومانسي (نيويورك: هنري هولت، 2004).

3. ريتشارد رورتي Richard Rorty، "قطّاع الطرق وواضعو النظريات،" نظرية سياسية 15 رقم 4 (نوفمبر "تشرين الثاني" 1987): 80-564.

4. لقد سرقوا أيضًا أكثر من المشاركين الذين كانوا موزعين على الشروط الحيادية مع عبارات تحكم مثل "يُزرع قصب السكر وسكر الشمندر في 112 دولة". جيس بيرينغ jesse Bering، " يقول العلماء بأن الإرادة الحرة لا توجد على الأغلب، ولكنها تُلحّ: {لا تتوقف عن الإيمان!}" ساينتفك أميركان، 6 أبريل (نيسان)، 2010. سُجّلت تجربة أخرى هنا: "إن النقد الأكثر شيوعًا للاختزالية- فكرة أننا حزمة من العصبونات وليس أكثر- أنها سوف تقودنا إلى معاملة نظرائنا البشر كما لو أنهم... حسنًا، كما لو أنهم حزمة من العصبونات ليس إلا. شرع جون إيفانز John Evans، عالم اجتماع ديني في جامعة كاليفورنيا، سان دييغو، في اختبار إن كان للنقد أي مصداقية... فطرح مجموعة من الأسئلة المصممة بحيث يستنبط موقفهم تجاه السلوك. هل كانوا مع السماح بإجراء اختبارات على السجناء دون موافقتهم" بيع الأعضاء البشرية كاستثمار؟ السماح بالانتحار في حالة الأشخاص الذين أرادوا توفير المال؟ التدخل من أجل إيقاف الإبادة الجماعية؟ بالطبع، وجد أن الأشخاص الذين يعتنقون الرؤية الاختزالية- الذين ينكرون الوضع الخاص للنوع الإنساني في الطبيعة، الذين يعتقدون بأن السلوك يُحدد بوساطة العمليات الفيزيائية وحدها- كانوا أكثر احتمالية بكثير للموافقة على سوء معاملة البشر. لم يستطع إيفانز أن يشكّل استنتاجًا حول إن كانت الحتمية تسبب هذه الرؤى. لكن حسب قوله؛ فإن الروابط بينها لا يمكن تجاهلها". أندرو فيرغوسون Andrew Ferguson"، نهاية هراء الأعصاب The End of Neurononsense،" ويكلي ستاندر، 20 أكتوبر (تشرين الأول)، 2014.

5. لاحظ أن هذه النتائج تعطي فعلاً دليلاً على أن الإرادة الحرة حقيقية. إن شجعتُكَ على الإيمان بأنك تستطيع الطيران، فستبقى غير قادر على الطيران. إن الإيمان بأنك تمتلك القدرة على الطيران لا يجعلها أسهل بأي طريقة. على العكس، وكما تظهر هذه الدراسات، إن الإيمان بأنك تمتلك القوة على عدم الغش يجعل عدم الغش أسهل. الاستنتاج: لا يصنع الإيمان أي فارق عندما لا تمتلك القوة على عمل شيء ما بكل الأحوال، ولكن يبدو أنه يساعدك حقًّا في ممارسة قوة تمتلكها بالفعل. لذا فإن هذه النتائج تدعم واقع الإرادة الحرة. (الشكر لأنغس مينوغ Angus Menuge على هذه الفطنة).

6. حلل فرانسيس شيفر Francis Schaeffer تاريخ الفكر الغربي كسلسلة من الثنائيات. انظر {الهروب من المنطق} و {الإله الموجود}. كان تحليل شيفر مستلهمًا من هيرمان دووي ويرد Herman Dooyeweerd الذي عرّف ثلاث ثنائيات رئيسة في الفكر الغربي: ثنائية الإغريق مادة/ مثل، ثنائية القرون الوسطى الطبيعة/ الرحمة ، الثنائية الكانطية الطبيعة/ الحرية. (عرّف كانط Kant الطبيعة من ناحية آلة ميكانيكية مادية بينما عرّف الحرية من ناحية معايير أخلاقية يختارها البشر لأنفسهم.) انظر كتاب دووي ويرد جذور، والنقد الجديد، في كل مكان من الكتاب، وفي أفول الفكر الغربي، الفصل الثاني (غراند رابيدز، ميتشغن: بيديا، 2012).

7. نيكولاس همفري Nicholas Humphrey، "الوعي: نقطة ضعف الداروينية؟ الحمد لله، ليس تمامًا." في جون بروكمان John Brockman، الفكر الذكي: العلم مقابل حركة التصميم الذكي (نيويورك: فينتاج، 2006)، 58.

8. كولين ماكجين Colin McGinn، "آلة بالكامل ولا وجود لأي شبح؟ machine and No Ghost?" نيو ستيتسمان 20، New statesman فبراير (شباط)، 2012.

9. فرانسيس كريك Francis Crick، الفرضية المدهشة: البحث العلمي عن الروح (نيويورك: توتش ستون 1994)، 3؛ ودانيل ويغنر Daniel Wegner، وهم الإرادة الواعية The Illusion of Conscious Will (كامبريدج، ماساتشوستس: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 2002). أجرى المقابلة مع ويغنز دينس أوفرباي Dennis Overbye، "الإرادة الحرة: ها أنت تمتلكها الآن، ها أنت لا تمتلكها الآن." نيويورك تايمز، 2 يناير (كانون الثاني)، 2007.

10. ستيفن بينكر Steven Pinker، كيف يعمل العقل (نيويورك: نورتون، 2009)، 24، في كل مكان من الكتاب؛ و "هل يقتل العلمُ الروح؟" Edge.org، 7 أبريل (نيسان) 1999 www.edge.org/3rd_culture/dawkins_pinker/debate_p9html

11. إن المثال مأخوذ من تيد روكويل Teed Rockwell، قاموس فلسفة العقل، المجلد الصغير، "الإقصائية"

http://philosophy.uwaterloo.ca/MindDict/eliminativism.html

12. يمكن أن نفكر بالانبثاقية على أنها معاكسة للاختزالية. بدل الادعاء بأنه يمكن اختزال ظاهرة عالية المستوى إلى مستويات أخفض وأقل تعقيدًا فإنها تدّعي أنه يمكن للمستويات الأقل أن تعطي دفعة نحو الأعلى لمستويات أعلى وأكثر تعقيدًا. عرّف العلماء نوعين من الانبثاق: ضعيفًا وقويًّا. مثال عن الانبثاق الضعيف هو الماء. في درجة حرارة الغرفة فإن الهيدروجين والأكسجين هما غازان، إن كان ذلك هو كل ما نعرفه فمن الممكن ألا نتوقع أن يكون ناتج تفاعلهما هو سائل (H_2O) رغم ذلك فإن النتيجة تُحدد بالكامل بوساطة القوانين العادية للطبيعة التي تعمل بشروط فيزيائية أولية.

على العكس، فإن الانبثاق القوي هو ادعاء يتعلق بظواهر لا يمكن تفسيرها بوساطة قوانين للطبيعة العادية، مثل العقل والوعي. وكما يكتب الفيلسوف ديفيد تشالمرز David Chalmers، سوف يتضمن الانبثاق القوي "ظواهرَ لا يمكن استنتاج وجودها من الحقائق حول التوزع الدقيق للجزيئات والحقول ضمن المكان والزمان (مع قوانين الفيزياء أيضًا)". وهذا "يشير إلى وجود الحاجة لقوانين أساسية جديدة للطبيعة لتفسير هذه الظواهر." على كل حال، لم يكتشف أحد "قوانين الطبيعة الأساسية الجديدة." ("الانبثاق القوي والضعيف" (http: / /consc.net /papers /emergence.pdf).

13. انظر ج. ب. مورلاند J. p. Moreland، "الحجة الوعي" في مناظرة الإيمان المسيحي، تحرير ج. ب. مورلاند، تشاد ميستر Chad Meister، خلدون أ. سويس Khaldoun A. Sweis (أكسفورد: صحافة جامعة أكسفورد، 2013)؛ ودوغلاس غروذويس Douglas Groothuis، علم الدفاع عن العقائد المسيحية: قضية شاملة لإيمان الكتاب المقدس (داونرز غروف Downers Grove، إيلينوي، إنتر فارسيتي، 2011)، الفصل 17.

14. إيفان فالز Evan Fales، "مذهب الطبيعية ومذهب الفيزيائية،" في دليل كامبريدج إلى الإلحاد، تحرير مايكل مارتن Michael Martin (كامبريدج: صحافة جامعة كامبريدج، 2007)، 120، يحاول فالز حل اللغز ببساطة من خلال فرض أن الوعي لا بد أن يكون طبيعيًّا: "بما أن من الجليّ أن هذه العملية قد أنتجت الوعي... فمن الجليّ أن الوعي ظاهرة طبيعية" (الكتابة بالخط السميك موجودة في المصدر).

15. كولين ماكجين Colin McGinn، مشكلة الوعي (أكسفورد: باسل بلاكويل Basil Black-well، 1993)، 14-13: واللهب الغامض (نيويورك: الكتب الأساسية، 1999)، 45.

16. مارك أ. بيدو Mark A. Bedau "الانبثاق الضعيف،" في ج. تومبرلين J. Tomb-erlin، وجهات نظر فلسفية: العقل، المسببات، والعالم، المجلد 11 (مالدين، ماساتشوستس: بلاكويل، 1997)، 99-375. لمناقشة أدق من حيث التفاصيل عن النسخ المتنوعة للانبثاقية انظر ج. ب. مورلاند J. P. Moreland، الوعي ووجود الإله: حجة إيمانية (نيويورك؛ روتليدج، 2008).

17. غالين ستراوسون Galen Strawson، المادية الحقيقية ومقالات أخرى (أكسفورد: صحافة جامعة أكسفورد، 2008)، 6 (الكتابة بالخط المائل مُضافة).

18. توماس ريد Thomas Reid، استعلام حول العقل البشري، تحرير ديريك ر. بروكس Derek R. Brookes (جامعة بارك، بنسلفانيا، صحافة جامعة ولاية بنسلفانيا، 1997)، 16-215.

19. وضح المشكلة الفيلسوف جيغون كيم Jaegwon Kim. من ناحية، فإن العديد من الفلاسفة الذين يعتنقون المادية أو الطبائعية ينكرون أن الوعي حقيقي، ويتمسكون بأن الحالات العقلية هي خيال. من ناحية أخرى، يكتب كيم "لاحظ الفرق بين هذه الحالات المتواضعة للوعي في العلم والميتافيزيقيا ومع موقفها المتغطرس في الفلسفة الأخلاقية ونظرية القيمة." عندما يناقش الفلاسفة ما هو خير جوهريًّا، ما يجعل الحياة تستحق أن تُعاش، فمعظم الوقت يكون الجواب هو السعادة أو الحب أو الأهمية أو حتى ببساطة المتعة. ولكن كل هذا هو جوانب للتجربة الواعية. "إنها لحقيقة ساخرة أن الخصائص التي أحِسَّت في التجربة الواعية، ربما الأشياء الوحيدة المهمة جوهريًّا بالنسبة لنا، غالبًا ما تُنفى في مرقد الفلسفة في حالة {الخصائص الثانوية} في المنطقة الظليلة بين الواقع واللاواقع، أو حتى ترمى في البحر برمتها." مذهب الفيزيائية، أو ما يشبهها تمامًا (برينستون، نيوجيرسي: صحافة جامعة برينستون، 2005)، 12-10.

20. آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer، العالم إرادةً وتمثلاً، المجلد 2 (مينولا، نيويورك: دوفر، 1958)، 13، على نحو مشابه، يكتب الروائي الكاثوليكي ووكر

بيرسي Walker Percy، "أصبحت النفس منذ عصر ديكارت معيارية، انفصلت عن كل شيء آخر في الكون، والعقل الذي يقرّ بأنه يفهم الأجسام والمجرات ولكنه... منبوذ وحيدًا في الكون حيث لا يتصل بشيء." ضائع في الكون: آخر كتاب للمساعدة الذاتية Lost in the Cosmos (نيويورك بيكادور، 1983)، 47.

21. إيان باربور Ian Barbour، قضايا في العلم والدين (نيويورك: هاربر & رو، 1972)، 67. للمزيد من التفاصيل حول وحدة الوجود الرومانسية انظر م. هـ. أبرامس M. H. Abrams، فوق الطبائعية الطبيعية: التقليد والثورة في الأدب الرومانسي (نيويورك: نورتون، 1971). وأثناء البحث عن الدعم العلمي ركّز الرومانسيون على عمل لايبنز Leibniz، وهو معاصر لنيوتن. بالنسبة لنيوتن فإن كل شيء كان مكونًا من ذرات، أي جزئيات صلبة دقيقة من المادة أما بالنسبة للايبنز فإن كل شيء كان مكونًا من عناصر أحادية التكافؤ monads وهي مراكز صغيرة للغاية للطاقة الروحية أو العقلية. يشتق المصطلح monad من الأفلاطونية الحديثة وقد وظّفها لايبنز ليقول إن الطبيعة هي متعضية واسعة مخضّبة بالروح أو النفس حيث كتب "إن الطبيعة الكاملة للأجسام لا تستوفى فقط ضمن امتدادها، فلنقل أحجامها، صورها، وحركتها، وإنما يجب علينا أن نلاحظ شيئًا ما يتعلق بالروح". انظر روح العلم، 84.

22. راندال Randall، صنع، 419.

23. ووكر بيرسي Walker Percy، معالم طريق في أرض غريبة (نيويورك، بيكادور، 1991)، 278. كان البابا السابق يوحنا بولس الثاني John Paul II فيلسوفًا متدربًا، "أشار إلى أن الانفصال الجذري بين التيارين العظيمين في الفلسفة الغربية [الواقعية مقابل المثالية] يتأصل في إطلاق صفة المطلق على أحد الجانبين من التجربة الإنسانية"- إما التجربة الخارجية (إطلاق صفة المطلق على العالم المادي) وو التجربة الداخلية (إطلاق صفة المطلق على الوعي). جاروسلو كوبتشاك Jaro-slaw Kupczak، قدره الحرية: الإنسان في فلسفة كارول فويتيالا/ يوحنا بولس الثاني (واشنطن، مقاطعة كولومبيا: صحافة الجامعة الكاثوليكية، 2000)، 76. انظر أيضًا روكو بوتيغليون Rocco Buttiglione، كارول فويتيالا: فكر الرجل الذي أصبح يوحنا بولس الثاني (غراند رابيدز، ميتشغن: إيردمانز، 1997) 68، 72.

لمناقشة كاملة، انظر الفصل الذي كتبته "إنجيل الحياة evangelium vitae: يوحنا بولس الثاني يقابل فرانسيس شيفر" في ميراث يوحنا بولس الثاني: مساعدة إنجيلية، تحرير تيم بيري Tim Perry (داونرز غروف: إيلينوي: إنتر فارسيتي، 2007).

24. من أجل بحث كامل لهذين التقليدين الفلسفيين، متتبعين التعبير عنهما من خلال الفنون والإنسانيات، انظر إنقاذ ليوناردو، الفصول 9-4.

25. يكتب آرثر لوفجوي Arthur Lovejoy أن الجانب البيّن للرومانسية كان "إعادة إنعاش للتأثير المباشر للأفلاطونية الحديثة." سلسلة الوجود العظمى: دراسة تاريخ فكرة (كامبريدج، ماساتشوستس: صحافة جامعة هارفرد، 1964)، 297. يكتب بول ريف Paul Reiff: "إن كان لنا الحق في أن نتكلم نيابةً عن أي شخص على الإطلاق {كمفتاح} لفهم الرومانسية، فهنالك شخص واحد فقط يستحق هذا التعبير، أفلوطين Plotinus،" مؤسس الأفلاطونية الحديثة. اقتُبس في كتاب أبرامز Abrams، فوق الطبائعية الطبيعية، 428. كانت الأفلاطونية الحديثة التي أسسها أفلوطين السبيل الرئيس الذي أثر من خلاله الفكر اليوناني بعلماء اللاهوت المسيحيين خلال كامل العصور الوسطى (ويتضمن ذلك أوغسطين، أوريجانوس، ديونيسيوس الزائف، يوهانز سكوت أريجينا وبابا الكابادوكيا). وحتى الفلسفات الأخرى مثل الأرسطية كانت تُقرأ عادةً من خلال عدسة الأفلاطونية الحديثة إلى أن أصبحت الكتابات الإضافية لأرسطو متوفرة من الترجمات العربية (القرن الثاني عشر) والنسخ اليونانية من القسطنطينية (القرن الثالث عشر). كانت الأفلاطونية الحديثة أيضًا في قلب الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا والتي فعلت الكثير لتبدأ النهضة. عند ولادة العلم الحديث، أثّرت الأفلاطونية الحديثة في رموز متنوعة مثل الكيميائيين الأوائل باراسيلسوس Paracelsus وفان هيلمنت Van Helmont، والفلكيين كوبرنيكوس Copernicus وكيبلر Kepler وكل من لايبنز ونيوتن. (انظر روح العلم). لذا فمن غير المفاجئ أن الرومانسيين لا يزالون يعتبرون الأفلاطونية الحديثة خيارًا فكريًّا قابلاً للحياة.

يلخص لويد جيرسون Lloyd Gerson ما يلي: "في كتابات فلاسفة النهضة الإيطالية، للماء الإنسانيات من القرنين الخامس عشر والسادس عشر جون كوليت John co-

let وإيرازموس روتردام Erasmus of Rotterdam وتوماس مور Thomas More والأفلاطونيين من جامعة كامبريدج في القرن السابع عشر والمثاليين الألمان خصوصًا هيغل Hegel فإن الفكر الأفلوطيني (غير معترف به أحيانًا) كان الأساس لمعارضة التقليد المنافس الذي يزداد تأثيرًا من الفلسفة العلمية." "أفلوطين،" موسوعة ستانفورد للفلسفة، تحرير إدوارد ن. زالتا Edward N. Zalta، صيف 2014 تحرير

/http: / /plato.stanford.edu /archives /sum2014 /entries /plotinus

26. انظر لوفجوي Lovejoy، السلسلة العظيمة. تقنيًّا فإن الأفلاطونية الحديثة ليست الحلولية أو وحدة الوجود pantheism وإنما وحدة الموجود panentheism. ما هو الفرق؟ في وحدة الوجود التقليدية فإن العالم المادي عبارة عن وهم، أما في وحدة الموجود فإن العالم المادي حقيقي ولكنه تجسيد للإله ومشبع بالروح. وكتوضيح للأمر، فكّر في نافورة في الشتاء عندما تتجمد الطبقة العلوية: إن الجليد هو تجمّد المياه بحد ذاتها، بينما يستمر الماء في التدفق تحت السطح.

كيف يمكن لجوهر غير ذاتي أن يخلق العالم بما أنه لا يستطيع أن ينوي أو يفعل بوعي؟ أجابت الأفلاطونية الحديثة على ذلك بأن الواحد كان "ممتلئًا" للغاية في كينونته فانبعث ببساطة إلى كائنات أخرى على نحو تلقائي، من دافع الضرورة، دون أي نية واعية، كما تشعّ الشمس ضوءها أو كما تنهمر المياه من النافورة. كانت بعض هذه الأفكار في البيئة الثقافية عندما كان العهد الجديد يُكتب، وخصوصًا في أوائل الأدرية (الغنوصية) Gnosticism. في سفر رسالة بولس إلى أهل كولوسي، عندما يتكلم بولس عن "العروش، الممتلكات، الإمارة والسلطات،" فإنه في الواقع يشير إلى الكينونات الروحية (المستويات الأعلى) التي تنبعث من الواحد صدرت من "ملء" كينونته، كان "الملء" مصطلحًا تقنيًّا (في اليونانية: pleroma) يصف مجموع هذه المستويات الروحية الأعلى.

27. إيغلتون Eagleton، الثقافة وموت الإله، 96؛ ورالف والدو إيميرسون Ralph Waldo Emerson، "الروح العليا" في الاعتماد على النفس، الروح العليا ومقالات أخرى (كليرمونت، كاليفورنيا: كويوت كانيون، 2010)، 56.

28. انظر لوفجوي Lovejoy، "علمنة سلسلة الوجود"، الفصل 9 في السلسلة العظمى،

87-242. تأتي استعارة السلّم المتحرّك من ماري ميدغلي Mary Midgley، التطور كَدِين (لندن: ميثون، 1985). في الفصول التي ساهمت فيها في كيف يجب أن نعيش الآن؟ بينتُ أن العديد من الإيديولوجيات الحديثة هي تنوعات من أسطورة السلّم المتحرك، خصوصًا الماركسية والعديد من الحركات الليبرالية المتفرعة عنها. انظر الفصول 29-23.

29. فريدرك نيتشه، العلم المَرِح، The Gay Science الكتاب الخامس، القول المأثور 357. بسبب تأثير هيغل، كان العديد من الأوروبيين يفكرون مسبقًا وفق التصنيفات التطورية قبل داروين، وكانوا ينتظرون فقط شخصًا ليملأ المكان الفارغ لقطعة الأحجية البيولوجية؛ وجورج فيلهلم فريدرك هيغل، الفلسفة تجدي نفعًا (3 في 1)، ترجمة ويليام والاس William Wallace (أكسفورد: صحافة كلارندون، 1894)، فلسفة الحق، القسم 342. إن كلمة "العقل" هي الكلمة الألمانية Geist والتي هي جذر للكلمة ghost (روح) في الإنكليزية وتترجم إما (روح) أو (عقل).

30. جون هيرمان راندال John Herman Randall، الفلسفة بعد داروين (نيويورك: صحافة جامعة كولومبيا، 1977)، 8.

31. "تمامًا كما منحت مثالية العلم الكلاسيكي صفة المطلق للحركة الميكانيكية فإن مثالية العلم التاريخي منحت صفة المطلق بالطريقة نفسها لجانب التاريخ." دووي ويرد Dooyeweerd، جذور، 183. وللاطلاع على إرهاصات لمذهب تاريخية هيغل انظر جون باسمور John Passmore، "التقدم بوساطة التقدم الطبيعي: من يهوذا Joachim إلى ماركس"، الفصل 11 في كمال الإنسان، الإصدار الثالث. (إنديانا بوليس: صندوق منظمة الحرية، 2000).

32. باسمور، الكمال، 369.

33. ستيفن بينكر Steven Pinker، "المشكلة مع هارفرد"، نيو ريبابليك، 4 سبتمبر (أيلول)، 2014.

34. سولومون Solomon، الفلسفة القارّية، 57. مثلاً، بالنسبة لهيغل، لم تكن الأخلاق "موضوع مبدأ عرقي، وإنما جزءًا من حياة فيها قيم ومشاعر وعادات مشتركة" ضمن

جماعات محددة (70)؛ وهيغل، فلسفة الحق، القسم 344. "رأت مثالية هيغل التاريخَ على أنه بسط لروح مطلقة من خلال عملية جدلية ضرورية، وقد ترك هذا لإلإطار مكانًا صغيرًا لحرية أو أهمية الإنسان الفرد." توماس ويليامز Thomas Wil-liams وجان أولوف بنغستون Jan Olof Bengtsson، "مذهب الذاتانية per-sonalism" في موسوعة ستانفورد للفلسفة، 12 نوفمبر (تشرين الثاني)، 2009.

35. إن علمنة فكر هيغل كانت جزئيًّا من صنع أتباعه، كان العديد منهم ماديين مثل ماركس (أحب ماركس أن يقول بأنه "قلب هيغل على رأسه" من خلال الاقتراح بأن القوى المادية هي من تشكل الأفكار بدلاً من العكس.) بينما يقص غيرهم تدريجيًّا العقل المطلق ليصبح حجمه مناسبًا. أصبح في البداية الوعي الإنساني: أطلق علم الظواهر phenomenology صفة المطلق على وعي الإنسان (تكلم هسيرل Husserl نن الوعي وكأنه "كائن مطلق"). ومن ثمّ أصبح وعيًا فرديًّا: عاملت الوجودية exis-tentialism النفس وكأنها المطلق (كتب مورلو بونتي Merleau-ponty، "أنا المصدر المطلق"). انظر سولومون Solomon، الفلسفة القارية، الفصول 9، 12.

36. بالنسبة لهيغل، "يمكن للفرد أن يوجد بحد ذاته فقط ضمن جماعات محددة. إن الفرد هو منتج وليس مقدمة ضرورة للنظام الاجتماعي." ديفيد ويست David West، مقدمة للفلسفة القارية، الإصدار الثاني. (مالدن، ماساتشوستس: بوليتي، 2010)، 40.

37. دووي ويرد Dooyeweerd، جذور، 179. كان دووي ويرد يكتب قبل ظهور ما بعد الحداثة، لكنه رأى بوضوح أن النزعات ذاتها كانت جليّة في الرومانسية: "استبدلت الرومانسية بإنجيل الجماعة الفردية والمستقلة إنجيلَ الفرد المستقل والغريب [من عصر التنوير]". جذور، 79-178.

38. ستانلي ج. غرينز Stanley J. Grenz، كتاب تمهيدي فيما بعد الحداثة (غراند رابيدز، ميتشغن: إيردمانز، 199)، 8. يقول تيري إيغليتون Terry Eagleton فيما بعد الحداثة، إن الحضارة "تعمل كنوع من المطلق". ويضيف أنه في هذا الصدد تبدي ما بعد الحداثة نفسها بأنها خليفة المثالية والتي بالنسبة لها فإن "الحضارة هي الاسم العلماني للإله." الثقافة وموت الإله، 191، 77. رورتي Rorty، "التكافل

أم الموضوعية". في الموضوعية، النسبية، والحقيقة (كامبريدج، صحافة جامعة كامبريدج، 1991)، 23.

39. دون كوبيت Don Cupitt، أليس هنالك شيء مقدس؟ الفلسفة اللاواقعية للدين (نيويورك: صحافة جامعة فوردهام، 2002)، 34. وفقًا لـ ج. ب. مورلاند J. P. Moreland وويليام لين كريغ William Lane Craig، فإن التيارين الرئيسين للفكر الغربي هما "المذهب الطبيعي لعصر التنوير ومذهب مناهضة الواقعية في عصر ما بعد الحداثة." أسس فلسفية لرؤية كونية مسيحية (داونزر غروف: إيلينوي: إنتر فارسيتي، 2003)، 1.

40. نيتشه، "في الحقيقة والكذب بمعنى خارج الأخلاق" (1873)، الفلسفة والحقيقة: مختارات من مفكرات نيتشه في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، ترجمة وتحرير دانيل بريزيل Daniel Breazeale (الجبال الأطلسية، نيوجرسي: الإنسانيات، 1979)، 88.

41. يكتب الفيلسوف روجر سكروتون Roger Scruton، "إن الافتراض بأن هنالك يقينًا من منظور الشخص الأول، والذي يزوّد بنقطة انطلاق للاستفسار الفلسفي... قد حُذف في النهاية من مركز الفلسفة." تاريخ وجيز للفلسفة الحديثة: من ديكارت إلى فيتغنشتاين (نيويورك: تايلور & فرانسيس، 2002)، 292. انظر المناقشة التي كتبها روجر لوندين Roger Lundin، "تفسير الأيتام: تأويلات في التقليد الديكارتي،" في وعد التأويلات (غراند رابيدز، ميتشغن: إيردمانز، 1999).

42. كاثرين تيمبف Catherine Timpf، "مخططات هارفرد {القوى الإجبارية وتدريب الحظوة} من أجل طلاب علم السياسة،" كامبس ريفورم campus Reform، 13 مايو (أيار)، 2014.

43. "سوف يأمل المرء أن يكون كل شخص عنده حذر كاف بحيث عندما يقرأ لكانط Kant أن يمتلك القابلية لأن يدرك السياق التاريخي وأن يفهم بطريقة ناقدة العبارات التي تبدو لا أخلاقية، متعصّبة أو أنها علميًّا تجاوزها زمننا. سوف يأمل المرء أن الآباء الذي يشترون كتب كانط Kant من أجل أولادهم أن يستطيعوا فعل الأمر ذاته دون تنبيه من الناشرين." جوش جونز Josh Jones، "يضع الناشرون لصاقة تحذير ككياسة سياسية على كتب النقد لكانط Kant،" ثقافة منفتحة، 20 مارس (آذار)، 2014.

44. دالاس ويلارد Dallas Willard، "ما هي الأهمية التي تمتلكها {ما بعد الحداثة} بالنسبة للإيمان المسيحي؟}"

www.dwillard.org /articles /artview.asp?artID=70

45. ريتشارد رورتي Richard Rorty، إمكانية، سخرية، تكافل (كامبريدج: صحافة جامعة كامبريدج، 1999)، 22.

46. رورتي Rorty، إمكانية، 21.

47. دووي ويرد Dooyeweerd، النقد الحديث، 58:I، رقم 3.

48. نيرفانا "هي حالة ما وراء الرغبة ودون الرغبة أو الوجود الذاتي الفردي." "رغم الاختلافات المهمة بين هاتين الديانتين (والتعددية ضمن كل ديانة)، فإن التجربة التنويرية حوت كلًّا من نيرفانا (البوذية) وموكشا (الهندوسية) من حيث تتطلب إنكار الفردية والذاتية." إن الوجود الفردي الذاتي "يذوب في اللاهوت اللاذاتي." غروذايس Groothuis، علم الدفاع عن العقائد المسيحية، 87-385.

49. إيفان غرانجر Ivan Granger، "لي بو Li Po- اختفت الطيور في السماء [عنوان القصيدة]،" مدونة شعر شيخانا poetry Chaikhana Blog، 18 مارس (آذار)، 2013

www.poetry-chaikhana.com /blog /2013 /03 /18 /li-po-the-birds-have-vanished-into-the-sky-2/

يتابع غرانجر: "يُلاحظ {الجبل} أخيرًا أنه نفسك الحقيقة، نفسك الوحيدة، الخالدة." ذلك أن نفسك الفردية تذوب في وحدة وجود الإله الحال pantheistic diety.

50. لت سن تشانغ Lit-sen Chang، الوجودية الزنّية: الانحدار الروحي للغرب، مقتبسة في والتر ر. مارتين Walter R. Martin، مملكة العبادة، نقّحها وحدّثها وتوسّع بها (غراند رابيدز، ميتشغن: بيثاني، 2003)، 309.

51. أشارت حركة فلسفية تُدعى الذاتانية personalism إلى أن كلاً من الرؤى الكونية التنويرية والرومانسية تجرّد الشخص من الإنسانية: "الذاتانية... انبثقت فقط في سياق رد الفعل النقدي الواسع ضد ما يمكن تسميته الفلسفات اللاذاتية المتنوعة

التي حدث أن هيمنت على التنويرية والرومانسية بهيئة أشكال عقلانية ورومانسية لوحدة الوجود والمثالية... لذا ظهرت الذاتية كرد فعل على أنماط لاذاتية للفكر، والتي نظر إليها بأنها مجرّدة من الإنسانية. الديناميكية اللاذاتية لوحدة الوجود الحديثة والواحدية الحديثة في كل من شكليهما العقلاني والرومانسي تشكلان الأساس للعديد من الفلسفات الحديثة التي تناهضها الذاتانية personalism، المثالية بالإضافة إلى المادية... من الممكن أن تُفهم بعض الخصائص المميزة بأنها تتبع عمومًا للذاتانية بحد ذاتها. وتتضمن هذه إصرارًا على الاختلاف الجذري بين الذاتيات واللاذاتيات وعلى عدم قابلية اختزال الذات إلى عوامل روحية أو مادية لاذاتية." ويليامز Williams وبنغتسون Bengtsson، "الذاتانية" موسوعة ستانفورد للفلسفة.

52. في القرآن الكريم، يُصوَّر المَلَك جبريل بأنه يقرّ بالكتب المقدسة السابقة "مصدّقًا لما بين يديه" (سورة البقرة الآية 97). هذه الكتب المقدسة السابقة هي التوراة اليهودية ومزامير داود وإنجيل عيسى المسيح (سورة النساء الآية 163، سورة المائدة الآية 48-44).

53. سورة النساء الآية 171.

54. السيد حسين نصر، الإسلام: الدين، التاريخ، والحضارة (نيويورك: هاربر ون، 2002)، 3، 6؛ وانظر الحقيقة الكاملة الفهرس 2. يحاجُّ الفيلسوف الفرنسي رينيه غينون René gué-non (الذي تحوّل إلى الإسلام) بأن مفهوم اللاهوت على أنه مطلق لا ذاتي هو جوهر شائع يوحّد الأفلاطونية الحديثة في الغرب، الهندوسية في الشرق، والإسلام في الشرق الأوسط. انظر بارفيز مورويدج Parviz Morewedge، الأفلاطونية الحديثة والفكر الإسلامي: دراسات في الأفلاطونية الحديثة، القديمة والحديثة، المجلد 5 (نيويورك، سَني، 1992)؛ ماجد فخري، الفارابي، مؤسس الأفلاطونية الحديثة الإسلامية: حياته، أعماله، وتأثيره (روكبورت، ماساتشوستس، ون ورلد، 2002)؛ وإيان ريتشارد نيتون Ian Richard Netton، مسلمون من أتباع الأفلاطونية الحديثة: مقدمة إلى فكر إخوان الصفا (نيويورك: روتليدج، 2003). ملخص مفيد كتبه نيتون Netton يوجد في "الأفلاطونية الحديثة في الفلسفة الإسلامية،" الفلسفة الإسلامية أونلاين( ).

.www.muslimphilosophy.com /ip /rep /H003.htm

55. سي. إس. لويس C. S. Lewis، المسيحية المجردة (نيويورك: هاربر ون، 2000)، 174. يحيط الضعف الفكري ذاته بالوحدوية والربوبية، والتي قامت بالنسبة للعديد من الناس في الغرب بدور وسيلة مؤقتة للتقدم من الإيمان الحي إلى الإلحاد التام.

56. روبرت ليثام Robert Letham، الثالوث المقدس: في الكتاب المقدس، التاريخ، علم اللاهوت، والعبادة (فيليبسبرغ، نيوجرسي: 46-444 ،(2004 ،P&R.

57. ويليامز Williams وبنغتسون Bengtsson، "الذاتانية،" موسوعة ستانفورد للفلسفة.

58. أودو دبليو. ميدلمان Udo W. Middelmann، "أسلمة المسيحية،" مؤسسة فرانسيس أ. شيفر Fracis A. Schaeffer

www.theschaefferfoundation.com /footnote4_1.php

59. ساتشيكو موراتا Sachiko Murata وويليام سي. تشيتيك William C. Chittick، رؤية الإسلام (نيويورك: باراغون، 1994)

60. ريتشارد شويدر Richard Schweder، "ملحدون لا أدريون" نيويورك تايمز، 27 نوفمبر (تشرين الثاني)، 2006.

61. انظر ستيفاني كورتواه Stéphane Courtois، نيكولا ويرث Nicolas Werth، ماان لويس بانيه Jean-Louis Panné، أندريه باتشوسكي Andrzej Paczkowski، كاري بارتوسكي Karei Bartošek، جان لويس مارغولين Jean-Louis Margolin، الكتاب الأسود للشيوعية (كامبريدج، ماساتشوستس: صحافة جامعة هارفرد، 1990). انظر أيضًا ر. ج. روميل R. J. Rummel، الموت بسبب الحكومة (نيو برونسويك، نيوجرسي: معاهدة 1996)؛ وجانغ تشانغ Jung Chang وجون هاليديه John Halliday، ماو: القصة غير المعروفة (نيويورك: عشوائي، 2006).

62. جيلسون Gilson، الإله والفلسفة، 136.

63. ألدوس هكسلي Aldous Huxley، شياطين لودون (نيويورك: هاربر كولينز، 1952)، 123.

64. جون جراي John Gray، "وهم الملحد،" الغارديان، 15 مارس (آذار)، 2008.

65. قد تكون حتى هذه المُستعبِدات شيطانية. يعامل الكتاب المقدس الأوثانَ عادةَ على أنها واجهة للقوى الروحية. في العهد القديم، يقول المزمور إن بني إسرائيل قد قدّموا أبناءهم قربانًا للشياطين: " وَذَبَحُوا بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ لِلأَوْثَانِ ... الَّذِينَ ذَبَحُوهُمْ لأَصْنَامِ كَنْعَانَ" (سفر المزامير 38-37:106). في العهد الجديد، يحذر بولس بأن قرابين الأوثان " يَذْبَحُونَهُ لِلشَّيَاطِينِ" (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس 10:19-20). ماذا تعني هذه اللغة فوق الطبيعية الصريحة؟ تعاملُ العديد من الفلسفات الشرَّ على أنه مجرد افتقار للخير، كما يكون الظلام هو غياب للضوء. ولكن من عانى وطأة الأنظمة الظالمة المتعطشة للدماء يتكلمون غالبًا عن اختبارهم للشر على أنه قوة حقودٌ فاعلة. يعلن القس الروماني ريتشارد وورمبراند Richard Wurmbrand والذي سجنته السلطات الشيوعية لمدة أربع عشرة سنة أن الحراس كانوا يعذبون النزلاء وهم يصرخون، "نحن الشيطان". باختصار، ليس الخير والشر أمورًا مجردة فحسب. كما أن الخير لديه مصدره في كائن ذاتي فكذلك أيضًا يمتلك معظم الشر في العالم روابطه مع كائنات ذاتية قوية( ).

66. أشعيا برلين Isaiah Berlin، جذور الرومانسية (برينستون، نيوجرسي: صحافة جامعة برينستون، 1999)، 3.

67. ج. ك. تشيستيرتون G. K. Chesterton، الأرثوذكسية (روكفيل، ماري لاند: سيرينتي، 2009)، 54.

68. جونسون Johnson، الخطوة الأولى، 33.

69. انظر هايز Hays، صدى، 38.

المبدأ الثالث: قفزات العلمانية الإيمانية

1. تحمل مدونة ديبورا ميتشل الاسم TXBlue08. "لماذا ربيت أولادي بدون الله"، تقرير الـ CNN، 14 كانون الثاني، 2013.

2. تفشل حجة كاتب مقال الـ CNN من الناحية المنطقية أيضًا؛ لأنه إذا كانت حجتي ضد وجود الله هي وجود ظلم وقسوة شديدين في العالم، فذلك يفترض معيارًا أخلاقيًا يمكننا من خلاله تحديد الظلم. لكنَّ الكون المادي الصرف لا ينتج معاييرَ أخلاقية. فهو يخبرنا فقط بـ ما

هو حقيقةً، وليس بما يجب أن يكون عليه. لذلك لا تقدم المادية أساسًا للقول إنَّ العالم غير عادل. علاوة على ذلك إن كان البشر ليسوا إلا آلاتٍ كيميائية حيوية معقدة، فمن غير المنطقي حينها تسمية أفعالهم أنها شريرة. ليس للآلات القدرة على الاختيار بين الخير والشر، ولا نستطيع حتى تحميلها مسؤولية أفعالها.

3. إنَّ الظاهراتي إدموند هوسرل هو مصدر معظم هذه العبارات. راجع:

Richard Kearney, Modern Movements in European Philosophy, 2nd ed. (Manchester: Manchester University Press, 1994), 13-15.

استخدم هيرمان دوويويرد مصطلح "الخبرة ما قبل النظرية" أو "الخبرة الساذجة". وهي ليست نفسها "الواقعية الساذجة" أو نظرية منسوخة للمعرفة؛ إنما تشير لـ "حقائق ما قبل النظرية، تتعلق بالبنية الداخلية" للتجربة. الغسق Twilight، 14. ولنظرية المعرفة المعدلة تقريبًا الفكرة ذاتها في مفهومها عن المعرفة "ذات الأساس المناسب" وهو أمر يظهر جليًّا دون الحاجة للاستدلال المنطقي أو الحجة الاستطرادية. إنَّ ما ألهم نظرية المعرفة المعدلة جزئيًّا هو الحقيقة البدهية لتوماس ريد Thomas Reid. حيث ناقش توماس ريد وجودَ حقائق "يؤدي بنا دستور طبيعتنا للإيمان بها، ونحن مضطرون للتسليم بها في شؤون حياتنا العامة، دون أن نكون قادرين على تقديم سببٍ لها". كتاب التحقيق Inquiry, 33؛ ولمزيد من التفاصيل راجع كتاب الحقيقة الكاملة، الفصل 11.

4. Dooyeweerd, New Critique, I:83 and Twilight, 14.

تمكن البشر من خلال التجربة الرصينة ما قبل النظرية من الوصول لـ "حالات علائقية مسلم بها" في "النظام الكوني"؛ هي مسلمٌ بها لأنَّها "تفرض نفسها على الجميع". و"لأنَّ المهمة العامة لجميع التيارات والمدارس الفلسفية هي تفسير تلك الحالات".

New Critique, I:115–16; II:71–73.

5. J. P. Moreland, The Recalcitrant Imago Dei: Human Persons and the Failure of Naturalism (London: SCM, 2009), 4.

6. كتب ألفين بلانتينغا Alvin Plantinga: "يظن بعض الناس أنَّ جان كالفن John Calvin نفسه هو مصدر وأصل fons et origo الإصلاح المسيحي Reforme-

dom بقبوله الحتمية. لكن ذلك ليس جليًّا تمامًا. يؤمن جان كالفن بالأقدار بالطبع، لكن لا يتبع ذلك التصديق بالحتمية. فالأقدار كما يراها جان كالفن لها فعلها في مهمة الخلاص؛ فهي لا تدل أبدًا ما إذا كان بإمكاني أن أختار بحرية القيام بنزهة بعد ظهر اليوم أم لا".

Plantinga, "Bait and Switch," Books and Culture, January /February 2013.

وعلى النمط نفسه كتب لوثر Luther كتاب عبودية الإرادة The Bondage of the Will يناقش فيه أنَّ البشر لا يسعهم المشاركة في خلاصهم. لكن لم يقصد أنَّنا لا نستطيع اختيار ما نرتدي لليوم مثلاً.

7. Sean Carroll, "Free Will Is as Real as Baseball," Cosmic Variance (blog), Discover, July 13, 2011

http://blogs.discovermagazine.com/cosmicvariance/2011/07/13/free-will-is-as-real-as-baseball/#.WgGHkrGxWM8

يعيد شون كارول Sean Carroll صياغة المكتوب في كتاب:

John Searle, Freedom and Neurobiology: Reflections on Free Will, Language, and Political Power (New York: Columbia University Press, 2004), 11.

8. يستشهد كليف ستيبلز لويس بالحجة ذاتها في حجته عن الأخلاق من كتاب المسيحية المجردة Mere Christianity. حيث تستند حجته على حقيقة أنَّ البشر يتخذون أحكامًا أخلاقية دون أن يستطيعوا مقاومة ذلك أو تجنبه؛ ولذلك من الأفضل لنا إيجاد فلسفة تفسر هذا السلوك: وبكلماته هو: "نحن مجبرون على الإيمان بصواب وخطأ حقيقيين" (7). إنَّ الأخلاق هي بين تلك "الأمور المزروع فينا التفكير بها" (14)، "سواءً أحببنا ذلك أم لا فنحن نصدق بقوانين الطبيعة" (8). "لا يمكننا التخلص من الفكرة [القانون الأخلاقي]، وتصبح معظم الأمور التي نقولها ونفكر بها حول البشر مجرد هراء إذا تخلصنا من تلك الفكرة" (20). فمثلاً إذا لم نعترف بخطأٍ وصوابٍ

حقيقيين فعندها "تصبح جميع الأمور التي قلناها عن الحرب [مثل شرور النازية] مجرد هراء" (5). (أُضيفت كل الخطوط السميكة). حجة لويس (رغم أنَّه لم يوضحها) هي وجود طرقٍ جوهرية محددة للتفكير والتصرف في الطبيعة البشرية، وأنَّ هذه التجربة البشرية الأساسية يجب أن تكون مورد معلوماتٍ لفلسفتنا. بالمختصر، من الأفضل لنا إيجاد فلسفة تعطي معنى لتصرف البشر تصرفًا حتميًّا.

9 Saul Smilansky, Free Will and illusion (Oxford: Claren-
don, 2000), 169.

أساسًا فإنَّ قوة الاختيار هي ببساطة القدرة على إعادة توجيه مجرى الأحداث. إنَّ عالم الصناعات البشرية – من مدن وأبنية وتقنيات وحواسيب وكتب وأفلام – بكامله يقدم شهادة بليغة لقدرة البشر على استخدام القوى الطبيعية لخلق أشياء لا يمكن لسلوك الطبيعة نفسه خلقها. يذكر هيرمان دوويويرد أنَّ مفهوم الثقافة البشرية "يعني أساسًا حرية تشكيل المادة". الجذور Roots، 21.

10- Smilansky, Free Will, 284, 166.

11. يقول ريك لويس Rick Lewis: "تعدُّ طبيعة الوعي مشكلة فلسفية مركزية في الفلسفة، خصوصًا في السنوات الأخيرة". مأخوذ من:

"Consciousness," Philosophy Now, July/August 2014.

ننالك موقفٌ ثالث مشهور أيضًا بين الفلاسفة يدعى مذهب التوافقية compatibi-lism. يقبل هذا الموقف الحتمية في حين يدَّعي أنَّ البشر يملكون حرية الإرادة. أي نوع من حرية الإرادة؟ إنَّ تعريف التوافقية compatibilism لحرية الأفعال هو تعريف توجهه من الداخل رغبات الشخص وأسبابه، دون قيودٍ خارجية. إلا أنَّ هذه الأسباب والرغبات الداخلية نفسها محددة بالحتمية. تظهر جميع حالاتنا العقلية من حالات أخرى خارج عقولنا، وبذلك فهي خارج نطاق سيطرتنا. وبالتأكيد ليس هذا ما يقصده الناس بحرية الإرادة. فمثلاً في نقاش توافقية دانيال دينيت Daniel Dennett كتب مايكل نورفيتز Michael Norwitz: "هنالك تضحية في ذلك بخسارته مسار رؤانا البدهية العادية حول ماهية العقل وحرية الإرادة. حيث يدَّعي دانيال دينيت أنَّه يتكلم لغة فلسفية عادية، لكني أشك أنَّه كان أكاديميًّا، ذلك أنَّه نسي ما

يهتم به 'الناس العاديون'". تأتي توافقية دانيال دينيت "بتكلفة عدم مقاربة ما نحن قلقون بالفعل بشأنه بخصوص ما إذا كنا نمتلك حرية إرادة أو مسؤولية".

"Free Will and Determinism," Philosophy Now, July/August 2014.

12. Galen Strawson, interview by Tamler Sommers, "You Cannot Make Yourself the Way You Are," The Believer, March 2003.

يقول غالين ستراوسون Galen Strawson إنَّه يقصد بـ "الإرادة الحرة الراديكالية" الاستخدام العادي للمصطلح: "أقصد ما يقصده كل شخص تقريبًا. يؤمن جميع البشر تقريبًا أنَّهم أحرار في اختيار ما يفعلونه بطريقة يكونون بها مسؤولين بصدق وأصالة عن أفعالهم بأقوى معنى ممكن... وينطبق الأمر ذاته أيضًا تمامًا على المسؤولية الأخلاقية في حال القضايا الأخلاقية".

13. Galen Strawson, "On Free Will," Richmond journal of Philosophy 4, summer, 2003.

14. Johnson, First Step, 11.

15. Edward Slingerland, What Science Offers the Humanities. Integrating Body and culture (New York: Cambridge University Press, 2008), 6, 218, 289-95.

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

16. يستخدم أحيانًا مصطلح الثنائية dualism لوصف تعاليم الدين حول الجسد والروح؛ لكنَّ الاختلاف الجوهري هو رؤية الدين لهذين الشيئين بأنَّهما متكاملان، وليسا متناقضين. وبكلمات بولس فإنَّ الجسد هو "الْخَارِجُ"، أي الطريقة التي نستخدمها للتفاعل مع العالم المادي، في حين أنَّ الروح هي "الدَّاخِلُ" [رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس 4: 16]. وعند الموت يخضع البشر لانفصال مؤقت للروح مع الجسد، لكن لذلك يدعى الموت "آخِرَ عَدُوٍّ" [1 كو 15: 26]؛ لأنَّه يفصل ما أراد الله توحيده. وفي الخلق الجديد سيعاد اتحادهما للأبد.

17- Julie Reuben, The Making of the Modern University: Intellectual

Transformation and the Marginalization of Morality (Chicago: University of Chicago Press, 1996, 17.

18- Marvin Minsky, The Society of Mind (New York: Simon & Schuster, 1986), 307

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي في القسم الأول من الاقتباس، أما في القسم الثاني فقد أضيفت له).

19. يُقصد بـ "القفزة الوجودية" التمسك بأنَّ الحياة – واستنادًا إلى أسس عقلية – لا تحمل أيَّ معنى، لكن تصر – دون أسس عقلية – أنَّها كذلك. "فمن ناحية يسعى الوجوديُّ ليبقى متوافقًا مع رؤيته الأصلية للامعنى وعقم كل شيء..؛ ومن ناحية أخرى فحقيقته الشخصية الشديدة هي أنَّه يجد نفسه غير قادر على التوافق مع حقيقة العدمية وجوديًّا، وغير قادر على تأكيدها كحقيقة شخصية له،....: ففي هذه النقطة يعلق في براثن حيلة الالتزام، آملاً إنقاذ نفسه من اليأس العدمي بقفزة مستميتة باتجاه إيمانٍ سيعيد الغاية والمعنى لعالمه المحطم".

R. W. K. Paterson, The Nihilistic Egoist: Max Stirner (Oxford: 1971), 238.

20. Smilansky, Free Will. 6, 145, 187.

بالنسبة لما قصده سميلانسكي Smilansky بـ "الضرورة الأخلاقية،" راجع الصفحات من الكتاب الإنكليزي 8–7، 153، 158، 278. "لا يمكننا العيش" على أساس الحتمية: 154، 170، 246، 296. "علينا" تعزيز وهم حرية الإرادة: 188–187.

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

21. المراجعة لـ:

Tom Clark, "The Viability of Naturalism," Naturalism, org, www.naturalism.org/resource.htm.

وبالمثل، كتب مات ريدلي Matt Ridley في كتابه الأكثر مبيعًا الجينوم Genome "إنَّ المسؤولية الكاملة عن أفعال الفرد هي خيالٌ ضروري، دونه تتخبط القوانين، لكنَّه مع ذلك مجرد

خيال".

Genome: The Autobiography of a Species in 23 chapters (New York: HarperCollins, 1999), 309.

22. Richard Dawkins, "Let's all Stop Beating Basil's Car," Edge, http://edge.org/response-derail/11416.

23. كانت تلك من ملاحظات دوكنز في جلسة أسئلة وأجوبة في مكتبة في واشنطن العاصمة. وقد ذكرتها في كتاب إنقاذ ليوناردو Saving Leonardo, 152–53. بالطبع فحتى مفهوم خلل عمل malfunctioning الآلات ليس له مكان في فلسفة دوكنز المادية، لأنَّه يشير للغائية، بأنَّ لشيء ما غاية، أو معيارًا فَشِلَ في تحقيقه. يحاول دوكنز تفادي اللغة الأخلاقية للخير والشر، لكن يتطلب مفهوم خلل العمل معيارًا ما للعمل الصحيح.

24. مستشهد من كتاب:

Walter Isaacson, Einstein: His Life and Universe (New York: Simon & Schuster, 2007), 391, 392.

(الخطوط السميكة مُضافة).

ما غفل عنه أينشتاين هو أنَّه حتى عمله العلمي يعتمد على حرية الإرادة: "لو لم يكن لأينشتاين حرية إرادة ذات معنىً، فلن يكون مسؤولاً عن نظريته النسبية؛ ستكون حينها نتاج عمليات ذات مستوى أدنىً، وليست نتاج عقلٍ ذكي يختار من بين خيارات ممكنة." من مقابلة:

George Ellis, interview by John Horgan, "Physicist George Ellis Knocks Physicists for Knocking Philosophy, Falsification, Free Will," Scientific American, July 22, 2014.

25. كانط؛ نقد العقل الخالص, Immanuel Kant, Critique of Pure Reason, trans. Werner Pluhar (Indianapolis: Hackett, 1996), A811

من الأمثلة الأخرى عن كانط حول منطقية كما لو: في علم اللاهوت، لا يمكننا أبدًا معرفة ما إذا كان الله هو سبب العالم، لكننا نستطيع إظهار "كل الأجسام كما لو أنَّ أصلها يعود لمثل

هذا النموذج الأصلي" (CPR A673 / B701). في علم الكونيات، لا يمكننا أبدًا معرفة ما إذا كان العالم له بداية أو نهاية، لكننا قادرون على العمل "كما لو أنَّ له بداية مطلقة، من خلال سبب ذكي له" (CPR A 685 / B713). لا يمكننا معرفة ما إذا كان هنالك خالق، لكننا نستطيع "اعتبار كل صلة في العالم تتبع مبادئ وحدة النظام، ذلك كما لو أنَّها جميعًا قد ظهرت من كائن واحد مفرد مهيمن، من سبب خارق للطبيعة وغنيٍّ عن كل شيء" (CPR A686 /B7 14). وفي علم النفس، لا يمكننا تفسير الروح أو النفس، لكن يمكننا "ربط كل التظاهرات، وكل الأفعال وقابلية التلقن بعقلنا، كما لو كان العقل مادةً بسيطة تلجُّ في الهوية الشخصية" (CPR A672 /B700). راجع:

Howard Caygill, ed., A Kant Dictionary, s.v. "As-if" (Oxford: Blackwell Publishing, 1995), 86.

يصنف كانط منطقية كما لو كـ"مبادئ تنظيمية".

يندد الكيميائي والفيلسوف مايكل بولاني Michael Polanyi بتفكير كما لو باعتباره شكلاً من المراوغة؛ فقال: "كانت نظم المراوغة الفكرية الحديثة في مبادئه التنظيمية." وشرح السبب قائلاً: "إنَّ المعرفة التي نتمسك بصحتها – وهي حيوية لنا – سهلة القبول، ذلك أنَّنا لا نستطيع تفسير قبولها من ناحية فلسفة نقدية. وسنشعر حينها أنَّنا أهلٌ للمضي باستخدام تلك المعرفة، حتى عندما يغرينا حِسُّنا بالتفوق الفكري بالانتقاص منها. ونحن بالفعل نستمر باعتمادها، نعتمد بحزم على هذه المعرفة المحتقرة لتوجه وتقدم معنىً لاستفساراتنا الأدق، في حين نتظاهر أنَّها وافقت تلقائيًّا وحدها معاييرَ صرامتنا العلمية".

Personal Knowledge: Towards a Post-Critical Philosophy (New York: Routledge, 1962), 354.

26. Eric Baum, What Is Thought? (Cambridge, MA: MIT Press, 2004), 433-34.

"حتى إنَّها ليست خاطئة" جملة صاغها الفيزيائي فولفغانغ باولي Wolfgang Pauli. علَّق فولفغانغ باولي عند قراءة ورقة لفيزيائي شاب بـ "هذه الورقة سيئة للغاية، لدرجة أنَّها ليست خاطئة." بكلمات أخرى، هي ليست حتى ضمن مجال الإجابات الممكنة.

27. McGinn, "All Machine and No Ghost?"

(الخطوط السميكة مُضافة).

28. Francis Schaeffer, The God Who Is There, in the Francis A. Schaeffer Trilogy (Wheaton, IL: Crossway, 1990), sect. 2, chaps. 2-4.

29. Slingerland, What Science Offers, 255, 289. Slingerland, "Mind-Body Dualism and the Two Cultures," in Creating Consilience: Integrating the Sciences and the Humanities, ed. Edward Slingerland and Mark Collard (Oxford: Oxford University Press, 2012), 83, 84.

30. Rodney Brooks, Flesh and Machines: How Robots Will Change Us (New York: Pantheon, 2002), 174.

ولمزيد من الموضوعات المتعلقة بهذا الفصل راجع كتاب الحقيقة الكاملة، طبعة دليل الدراسة، ومقالي "التصميم الذكي والدفاع عن المنطق،" في:

Darwin's Nemesis: Phillip Johnson and the Intelligent Design Movement, ed. William A. Dembski (Downers Grove, IL: InterVarsity, 2006).

31. يقول هيرمان دوويويرد فيما يتعلق بتسبيب الأصنام للثنائيات والتنافر: "يعرض النظام الكوني حُكمًا داخليًا على المطلقات النظرية" للفلسفات القائمة على الأصنام. "إنَّ النظام العالمي الإلهي.. يثأر لنفسه من كل تقديس" للمخلوق الدنيوي. New Critique, II:334. 363. ولذلك – بتخلي الله عن الناس لأصنامهم – تُناقض فلسفاتهم النظامَ الكوني نفسه على نحو متزايد.

32. G. K. Chesterton, The Everlasting Man (San Francisco: Ignatius, 1993), 143, 141.

لكن وما يثير السخرية أنَّ هؤلاء العلمانيين أنفسهم يدَّعون أنَّهم "مفكرون أحرار." فيرد جلبرت شيسترتون بـ: غير منطقي. علينا أن نحتجَّ بشدة عندما يغلق علينا العلمانيون "كل أبواب السجن الكوني، ويصدعون رؤوسنا فيه بطرق الحديد الأبدي، عندما يخبروننا أنَّ انعتاقنا هو مجرد حلم، وأنَّ مكوثنا في زنزاناتنا ضرورة؛ ثم يستديرون بهدوء ويخبروننا أنَّ لديهم فِكرًا حرًّا".

33. Schopenhauer, The World as Will and Representation, 421.

34. Rorty, Contingency, Irony, and Solidarity, 3.

35. Dallas Willard, "Truth in the Fire," presented at the C. S. Lewis Centennial, Oxford, July 21, 1998, www.dwillard.org/articles/artview.asp?artID=68.

36. Rorty, Contingency, 5.

37. William Lane Craig, "God is Not Dead Yet," Christianity Today, July 3, 2008 .

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

يشكل توضيح هذا الانقسام بين الحقائق والقيم موضوعًا أساسيًّا في كتاب الحقيقة الكاملة.

38. Ernest Gellner, Legitimation of Belief (New York: Cambridge University Press, 1974), 193-95.

39, "Seeking Christian Interiority: An Interview with Louis Dupre," Christian century, July 16-23, 1997.

40. Derek Parfit, "Reductionism and Personal identity," in Philosophy of Mind: classical and contemporary Readings, ed. David J. Chalmers (Oxford: Oxford University Press, 2002), 661.

(الخطوط السميكة مُضافة).

41. Karsten Harries, "The Theory of Double Truth Revisited," in Politics of Practical Reasoning: Integrating Action, Discourse, and Argument, ed. Ricca Edmondson and Karlheinz Hulser (Lanham, MD: Lexington, 2012). (الخطوط السميكة مُضافة).

42. Francis Crick, interview by Roger Highfield, "Do Our Genes Reveal the Hand of God?," Telegraph, March 20, 2003.

43. يسمي فرانسيس شيفر هذه الاستراتيجية "خلع السقف"؛ أي إزالة درع الإنكار الذي ينصبه الناس لحماية أنفسهم من التداعيات الخطيرة والمضطربة لرؤاهم الكونية. راجع:

The God Who Is There, 140-42.

المبدأ الرابع: لماذا تنتحر الرؤى الكونية

1. التفسير التالي هو من مقابلة شخصية مع مايكل إيجنور Michael Egnor، بالترافق مع مقاله:

Egnor, "A Neurosurgeon, Not a Darwinist," Forbes, Feb 5, 2009.

2. Michael Ruse, Darwin and Design: Does Evolution Have a Purpose? (Harvard: Harvard University Press, 2003), 268.

(الخطوط السميكة مُضافة).

3. افترض داروين أنَّ آلية التنوع إضافة للانتقاء الطبيعي هي طرق يمكن بها للقوى المادية تقليد تأثيرات التصميم. وكما كتب المؤرخ نيل سي جيليسبي Neal C. Gillespie: أَمَالَ داروين تبيين "كيف يمكن للتكيف التدريجي والأعمى أن يزيف ما يبدو تصميمًا هادفًا" للأشياء الحية، والتي تبدو جليَّةً بظاهرها أنَّها "عملُ عقلٍ واعٍ".

Charles Darwin and the Problem of Creation (Chicago: University of Chicago Press, 1979), 83-85.

4. Czeslaw Milosz, The Discreet Charm of Nihilism," New York Review of Books, November 19, 1998. (الخطوط السميكة مُضافة).

5. Greg Koukl, "Suicide: Views That Self-Destruct," chap. 7 in Tactics: A Game Plan for Discussing Your Christian Convictions (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2009.

6. هنالك استثناء واحد. يخبرنا تحليل الأصنام أنَّ كل رؤية كونية تؤله جزءًا واحدًا من الخليقة، وتشوه (تُدني منزلة) البقية. لذلك فالرؤية الكونية الوحيدة التي لا تشوه المنطق هي الرؤية التي تؤلهه، وهي العقلانية. بالطبع للعقلانية مشكلات أخرى (مثلاً لا يمكنها تفسير من أين أتى المنطق)، لكنَّها ليست ذاتية التدمير، لأنَّها لا تختزل المنطق لما هو أدنى من المنطق.

7. تدعى الفلسفة الوضعية المنطقية بـ البرهنة verificationism. يتابع وليام لين كرايغ Craig قائلاً: "يعني سقوطها أنَّ الفلاسفة أحرار مرة أخرى في معالجة المشكلات التقليدية للفلسفة التي قمعتها فلسفة البرهنة. وأتت مرافقة هذا النهوض بالاهتمام بالأسئلة الفلسفية التقليدية بشيء غير متوقع جملةً، ألا وهو: عصر نهضة الفلسفة المسيحية".

Craig, "God Is Not Dead Yet."

8. راجع قسم الماركسية في كتاب الحقيقة الكاملة، 137–134 من النسخة الإنكليزية. وفصلي حول الماركسية في كتاب كيف سنعيش الآن؟ How Now Shall We Live? الفصل 24. رغم أنَّ الماركسية فقدت مصداقيتها في العالم الاقتصادي إلا أنَّ الماركسية الجديدة المزيفة كانت مرضًا مستوطنًا، خصوصًا في الحرم الجامعي. وتطبق حركات التحرر الراديكالية كثيرًا من التخطيطات التصنيفات الماركسية التحليلية.

9. "The origin of the holy lie is the will to power." Friedrich Nietzsche, The Will to Power, trans. Walter Kaufmann and R. J. Hollingdale (New York: Random House, 1967), sect. 142.

10. رفض سكينر المفهوم ذاته عن "ذكاء الوعي" على أساس أنَّ "النظريات التطورية... لم تُظهر أبدًا كيف يمكن أن يظهر التنوع غير المادي من اختيار حالات عارضة مادية للبقاء."

"Can Psychology Be a Science of Mind?," American Psychologist, November 1990. (الخطوط السميكة مُضافة).

11. أطلق بول ريكور Paul Ricoeur لقب ثلاثي المرجعية على الثلاثي: ماركس ونيتشه وفرويد "أسياد الشك،" والتصق بهم هذا اللقب. مارس هؤلاء المفكرون "تأويل الشك" والذي عامل العبارات العادية كتعابير "وعي خاطئ." راجع:

Freud and Philosophy, trans. D. Savage (New Haven CT: Yale University Press, 1970).

12. Alvin Plantinga, Where the Conflict Really Lies: Science, Religion, and Naturalism (Oxford: Oxford Univgrsity Press, 2011), 271.

13. Slingerland, What Science Offers, 257.

14. C, S. Lewis, is Theology Poetry?" in The Weight of Glory (New York: HarperCollins, 1976), 139;

و Case for Christianity, 32.

وراجع أيضًا:

Victor Reppert, C. S. Lewis's Dangerous Idea: In Defense of the Argument from Reason (Downers Grove, IL: InterVarsity, 2003);

و:

Stewart Goetz and Charles Taliaferro, "The Argument from Reason," appendix in Naturalism (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2008).

15. Lewis, Miracles, 36;

أما لقب "مراقب ملائكي" فهو مأخوذ من:

and the phrase "angelic observer" is from Charles Taylor, Hegel (Cambridge: Cambridge University Press, 1975), 564.

16. John Gray, Straw Dogs: Thoughts on Humans and Other Animals (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 2003), 26.

وبالمثل كتب إدوارد أوسبورن ويلسون Edward O. Wilson: "كل ما قد عُلِّمَ تجريبيًّا عن التطور... يشير إلى أنَّ العقل هو آلة مجمعة ليست لفهم نفسها، إنما للبقاء".

Consilience: The Unity of Knowledge (New York: Vintage, 1998), 105.

أدرك جون جراي مؤخرًا المشكلة أخيرًا: "إذا كان العقل البشري قد تطور طاعةً لأولويات البقاء، فما هو السبب وراء الظن أنَّه يستطيع تحصيل معرفة الحقيقة، في حين أنَّ المطلوب لتكاثر الأنواع مجرد ألا تكون أخطاؤها وأوهامها قاتلة؟ لا يمكن لفلسفة طبيعية صرفة تفسير للمعرفة التي نؤمن أنَّنا نمتلكها." حتى إنَّ جراي اقتبس عن آرثر جيمس بلفور Arthur Bal-four، الأمر الذي وثقه كليف ستيبلز لويس كمصدر لنقده الخاص لمذهب الطبائعية باعتبارها ذاتية الانهزام؛ فذكر: "كان حل آرثر جيمس بلفور أنَّ الطبائعية منهزمة ذاتيًّا: يمكن للبشر الوصول للحقيقة فقط عندما يشكل عقلٌ إلهي العقلَ البشري. ويمكن إيجاد حججٍ مشابهة عند عددٍ من الفلاسفة المعاصرين، أشهرهم ألفين بلانتينغا. ومجددًا لا يحتاج الشخص لقبول حل آرثر بلفور الإيماني لرؤية قوة حجته. ويستلزم التفسير الطبيعي بشدة للعقل البشري نظرةً أكثر شكوكية بكثير للمعرفة البشرية مما يُعترف به عمومًا".

"The Closed Mind of Richard Dawkins," New Republic, October 2. 2014.

17. Francis Crick, The Astonishing Hypothesis: The Scientific Search for the Soul (New York: Touchstone, 1994), 262.

هذه الفكرة ليست بجديدة. فبالعودة لعام 1903 كتب الفيلسوف فرديناند كانينغ سكوت شيلر F. C. S. Schiller أنَّ المنطق البشري ليس إلا "سلاحًا في الصراع مع البقاء، وطريقةً لتحقيق التكيف".

"The Ethical Basis of Metaphysics." in Humanism: Philosophical Essays (London: Macmillan, 1903). 7-8.

18. Baum, What Is Thought?, 226. Steven Pinker, How the Mind Works (New York: W. W. Norton, 1997), 305.

ومجددًا الفكرة ليست بجديدة. فقد كتب شارل ساندرز بيرس Charles Peirce: "من

المحتمل ولتحصيل مصلحة أكبر أن تمتلك الحيوانات عقلاً مملوءًا بالرؤى المشجعة الباعثة على السرور، بغض النظر عن حقيقة تلك الرؤى؛ وبذلك... قد يكون الانتقاء الطبيعي ميلاً باطلاً للفكر".

"The Fixation of Beliefs" Popular Science Monthly 12 (November 1877).

19. Leon Wieseltier, "The God Genome," New York Times, February 19, 2006.

كتب ألفين بلانتينغا أنَّ "ما يضمنه التطور هو – بأقصى درجاته – أنَّنا نتصرف بطرق محددة؛ بطرق تعزز بقاءنا... هو لا يضمن في الغالب الاعتقادات المحاكية للواقع أو الصحيحة".

Warrant and Proper Function (New York: Oxford University Press, 1993), 218.

كتب الفيلسوف روجر تريج Roger Trig: بالنسبة للتطور "فمن غير المهم إن كان معتقدٌ ما صحيحًا أو خاطئًا، طالما أنَّه مفيد من وجهة نظر جينية".

Philosophy Matters (Oxford: Blackwell, 2002), 83.

راجع أيضًا:

Angus Menuge, Agents under Fire: Materialism and the Rationality of Science (New York: Rowman & Littlefield, 2004).

20. Thomas Nagel, The Last Word (Oxford: Oxford University Press, 1997), 135-36.

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

راجع أيضًا:

Douglas Groothuis, "Thomas Nagel's Last Word' on the Metaphysics and Rationality of Morality," Philosophia Christi (series 2) 1, no. 1 (1999).

21. يكشف سياق ملاحظات داروين بوضوح الطبيعة الانتقائية لشكوكيته. ومما جاء في رسالةٍ شخصية له: "لقد عبرت عن اعتقادي الداخلي، بطريقة أكثر حيوية ووضوحًا بكثير أكثر

مما كنت سأقوم به، أنَّ الكون ليس نتيجة مصادفة. لكن عندها بالنسبة لي دائمًا ما سيرافقني شكٌّ مروع فيما إذا كانت اعتقادات العقل البشري – والتي تطورت من عقل حيوانات من مرتبة أدنى – لها أي قيمة أو يمكن الوثوق بها. هل يمكن لأي أحد الثقة في اعتقادات عقل قرد، إذا ما كان هنالك أساسًا أي اعتقادات في ذلك العقل؟"

C. R. Darwin to William Graham, July 3, 1881, Darwin Correspondence Project,

www.darwinproject.ac.uk/letter/entry-13230.

جاء في السيرة الذاتية لداروين: "هنالك مصدر آخر للاعتقاد بوجود الله، مصدر متصل بالمنطق وليس المشاعر، وأراه أقوى من غيره. ينبع هذا المصدر من الصعوبة الشديدة أو بالأحرى استحالة فهم هذا الكون الرائع والهائل، بما فيه البشر بقدرتهم على التطلع للمستقبل والماضي؛ كيف يكون كل هذا نتيجة الضرورة أو المصادفة العمياء. عند انعكاس هذا أشعر أني مجبر على النظر إلى السبب الأول بأنَّه يمتلك عقلاً مناظرًا لذلك الذي للإنسان بطريقة ما؛ وأنا أستحق أن يقال عني مؤمن.

"أستطيع أن أتذكر أنَّ هذه الخلاصة كانت قوية في عقلي في ذلك الوقت، ذلك عندما كتبت كتاب أصل الأنواع؛ ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الخلاصة تضعف تدريجيًّا مع بعض التأرجحات. لكن ظهر بعدها الشك؛ هل يمكن لعقل الإنسان الذي – كما أني واثق تمامًا – أنَّه تطور من حيوانات أدنى منه، هل يمكن الثقة به عندما يتعلق الأمر بمثل هذه الاستنتاجات الكبيرة؟ قد لا تكون هذه هي نتيجة الاتصال بين السبب والتأثير المتأصلة، لكن ربما تعتمد فقط على التجربة المكتسبة؟ ولا حتى يتوجب علينا تفحص إمكانية الانغراس الثابت للإيمان بالله في عقول الأطفال منتجًا تأثيرًا قويًّا للغاية، وربما موروثًا على عقولهم التي لم تنضج بعد، ذلك أنَّه قد يكون من الصعب عليهم التخلص من إيمانهم بالله كما يصعب على القرد التخلص من غريزة الخوف، وتخلص الأفعى من الكره".

"Recollections of the Development of My Mind and Character," Darwin Online

http://darwinonline.org.uk/content/frameset?pageseq=116&itemID=CUL-DAR26.1-121&viewtype=side.

22. Stephen Jay Gould, Ever Since Darwin: Reflections in Natural History (New York: Norton, 1977), 12-13.

23. Kenan Malik, "In Defense of Human Agency," in Consciousness, Genetics, and Society (Stockholm: Ax:son Johnson Foundation, 2002).

24. Cited in Victoria Gill, "Big Bang: Is Mere Room for God?," BBC News, October 19, 2012.

وصف كليف لويس التطور بـ "الخرافة الكبرى" وقال: "تطلب مني الخرافة أن أومن أنَّ المنطق هو ببساطة منتج ثانوي غير متوقع وغير مقصود لعمليات لا عقلية في مرحلة ما من تحولها العشوائي اللانهائي. فبذلك يسحب مني محتوى الخرافة الأساس الذي يجب أن أعتمد عليه لأصدق بصحة هذه الأسطورة. إذا كان عقلي الخاص هو نتاج لاعقلانية، إذا كان ما يبدو لي أوضح الأسباب المنطقية هو مجرد طريقة يستخدمها المخلوق ليتكيف – بنفس طريقة تأصل المشاعر فيَّ – فكيف سأثق بعقلي عندما يخبرني عن التطور؟"

"The Funeral of a Great Myth' in Christian Reflections (Grand Rapids: MI: Eerdmans, 1967), 89.

وفي مكان آخر كتب كليف لويس أنَّ أولئك الذين يصفون الفكر البشري "كظاهرة تطورية" عليهم دائمًا القيام بـ "استثناء تكتيكي" لتفكيرهم الخاص؛ على الأقل لحظة ذكرهم لذلك الادعاء. المعجزات Miracles, 36.

25. كتب فيليب جونسون Phillip E. Johnson: "لا نزال نرى الاختزاليين يصفون المعتقد الديني برضاً إما كإحدى الميمات( ) meme، أو كناتج 'لنموذج الله' في الدماغ، دون إدراكٍ منهم أنَّهم يتجاوزون حينها الأسس التي يستندون عليها. إذا سببت المادة غير العاقلة الأفكار التي لا يحبها الماديون، فما الذي يسبب الأفكار التي يحبون؟"

The Wedge of Truth: Splitting the Foundations of Naturalism (Downers Grove, IL: InterVarsity, 2000), 149.

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

26. Richard Cohen, "Alternative Interpretations of the History of Science," in The Validation of Scientific Theories, ed. Philipp G. Frank (Boston: Beacon, 1956), 227; and Christopher Kaiser, Creation and the History of Science (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 199 1), 10.

27. هكذا عبر يوهانس كيبلر Johannes Kepler عن الفكرة: الإله ذاته الذي أوجد العالم طبقًا لمعايير رياضية "وهب الإنسان عقلاً يستطيع فهم تلك المعايير." لمَ؟ "أراد الله منا فهم [هذه القوانين الرياضية] عندما خلقنا في صورته لكي نشغل جزءًا من أفكاره( )." مأخوذ من:

Robert Nadeau, Readings from the New Book on Nature (Amherst, MA: University of Massachusetts Press, 1981), 28.

راجع أيضًا:

The Soul of Science, chapters 3 and 6.

28. Eugene Wigner, "The Unreasonable Effectiveness of Mathematics in the Natural Sciences," in Mathematics: People, Problems, Results, vol. 3, ed. Douglas M. Campbell and John C. Higgins (Belmont, CA: Wadsworth International, Brigham Young University, 1984).

انظر نقاشي في كتاب روح العلم The Soul of Science الصفحة 159 من النسخة الإنكليزية.

29. Morris Kline, Mathematics: The Loss of Certainty (New York: Oxford University Press, 1980), 35.

30. The quote is from Hans-Georg Gadamer, Truth and Method (New York: Continuum, 1989), 459.

وبالمثل كتب رولان بارت Roland Barthes: "بالنسبة لنا أيضًا فاللغة هي ما يتكلم، وليس المؤلف."

"The Death of the Author," in Image-Music-Text (New York: Hill and Wang, 1977).

كتب مارتن هايدغر: "تتكلم اللغة... أفعال الشخص كما لو أنَّه كان هو من يصوغ اللغة ويتحكم بها، لكن في الحقيقة تبقى اللغة هي من يتحكم به".

Poetry, Language, Thought (New York: Harper Collins, 1971), 194, 144.

لقد كان لودفيغ فيتغنشتاين Wittgenstein من أعاد تعريف الأسئلة في الفلسفة كأسئلة في اللغة، فقد كان "يحول الأسئلة الكانطية عن المنطق إلى أسئلة عن اللغة".

Solomon, Continental Philosophy, 148.

31. Jean-Francois Lyotard, The Postmodern Condition: A Report on Knowledge, trans. Geoff Bennington and Brian Massumi (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1984, originally published in French in 1979). 36.

استعار جان فرانسوا ليوتار مصطلح ألعاب اللغة من لودفيغ فيتغنشتاين وقال: "ما يقصده بهذا المصطلح هو أنَّه يمكن تعريف كل التصنيفات المتنوعة للنطق في سياق القواعد التي تحدد خواصها والاستخدامات الممكنة لها، بالطريقة نفسها التي تعرف بها لعبة الشطرنج بمجموعة من القواعد المحددة لخواص كل قطعة، بكلمات أخرى: طريقة مناسبة لتحريكها" (10).

32. كانت التهمة التي "أُمسك بها أتباع ما بعد الحداثة في تناقض الأداء" تعود لـ:

Jurgen Habermas, Philosophical Discourse of Modernity (Cambridge, MA: MIT Press, 1987).

33. Barthes, "Death of the Author"; and Derrida. cited in Solomon, Continental Philosophy, 201.

34. Barthes, "Death of the Author."

35. Alan Jacobs, "Deconstruction," Contemporary Literary Theory: A Christian Appraisal, ed. Clarence Walhout and Leland Ryken (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1991), 192.

36. بكلمات أستاذ الأدب جون إليس John Ellis: "إنَّ التزام الباحث في العرق والجنس والطبقة الاجتماعية بحقائقه.... هو التزام وثيق إلى أقصى الحدود".

Literature Lost: Social Agendas and the Corruption of the Humanities (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), 191.

37. Mark C. Taylor. Disfiguring: Art, Architecture, Religion (Chicago: University of Chicago Press, 1992).

يشير تايلور خصوصًا للهندسة المعمارية، رغم أنَّه يعمم ذلك على باقي الفنون: "بما أنَّ مصمم المؤلف مصنوع في صورة الله، فيشير موت الإله لاختفاء مصمم المؤلف".

38. Lyotard, Postmodern Condition, 81-82; and Eagleton, Culture and the Death of God, 192.

39. West, Introduction to Continental Philosophy, 40.

40. Jacobs, "Deconstruction," 190.

41. Chronicle of Higher Education, June 27, 1997, B13, cited in Carl P. E. Springer, "The Hermeneutics of Innocence: Literary Criticism from a Christian Perspective," Leadership U, www.leaderu.com/aip/docs/springer.html#ref6.

42. Frank Lentricchia, "Last Will and Testament of an Ex-Literary Critic," Lingua Franca, September/October 1996, 64.

43. Bruno Latour, "Why Has Critique Run Out of Steam? From Matters of Fact to Matters of Concern," Critical Inquiry, 30 (winter 2004): 237-39.

وكما لاحظ برونو لاتور Bruno Latour: "هنالك شيء واحدٌ واضح، وهو أنَّه لا يرغب أيٌّ منا – نحن القُرَّاء – رؤية الأشياء التي نُحبها بصدق تُعامل بهذه الطريقة".

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

44. Karen Swallow Prior, "'Empathetically Correct' is the New Politically Correct," Atlantic, May 23, 2014.

45. Jean-Paul Sartre, "Existentialism and Humanism," in The Modern Tradition: Backgrounds of Modern Literature, ed. Richard Ellmann and Charles Fiedelson Jr. (New York: Oxford University Press, 1965), 828.

46. Michel Foucault, "Nietzsche, Genealogy, History," in The Foucault Reader, ed. Paul Rabinow (New York, Pantheon, 1984), 81, 94. The philosopher is John McCumber, Time and Philosophy: A History of Continental Thought (Montreal: McGill-Queen's University Press, 2011), 323.

من الأمثلة المفيدة: توضح جوديث بتلر Judith Butler كلًّا من انحلال الموضوع وفكرة أنَّ النفس هي نتاج هوية المجموعة. وتناقش أنَّه ليس لدى أي شخص هوية جنسية جوهرية؛ في الحقيقة ليس هنالك من "موضوع ثابت" "لامتلاك" شخصٍ ما جنسًا ذكرًا أو أنثى. إنما تنشأ الهوية الجنسية باستمرار من خلال الأفعال المعبر عنها: "الجنس دائمًا هو القيام بأفعال ما... ليس هنالك من هوية جنسية تكمن خلف تعابير الجنس؛ فالهوية تتشكل أدائيًّا من خلال 'التعابير' ذواتها التي يقال عنها إنها ناتجة عن تلك الهوية." علاوة على ذلك "يتقاطع الجنس استطراديًّا بالأنماط modalities الإقليمية والجنسية والعرقية و السلالات وأنماط الطبقة الاجتماعية للهويات المتشكلة".

Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity (New York: Routledge, 1990), 25, 3.

47. See Total Truth, 132-33, 138, and 408, n. 17.

48. من إصدار عام 1984.

49. الجزء الأول من الاقتباس هو من مقابلة مع سلافوي جيجك Slavoj Zizek من كتاب المؤمن The Believer، تموز 2014. أما الجزء الثاني فهو من كتاب:

Slavoj Zizek, The Fragile Absolute, or Why Is the Christian Legacy Worth Fighting For? (London: Verso, 2002), 129.

50. See Dennis Hollinger, "The Church as Apologetic: A Sociology of Knowledge Perspective," in Christian Apologetics in a Postmodern World, ed. Timothy R. Phillips and Dennis L. Okholm (Downers Grove, IL: inter Varsity, 1995), 183.

51. Francis Schaeffer, The Mark of the Christian, 2nd ed. (Downers Grove, IL: InterVarsity, 2006), passim.

52. لرؤية أن للمادية المتدنية للعالم المادي تداعيات قوية في العالم الحقيقي حول قضايا مثل الإجهاض والمثلية الجنسية. راجع:

Saving Leonardo, chapter 3.

و:

Saving Leonardo, chapter 3, and "Transgender Politics vs. the Facts of Life," The Pearcey Report

http://www.pearceyreport.com/archives/2013/07/nancy_pearcey_transgender_politics_vs_facts_of_life.php

53. Alvin Plantinga, Warrant and Proper Function (New York: Oxford University Press, 1993), esp. chap. 5, "Perception."

54. See The Soul of Science, chap. 1.

المبدأ الخامس: الملحدون الطفيليون

1. يفحص استطلاع جورج بارنا التغيرات في الرؤية الكونية عند المسيحيين في السنوات الـ 13 الماضية،" 6 آذار، 2009.

https://www.barna.com/research/barna-survey-examines-changes-in-worldview-among-christians-over-the-past-13-years/#.VC1nu_1dWSo

كان هنالك سؤالٌ واحد فقط في الاستطلاع يخاطب قضية الرؤى الكونية بأصالة، وهو عن: الإيمان "بوجود حقيقة أخلاقية مطلقة".

2. Hume, Inquiry, 77.

يحرض ديفيد هيوم دومًا العقل (الفلسفة) ضد الطبيعة ("الاندفاع الغريزي أو الطبيعي")، مشتكيًا أنَّ الطبيعة تبعدنا عن اتباع أفكارنا وصولاً لخلاصاتها المنطقية. راجع:

Treatise of Human Nature, 101.

3. Johnson, First Step, 25.

ينسحب هذا القسم على محاضرة لي تحت عنوان "الهوية الجنسية في العصر العلماني" والتي قدمتها في 5 آب من عام 2013، في جامعة هيوستن بابتيست، سلسلة محاضرات صيف في المدينة.

"Sexual Identity in a Secular Age," presented August 5, 2013, Houston Baptist University, Summer in the City lecture series.

4. Alexis de Tocqueville, Democracy in America: Historical-critical Edition of "De la demacratie en Amerique," vol. 3. ed. Eduardo Nolla, trans. James T. Schleifer (Indianapolis: Liberty Fund, 2010), 733.

5. Friedrich Nietzsche, The Will to Power, sect. 765.

6. Luc Ferry, A Brief History of Thought: A Philosophical Guide to Living (New York: Harper Perennial, 2011), 77.

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

7. Richard Rorty, "Moral Universalism and Economic Triage," presented at the Second UNESCO Philosophy Forum, Paris, 1996. Reprinted in Diogenes, vol. 44, issue 173 (1996).

8. Richard Rorty, "Postmodernist Bourgeois Liberalism," Journal of Philosophy 80, no. 10 (October 1983): 583-89.

إنَّ التطفل "Free-loading" هو ما سميته "الغش الفلسفي" في كتابي الحقيقة الكاملة في الصفحات 321-319 من النسخة الإنكليزية. أما فرانسيس شيفر فقد سماه "'الغش' الفكري" في مراجعة:

"A Review of Review," The Bible Today, October, 1948, 7-9.

ذكر أستاذ العلوم السياسية روبرت كراياناك Robert Kraynak أنَّ عدد الأشخاص المتطفلين بازدياد، فقال: "الأمر الغريب للغاية في عصرنا هو أنَّ مطالب احترام الحقوق البشرية والكرامة البشرية في ازدياد حتى مع اختفاء أسس تلك المتطلبات. وخصوصًا أنَّ الإيمان بالإنسان كمخلوق صُنع على صورة الله... استبدل به مادية علمية تقوض ما هو نبيل ومميز في البشر، واستبدل به أيضًا مذاهب النسبوية التي تنكر الأخلاقية الموضوعية المطلوبة لتضع أسس الكرامة البشرية".

"Justice without Foundations," New Atlantis

www.thenewatlantis.com/publications/justice-without-foundations

ويضيف روبرت كراياناك: "إن نسبويي ما بعد الحداثة (من أمثال رورتي)، وكذلك الداروينيين (من أمثال دينيت وبينكر) لديهم التزامات بالعدالة الاجتماعية، تظهر على شكل ديمقراطية وحقوق الإنسان واحترام الكرامة البشرية، والتي تتناقض كليًّا مع رؤاهم العلمية والفلسفية. لا يدعم التطور الداروينيي الديمقراطية والحقوق البشرية أو الكرامة المتأصلة للفرد؛ وإذا كان من الممكن أنه يدعم أي نوعٍ من الرموز الأخلاقية فهو يدعم رمز سيادة القوي على الضعيف".

http://darwinianconservatism.blogspot.com/2012/01/kraynaks-ni-etzschean-attack-on.html.

9. A. R. Hall, The Scientific Revolution, 1500-1800. The Formation of the Modern Scientific Attitude (Boston: Beacon. 1954), 171-72.

علاوة على ذلك لم يكن يعد مفهوم قوانين الطبيعة مفهومًا مجازيًّا، لم يعد مجرد شكلٍ للخطاب، إنما بات يعدُّ مفهومًا صحيحًا حرفيًّا. وكما شرح المؤرخ جون راندال John Randall: "كانت تعد القوانين الطبيعية أوامر أو قوانين حقيقية، مراسيم القدير، تُتَّبع حرفيًّا دون أي فعل متمرد".

John Herman Randall, The Making of the Modern Mind (New York: Columbia University Press, 1940), 274.

راجع أيضًا:

Stephen F. Mason, A History of the Sciences, originally published under the title Main Currents of Scientific Thought (New York: Collier Books, 1962), 173,182.

10. Mary Midgley. "Does Science Make Belief in God Obsolete? Of Course Not," John Templeton Foundation, www.templeton.org/belief/.

11. Paul Davies, "Physics and the Mind of God: The Templeton Prize Address," First Things 55 (August/September 1995): 31-35.

12. يظن كثيرٌ من الناس خطأً أن العلم ظهر فقط بعد أن حرر التنوير أوروبا من تأثيرها المسيحي السابق؛ ولذلك فإن العلم هو نتاج العلمانية. ليس كذلك. وصل عالم الاجتماع الديني رودني ستارك إلى أن يقول: "كان 'التنوير' محمولاً بدايةً كذريعة بروبوغاندا قام بها الإنسانيون والملحدون المقاتلون الذين حاولوا ادِّعاء شرف ظهور العلم".

For the Glory of God: How Monotheism Led to Reformations, Science, Witch-Hunts, and the End of Slavery (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003), 123.

13. John Gray, Straw Dogs (Farrar, Straus and Giroux, 2007), xi-xii, xiii, 4, 49.

يناقش جراي أنَّ كامل التحررية الغربية هي في الحقيقة طفيلية على الدين. ويذكر على سبيل المثال أنَّ الرؤية التحررية السامية للفرد الإنساني مشتقة مباشرةً من الدين، فقال: "ترث التحررية الإنسانية عدة معتقدات مسيحية أساسية؛ وأهمها هو معتقد أنَّ البشر مختلفون تصنيفيًّا عن باقي الحيوانات". ولم يذكر أي دين آخر أنَّ البشر لهم كرامة فريدة( ). فكر بالأمر كالآتي: لو أعلن داروين نظريته التطورية في الهند أو الصين أو اليابان فمن الصعب جدًّا أن تلقى آذانًا

صاغية. "ذلك لوجود مئات الملايين من الهندوس والبوذيين. حيث إن لم تؤمن أبدًا أنَّ البشر يختلفون عن أي شيء آخر في العالم الطبيعي بامتلاكهم روحًا خالدة، فستجد صعوبة في التعامل مع نظرية تُظهر كم لدينا من الأمور المشتركة مع باقي الحيوانات." إنَّ الرؤية الغربية السامية للكرامة البشرية والحقوق البشرية مستعارة مباشرةً من الدين. وخلص جراي إلى "أنَّ الرؤية الكونية العلمانية هي ببساطة الرؤية الكونية المسيحية لكن بعد نزع الله منها". "إنَّ الإنسانية ليست بديلاً عن المعتقد الديني، إنما هي بالأحرى نسخةٌ منحطةٌ وغير مقصودة منه".

John Gray, "Exposing the Myth of Secularism," Australian Financial Review, January 3, 2003.

وقد كتب جراي في مقال آخر: "فكرة حرية الإرادة التي تلهم الأفكار التحررية للاستقلال الشخصي هي فكرة يعود أصلها للكتاب المقدس (تذكّر قصة التكوين)( ). المعتقد الذي يمارس الإرادة الحرة هو جزءٌ من كون الإنسان هو ميراثَ الإيمان." وهكذا عمليًّا كل تنوع للإلحاد اليوم "هو اشتقاق عن المسيحية".

Gray, "The Atheist Delusion." Guardian, March 14, 2008.

للاطلاع على المزيد راجع كتاب الحقيقة الكاملة ص. 320 من النسخة الإنكليزية.

14. Thomas Nagel, Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature Is Almost Certainly False (Oxford: Oxford University Press, 2012), 48-52.

15. Nagel, Mind and Cosmos, 18-19.

كتب توماس ناغل أنَّنا بحاجة لرؤية بديلة للكون تجعل "العقل والمعنى والقيمة أساسياتٍ بقدر المادة والنسيج الزمكاني، وذلك لتفسير ما هو موجود" (20). راجع أيضًا:

Thomas Nagel, "The Core of 'Mind and Cosmos,"' New York Times, August 18, 2013.

16. Nagel, Mind and Cosmos, 128.

"استُهدِف ناغل سريعًا وتلقى ضربًا أدبيًّا مبرحًا من البارزين من الأشقياء والأشرار

ومتطفلي عالم الجريمة الفلسفي. تُعدُّ مهاجمة داروين ذنبًا عظيمًا تجاه الشبح المقدس، يُعلم العلماء الأتقياء ألا ينسوه مطلقًا.

David Gelernter, "The Closing of the Scientific Mind," Commentary, January 1, 2014.

17. Thomas Nagel, The Last Word (Oxford: Oxford University Press, 1997), 130-31.

يقترح ناغل أنَّ مشكلة المرجعية الكونية ذاتها أنها "مسؤولة عن كثيرٍ من علموية واختزالية حاضرنا".

18. Nagel, Mind and Cosmos, 15.

لا أهدف إلى "تقديم بديل"، إنما أعرض فقط سبب الحاجة إلى بديل (12). "كل ما يمكن عمله في هذه المرحلة من تاريخ العلم هو الجدال لتمييز المشكلة، وليس تقديم الحلول" (33). يأمل ناغل إيجادَ تفسيرٍ يتضمن نوعًا من العلة الغائية Teleology (الهدف) تستبطن الكون المادي، لتجنب الحاجة إلى واضع للغاية. وقد كتب عن "تفضيله الفكري الضمني" لغائيةٍ مستبطنة، أو ما دعاه "الغائية الطبيعية." "يتوافق تفضيلي لتفسير طبيعي مستبطن مع إلحادي" (12، 26، 93). وهو يعترف أنَّه ليس واثقًا أنَّ مفهوم "الغائية دون وجود قصد تشكل مفهومًا منطقيًّا" (93)، وحدسه صحيح: إنها بالفعل غير منطقية.

وإحدى الفلسفات التي أخذها ناغل في الاعتبار – دون أن يعتنقها – هي فكرة وجود عقلٍ يخترق الكون من داخله. تدعى هذه الرؤية الروحية الشاملة panpsychism.

لقد كانت فكرة الأفلاطونية الجديدة أنَّ هنالك شكلاً أوليًّا لعقل أو وعي ما، يتخلل كل شيء. وأُعيد إنعاش مبدأ الروحية الشاملة اليوم، خصوصًا بين مؤيدي التفاعلية الإيجابية بين الطبيعة الإلهية المطلقة والنسبية البشرية بما يسمى process thought and process theology. يناقشون أنَّ الحياة والوعي لا يمكن أن ينشأا من مادة مجردة. لذلك يجب وجود شكلٍ أوليٍّ ما من الحياة والوعي حتى على المستوى الأدنى من المادة. اقرأ هذا الوصف لأحد أنصار الروحية الشاملة: "نمط الروحية الشاملة الذي وجدته دامغًا هو الذي طوره ألفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead وهنري برجسون Henri Bergson و تشارلز

هارتشورن Charles Hartshorne وديفيد راي غريفن David Ray Griffin وكثير غيرهم على شكل نظام شامل في القرن العشرين. رغم ازدياد شعبية هذا النمط، إلا أنَّه يبقى رؤية ثانوية. الفكرة الأساسية فيه هي أنَّ جميع مكونات الكون لها على الأقل نمطٌ أولي من الوعي أو التجربة، وهي مجرد كلمات مختلفة المعنى للذاتية أو الإدراك... لم أسمع بأي معتنقٍ معاصر للروحية الشاملة يجادل أنَّ لكرسي ما أو صخرةٍ ما وعيًا. إنما الجزيئات التي تشكل الكرسي أو الصخرة لها افتراضًا نمطٌ أولي من الوعي".

Tam Hunt, "The C Word-Consciousness-and Emergence," Santa Barbara Independent, January 8, 2011.

وفي كتاب نُشر حديثًا تحت عنوان الوعي ومكانته في الطبيعة Consciousness and Its Place in Nature، يدافع فيه الفيلسوف البريطاني غالين ستراوسون Galen Straw-son عن الروحية الشاملة، ودعمه كذلك الفيلسوف الأسترالي ديفيد تشالمرز David Chal-mers والفيزيائي في جامعة أكسفورد روجر بنروز Roger Penrose.

19. Raymond Talk, Aping Mankind: Neuromania, Darwinitis, and the Misrepresentation of Humanity (Durham: Acumen, 201 1), 212-13.

(أُضيفت الخطوط السميكة للكلمات ذواتها من المصدر الأساسي).

20. Tallis, Aping Mankind, 317.

يقتبس تالس من كلام باولا تشيرتشلاند Paula Churchland من كتاب الفلسفة العصبية Neurophilosophy. بخصوص الاقتصاد العصبي راجع على سبيل المثال:

Dan Monk, "Nielson (NLSN) clients use neuroscience to craft better commercials," WPCO Cincinnati. Copyright 2013 Scripps Media.

21. Talks, Aping Mankind, 332; 59-71 and chap. 8; and 348.

22. Emily Wax, "Thinking Man's Therapy," Washington Post, August 22, 2011.

23. Eagleton, Culture and the Death of God, 204.

24. Luc Ferry, A Brief History of Thought: A Philosophical Guide to Living (New York: Harper, 2011), 6.

25. Pierre Hador, Philosophy as a Way of Life (Oxford: Blackwell, 1995), 103, 83.

26. Pierre Hadot, Plotinus, or the Simplicity of Vision (Chicago: University of Chicago Press, 1993, originally published in French in 1989), 75-76.

27. Alain de Botton, "Can Tolstoy Save Your Marriage?," Wall Street Journal, December 18, 2010; Samuel Muston, "Too Cool for Night School?," Independent, January 9, 2014. For a review of Botton's book, see Douglas Groothuis, "Religion for Atheists: A Nonbeliever's Guide to the Uses of Religion." Denver Journal, 16 (January 24, 2013).

28. Andre Comte-Sponville, The Little Book of Atheist Spirituality, trans. Nancy Huston (New York: Penguin, 2006).

29. "Britain's First Atheist Church," Huffington Post UK, July 1, 2013; and "Atheist 'Mega-churches' Take Root across US, World," Newsmax, November 10, 2013.

30. Wilfrid Sellars, Science, Perception, and Reality (Atascadero, CA: Ridgeview, 1991), 173; and Bertrand Russell, Science and Religion (Oxford: Oxford University Press, 1935), 235.

31. John Gray, "A Point of View: Can Religion Tell Us More Than Science?," BBC News, September 16, 2011.

32. Michael Bond, "Atheists Turn to Science during Times of Stress," New Scientist, June 7, 2013.

33. W. R. Thompson, "Introduction," in Charles Darwin, Origin of Species (New York: Dent, 1956), 12.

34. "يتضمن التطور – بطريقة أشبه بالدين – وضع افتراضاتٍ بدهية أو غيبية، افتراضاتٍ لا يمكن إثباتها تجريبيًّا."

Michael Ruse, "Nonliteralist Antievolution," AAAS Symposium: "The New Antievolutionism," February 13, 1993, Boston, www.leaderu.com/orgs/arn/orpages/or151/mr93tran.htm. Cf. Tom Woodward, "Ruse Gives Away the Store," http://simpleapologetics.com/tomwoodward.html.

35. كان قد أعد القطعة غريغوري براون Gregory Brown. شاهد الأداء هنا:

www.gregorywbrown.com/missa-charles-darwin/.

36. Stuart Kauffman, "Beyond Reductionism: Reinventing the Sacred," Edge, November 12, 2006.

يتابع ستيوارت كوفمن قائلاً: "يصاحب هذا الإله شعور بالواحدية، والتوحد لكل ما هو حي، ولكوكبنا؛ إنَّه يوسع وعينا ويبدو أنَّه يؤدي طبيعيًّا لأخلاق عالمية قوية معززة للتفكر والرهبة، وللمسؤولية ضمن الحدود المقيدة لقدراتنا، لكل الحياة وموطنها، الأرض، ويتجاوز ذلك عند استكشافنا للنظام الشمسي... هل سنستخدم كلمة الله؟ ذلك خياري. خياري هو 'نعم' مؤقتًا. أريد أن يُقصد بالله الإبداعُ الواسع اللا متوقف للكون الوحيد الذي نعرفه، كوننا." حذر فرانسيس شيفر أنَّ الكلمات الدينية غير المحددة مثل "الله" أو "الإله" يمكن استخدامها على التلاعب بالناس عاطفيًّا، وذلك لقدرتها الدلالية. راجع كتاب: الله الموجود والهرب من المنطق The God Who Is There and Escape from Reason.

37. تصنف بعض الرؤى – كرؤية ستيوارت كوفمن – أحيانًا بأنَّها مذهب الطبيعية المتدينة. ومن الأمثلة الأخرى على الطبيعية المتدينة راجع:

Jerome A. Stone, Religious Naturalism Today (New York: State U. of New York Press, 2008); Chet Raymo, When God Is Gone, Everything Is Holy: Making of a Religious Naturalist (Notre Dame, IN: Sorin Books, 2008); Loyal Rue, Religion Is Not about God (Piscataway, NJ: Rutgers University Press, 2006).

38. Jeremy Rifkin, Algeny (New York: Viking, 1983), 188, 195, 244.

39. C. S. Lewis, The Abolition of Man (New York: HarperCollins, 1947), 29.

تتوفر إصداراتنا في:

- متجر دلائل الإلكتروني:
  - تويتر: (@Dalailcentre).
  - واتساب: (00966539150340).
- جرير: (www.jarir.com) جميع مناطق المملكة.
- دار مفكرون:
  - تويتر - فيسبوك: (@mofakroun).
  - تواصل: (00201110117447).
- جملون: (www.jamalon.com).
- النيل والفرات: (www.neelwafurat.com).
- متوافر في المكتبات التالية :
  - الرياض: **بوكتشينو – التدمرية – التراثية**.
  - جدة: **الشنقيطي – الأمة**.
  - مكة: **الأسدية**.
  - الكويت: **الإمام الذهبي**.
  - مسقط: **روازن**